

الفصل الأول

خلفية عن الوقف والعمران

من المعروف بل - ومن الثابت تاريخياً - أن الأمم التي سبقت الإسلام قد عرفت الوقف، ولكنه لم يكن بالمعنى الذي ظهر في الإسلام، من حيث كونه صدقة جارية، وعملاً يتقرب به الفرد إلى الله سبحانه وتعالى.

ورغم وجود الوقف في الأزمنة السابقة للإسلام، وحتى في البلاد غير الإسلامية حالياً، إلا أنه لم يصل إلى الدور الذي قام به في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية؛ فقد شملت الأوقاف كل الوظائف تقريباً، كما خدمت جميع مناحي الحياة الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والتجارية، والسياسية، بل يمكن القول بأنه لم يكن هناك نشاط حياتي في المدينة الإسلامية إلا ونجد الدور الواضح فيه للوقف. يأتي هذا الفصل في مقدمة فصول الكتاب، وعليه يقع عبء تقديم خلفية نظرية عن الوقف من جهة، والعلاقة بين الوقف والعمران من جهة أخرى.

(١، ١) الوقف في الإسلام

نشأ نظام الوقف في الإسلام أول الأمر في المدينة المنورة، في عهد الرسول ﷺ، حيث كان ﷺ أول من أوقف وقفاً، كما أمر الصحابة رضي الله عنهم به، والذين ما لبثوا أن

تسابقوا في وقف الأوقاف بأوجه متعددة شملت كل جوانب الحياة تقريباً. ورغم أن الوقف لم ينزل به نص صريح في القرآن الكريم، باستثناء بعض الآيات التي تدعو إلى الإنفاق والبر والتحفيز على الصدقة والإنفاق، إلا أنه، ونتيجة لفعل الرسول ﷺ وصحابته الكرام ﷺ للوقف، أصبح الوقف منذ ذلك الوقت من القربات التي يتقرب بها الناس إلى الله سبحانه وتعالى، بل وأصبح من العوامل التي تساعد على استقرار الأنظمة السياسية والحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، بجانب ما قدمه من حماية لأسرة الواقف وذريته من بعده من خلال حفظ نصيبهم فيما سمي بالوقف الذري أو الأهلي.

(١, ١, ١) ماهية الوقف

الوقف في اللغة: "الحبس والمنع، وجمعه وقوف، وهو مصدر وقف"^(١). والوقف في الشرع: حبس الأصل وتسبيل الثمرة (المنفعة)^(٢). وكما قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري عن الوقف: "أنه قطع التصرف في رقبة العين التي يدوم الانتفاع بها وصرف المنفعة"^(٣). ومعنى تحييس الأصل، أي المنع من الإرث والتصرف في العين الموقوفة بالبيع، أو الهبة، أو الرهن، أو الإجارة، أو الإعارة، وما إلى ذلك من أشكال التصرف في الملك. أما تسبيل المنفعة فهو صرفها في سبيل الله على الجهة أو الجهات التي عينها الواقف في نص وثيقة أوقفه من دون عوض^(٤).

"والوقف نوع من أنواع الصدقات التي يقصد بها التقرب إلى الله تعالى، فهو من القربات المشروعة التي حث الشارع الكريم عليها، وندب إليها، وطريق من طرق

(١) ابن منظور، لسان العرب، مج ٩، بيروت، دار بيروت: ١٩٦٨م، ص ٣٥٩

(٢) السيد سابق، فقه السنة، ط ١٠، ج ٣، القاهرة: الفتح للإعلام العربي، ١٩٩٣م، ص ٣٠٧

(٣) الإمام أبي زهرة، محاضرات في الوقف، ط ٢، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٢م، ص ٣٩

(٤) محمد أمين أبو المكارم، "الوقف والموقوف عليه من زاوية فقهية واجتماعية واقعية"، مجلة الواحة، العدد ٩.

إدراك الخير، وإجزال المثوبة للمتصدق، متى اقترن عمله بنية صالحة، ورغبة صادقة^(٥)، في فعل الخير.

أما من الناحية الاستثمارية، فالوقف هو عمل يجمع ما بين الاستثمار والادخار معاً، فهو يتضمن اقتطاع جزء من المال كان سيستهلك من جانب المالك أو ورثته، حيث يتم استثمار هذا الجزء المقتطع وتحويله إلى أصول رأسمالية إنتاجية ثابتة تنتج المنافع والخدمات والإيرادات التي تستثمر في المستقبل في أوجه الخير والبر^(٦)، ولعل هذا ما يتطابق مع الفكرة الأساسية في الوقف بحبس رأس المال وتسهيل ثمرته.

(١, ١, ٢) نشأة الوقف في الإسلام

كان الرسول ﷺ هو أول من أوقف في الإسلام، حيث أوقف مسجد قباء الذي أسسه عند وصوله المدينة المنورة مهاجراً، ثم أوقف المسجد النبوي بعد أن اشترى الأرض التي أقام عليها المسجد من غلامين يتيمين من الأنصار، كذلك أوقف النبي ﷺ سبع بساتين، وهي ما تعرف بأرض مخيرق، كان قد أوصى بها أحد المجاهدين، وهو مخيرق ؓ حين استشهد، وترك أمرها للرسول ﷺ يضعها حيث يشاء، فأوقفها رسول الله ﷺ على الفقراء والمساكين والغزاة وذوي الحاجات^(٧).

واستمر الصحابة ؓ بعد رسول الله ﷺ يعملون بالوقف ويهتمون به للصرف على المصالح العامة، وللقيام بأمور ذوي الحاجة من أبناء الأمة^(٨). فقد روى عبد الله بن عمر ؓ قال: أصاب عمر أرضاً بخير فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها، فقال: يا رسول

(٥) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، الناشر المؤلف، ٢٠٠١م، ص

(٦) المرجع السابق، ص ٥٠ - ٥١.

(٧) المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(٨) عبد الستار إبراهيم الهيبي، الوقف ودوره في التنمية، قطر: مركز البحوث والدراسات ١٩٩٧م.

الله إنني أصبت أرضاً بخير لم أصب قط مالا أنفس عندي منه ، فما تأمرني؟ فقال : "إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها ، غير أنه لا يباع أصلها ولا يبتاع ولا يوهب ولا يورث". قال فتصدق بها عمر على الفقراء ، وذوي القربى ، والرقاب وابن السبيل والضيف ، لا جناح على من وليها أن يأكل منها ، أو يطعم صديقاً بالمعروف غير متأثر فيه ، أو غير متمول فيه ^(٩).

ثم تنامت وكثرت الأوقاف التي تم إيقافها من قبل الصحابة رضي الله عنهم بعد وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبئر رومة ؛ مثل عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، ومعاذ بن جبل رضي الله عنه ، وغيرهم من الصحابة والصحابيات حتى بلغ عددهم عن أحصاهم ٢٦ واقفاً في ذلك الوقت. فقد أكثر الصحابة رضي الله عنهم من الصدقات الموقوفة التي حبسوها على أبواب الخير ووجوه البر ، فوقفوا الدور والأراضي ، وظلت أحباس الصحابة قائمة حتى عهد الإمام مالك ، والتي احتج بها على من أبطل الوقف من فقهاء العراق ^(١٠). قال زيد بن ثابت : "لم نر خيراً للميت ولا للحى من هذه الحبس الموقوفة ، أما الميت فيجري أجرها عليه ، وأما الحى فتحبس عليه ولا توهب ولا تورث ولا يقدر استهلاكها" ^(١١).

وقد زاد الوقف في عهد الخلفاء الراشدين نظراً لتزايد ثروات المسلمين ، وفتح البلدان ، ولكثرة المال في أيدي الناس. كما أن ظهور أبعاد جديدة من الحاجة والعوز ، شجع العديد من التابعين ومن بعدهم على الوقف ، وبخاصة على الفقراء وطلبة العلم

(٩) صحيح البخاري ٣٥٤/٥ حديث رقم ٢٧١٧ ، وصحيح مسلم ٣/١٢٥٥ حديث رقم ١٦٣٢

(١٠) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م دراسة

تاريخية وثائقية، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٠ م، ص ٢١

(١١) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٥، ط ٢، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧١ م، ص ٩٠

والحاجات المختلفة للمجتمع^(١٢)، بل أصبح الوقف من ذلك الحين وعلى مر عصور الحضارة الإسلامية، وحتى يومنا هذا (وإن لم يكن بنفس الدرجة من الاهتمام) من الأوجه المهمة التي وجه إليها الأغنياء، من الأمراء والحكام والتجار وغيرهم، جزءاً من أموالهم العقارية أو النقدية.

(١، ١، ٣) مشروعية الوقف

مما سبق يتضح مشروعية الوقف، كما أن تلك المشروعية ثابتة بفعل النبي ﷺ وصحابته الأخيار^(١٣). وأن أصل مشروعيته ثابت في الكتاب والسنة والإجماع^(١٤).

ومن القرآن نستمد مشروعية الوقف في قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَنْ نَّأُلُوَ الْبَرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^(١٥). أما في الحديث، فعن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة أشياء: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"^(١٥)، والمقصود بالصدقة الجارية، الوقف^(١٦).

وقد شرع الله الوقف وندب إليه وجعله قرينة من القرب التي يتقرب بها إليه، ولم يكن أهل الجاهلية يعرفون الوقف، وإنما استنبطه الرسول ﷺ ودعا إليه وحبب فيه براً بالفقراء وعطفاً على المحتاجين^(١٧).

(١٢) فؤاد العمر، دور مؤسسات الوقف المعاصرة في رعاية قضايا المرأة "إشكاليات وتجارب"، مجلة أوقاف،

العدد ١٠، السنة السادسة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٦م، ص ١٣٨

(١٣) عبد الستار إبراهيم الهبتي، الوقف ودوره في التنمية، مرجع سابق.

(١٤) سورة آل عمران، آية ٩٢.

(١٥) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

(١٦) السيد سابق، فقه السنة، مرجع سابق، ص ٣٠٧.

(١٧) المرجع السابق، ص ٣٠٧.

وقد ذهب جمهور الفقهاء من المالكية، والشافعية، والحنابلة، والحنفية إلى مشروعية الوقف، وجوازه في الدور، والأرضين بما فيها من البناء، والغراس، وفي العبيد، والسلاح، والكراع، والثياب، والمصاحف، وغيرها^(١٨).

وقد انطلق الواقفون في مختلف العصور الإسلامية من حديث رسول الله ﷺ باعتبار الوقف صدقة جارية. فها هو السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون (تولى السلطنة مرتين، الأولى ٧٤٨-٧٥١هـ، والثانية ٧٥٥-٧٦٢هـ) يستهل وثيقة وقفه للجامع والمدرسة في القاهرة بقوله: "الزاد ما ادخر الإنسان ليوم المعاد وقدمه بين يدي خالقه عند قيام الأشهاد، وأقرض الله قرضه الحسن، ففاز بنيل المراد - الصدقة التي يرجو بها المتصدق الأجر والثواب .. وتكون له طريقاً موصلة إلى دار النعيم، دافعة عنه ما يخشاه من عذاب الجحيم، لقوله ﷺ اتق النار ولو بشق تمرة .. سيما صدقة الأوقاف التي هي أنفس الصدقات وأسناها، وأرفعها قدراً عند الله وأعلاها، ولا استمرار تسطيرها في الصحف الحسان .. فهي الصدقة الجارية والذخيرة الباقية وقد بدأ ﷺ بذكرها، فقال إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم نافع، أو ولد صالح يدعو له. وقال ﷺ فيما ثبت عنه في صحيح السنة مقال أخبر فيه بعظم المنة "من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة"^(١٩).

(١,١,٤) أنواع الوقف

للقوف نوعان رئيسان هما: الوقف الخيري، والوقف الأهلي. ويضيف البعض نوعاً ثالثاً يسمى الوقف المشترك.

(١٨) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ٢٧-

(١٩) محمد عبدالستار عثمان، نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، ط ١، دار الوفاء

الوقف الخيري: وهو الوقف الذي يكون على جهة من جهات البر والإحسان ابتداءً، وقد نصت الكثير من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة على الخير وحضت عليه، ومن هنا فقد انطلق الواقفون في هذا النوع من الوقف في كل مجال من مجالات الخير في المجتمع.

الوقف الأهلي: ويعرف بالوقف الذري أيضاً، وهو الوقف الذي يكون على النفس ابتداءً، أي على شخص الواقف نفسه، وعلى ذريته أو نسله أو عقبه من بعده، على أن يؤول في حالة انقطاع الذرية إلى جهة من جهات البر. وقد بدأ هذا الوقف منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم، فقد روى الإمام البخاري أن الزبير رضي الله عنه تصدق بدوره وقال للمردودة من بناته أن تسكن غير مضرة ولا مضر بها فإن هي استغنت بزواج فلا حق لها، كما شمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بوقفه ذوي القربى إلى جانب الآخرين الموقوف عليهم. وقد انتشر هذا الوقف بشكل فاق به الوقف الخيري، ومازال العمل به قائماً في بعض البلاد الإسلامية^(٢٠). بل لقد كان الوقف الخيري من أهم العوامل التي ساعدت في ازدهار الأوقاف في العصر المملوكي خاصة، حيث كثرت أوقافهم التي يخصصون نصيباً منها لذريتهم لتأمين مستقبلهم^(٢١). إلا أن هذا الوقف قد بدأ في الانحسار والزوال؛ بسبب قيام بعض الدول بإلغائه^(٢٢)، وتصفيته وإبطال العمل به تحت عدة

(٢٠) من البلاد الإسلامية التي مازالت تطبق الوقف الأهلي: المغرب، ولبنان (جمعة محمود الزريقي، "الوقف الأهلي بين الإلغاء والإبقاء"، مجلة أوقاف، العدد ٣، السنة الثانية، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٢م، ص ٩٧).

(٢١) محمد عبدالستار عثمان، نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، مرجع سابق، ص ١٠٥.

(٢٢) من البلاد الإسلامية التي ألغت الوقف الأهلي؛ تركيا سنة ١٩٢٦م، وسوريا سنة ١٩٤٠م، ومصر سنة ١٩٥٢م، وليبيا سنة ١٩٧٣م (جمعة محمود، الزريقي، "الوقف الأهلي بين الإلغاء والإبقاء"، مرجع سابق، ص ٩٧).

ذرائع منها: سوء استغلاله، واتخاذ وسيلة للتهرب من نظام الميراث أو التفريق بين الأولاد في الوقف بإخراج البنات منه، أو نتيجة عدم كفاية غلة الوقف على المستحقين بسبب انحسار الموقوف، وازدياد عدد الموقوف عليهم (من الذرية خاصة) مع تعاقب الزمن^(٢٣).

الوقف المشترك: وهو الوقف "الذي يجمع بين الوقف الأهلي والوقف الخيري، وهو الذي تم ابتداءً على الذرية وعلى جهة من جهات البر في وقت واحد، بمعنى أن الواقف قد جمعهما في وقفه، فجعل لذريته نصيباً من العين الموقوفة، وللبر نصيباً محدوداً أو مطلقاً غلب الباقي أو العكس"^(٢٤)، بمعنى قد يكون نصيب الموقوف عليهم من غير الذرية أكبر من نصيب الذرية أو العكس.

وقد انتشر هذا الوقف في العصر المملوكي بشكل خاص؛ حيث إن معظم وثائق الوقف في ذلك الوقت تضمنت نص الواقف على وقف عقارات وأراضي يزيد ريعها كثيراً عن الحاجة الفعلية لمصاريف الوقف، وبعد بيان أوجه الإنفاق ينص الواقف على أن ما يزيد من ذلك يعود للواقف في حياته وإلى ذريته من بعده. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في نص وثيقة السلطان برسباي "ومهما فضل بعد ذلك من الريع تناوله مولانا السلطان الواقف المشار إليه لنفسه الشريفة أيام حياته ثم من بعده يكون هذا الفضل لمن يوجد من أولاد الواقف المشار إليه وأولاد أولاده وذريته ونسله وعقبه من الذكور والإناث من أولاد الظهر وأولاد البطن"^(٢٥).

(٢٣) جمعة محمود الزريقي، الوقف الأهلي بين الإلغاء والإبقاء، مرجع سابق، ص ٨٣، ٨٤، ٨٦.

(٢٤) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ٥٥.

(٢٥) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٧٣.

(١,١,٥) أهمية الوقف

يعد الوقف من الأعمال التطوعية التي تحقق للواقف وأفراد مجتمعه غايات الإسلام المتميزة، فهو عمل تعبدي يحسب للمسلم في حياته، ويرجع كفته يوم الحساب في آخرته، وهو عمل اجتماعي يوفر للمجتمع الإمكانات المادية اللازمة للقيام بمهمة الاستخلاف على أحسن وجه، وهذه المفاهيم في حقيقتها من المرتكزات الأساسية للعملية التنموية التي يعتبرها الإسلام وسيلة لتحقيق مجموعة من القيم الإيمانية وليست غاية في ذاتها. إن المتابعة الموضوعية للأوقاف الإسلامية وما نتج منها من خدمات اجتماعية متعددة يشير إلى أنها تسعى لتحقيق مبدأ التكامل والتكافل الاجتماعي فيما بين أفراد الأمة، الأمر الذي يثبت بوضوح أنها أبرز صيغة من صيغ التنمية الاجتماعية، كما أن المتبع للكثير من حالات الوقف وأشكاله يجد تركيزاً كبيراً من قبل الواقفين على رعاية المصالح الاجتماعية للأمة^(٢٦).

ولا تقتصر أهمية الوقف وثمرته في الإحساس بمنفعته الدنيوية فحسب، وإنما تظهر بجلاء في دوام منفعته وثبات أجره للواقف حتى بعد وفاته، بل إن الواقف يحصل جراء وقفه على الأجر العظيم الذي لا ينقطع^(٢٧)، مصداقاً لحديث الرسول ﷺ والذي سبق ذكره، وفيه الحث على الصدقة الجارية، التي يعد الوقف (بأنواعه المختلفة) أحد أوجهها الواضحة من غير شك أو شائبة.

والمأمل في طبيعة الوقف، من خلال دلالاته التشريعية، ونماذجه التطبيقية، يجد أنه إفراز طبيعي وذاتي لمسئولية المسلم تجاه مجتمعه، ورسالته في الحياة، وتعايشه مع

(٢٦) عبدالستار إبراهيم الهيبي، "الجامعة الوقفية الإسلامية"، مجلة أوقاف، العدد ٢، السنة الثانية، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، ٢٠٠٢م، ص ٩٧.

(٢٧) محمد بن عبدالعزيز الحيزان، دور الإعلام في توعية الجمهور بالوقف، مجلة أوقاف، العدد ٤، السنة الثالثة، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، مايو ٢٠٠٣م، ص ٤٤.

بني دينه ووطنه ، فالمسلم الحق هو الذي يحيا بأهله وذويه وإخوانه في الدين والوطن ، يستشعر آلامهم وآمالهم ، ويشاركهم في أتراحهم وأفراحهم^(٢٨).

ولم يتوقف دور الوقف عند الدور الديني أو الاجتماعي أو الثقافي ، بل تعداه إلى الدور السياسي ، فعلى سبيل المثال ، نجد أن الوقف الذي وصل إلى الذروة في الدولة العثمانية ، كان له دوره المهم في استقرار نظام الحكم الذي كان يساهم فيه ويستفيد منه في الوقت نفسه. وبعبارة أخرى ، فقد ساهم الوقف بدور كبير في امتصاص التوتر الاجتماعي ، بما كان يقدمه من خدمات مجانية للفئات المحتاجة في المجتمع ، وإرساء نوع من السلام الاجتماعي الذي يخدم بطبيعة الحال النظام القائم^(٢٩).

إن التجربة التاريخية للوقف تسمح بالتعرف بقدر أكبر من الوضوح على علاقات المجتمع الإسلامي كوحدة واحدة كبيرة في مواردها البشرية والمادية ، وغنية في ثرواتها التي تخضع لنظام مالي يدعمه نظام الوقف بشكل تكاملي إلى جانب الأدوات المالية الأخرى كالزكاة. وبدون شك أن المحيط والحيز المكاني الواسع للمجتمع الإسلامي أتاح الفرصة الحقيقية لانتعاش مشروعات الوقف في كل بقعة جغرافية ينتمي إليها المسلمون في المجالات الاجتماعية العديدة ؛ مما هيا للوقف مكانة قوية وراسخة في المجتمع لدى الراعي والرعية على حد سواء^(٣٠) ، بل جعلت العلاقة بينهما تتسم بالتسامح والرقى والسلام الاجتماعي الذي هو الأهم في استقرار المجتمعات.

(٢٨) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ٢٠٢.

(٢٩) محمد الأرنؤوط، "الوقف في الدولة العثمانية قراءة معاصرة"، مجلة أوقاف، العدد ٣، السنة الثانية،

الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٢م، ص ٥٤.

(٣٠) ياسر عبد الكريم الحوراني، "تجربة الوقف في إطار عالمي"، مجلة أوقاف، العدد ٦، السنة الثالثة، الكويت:

الأمانة العامة للأوقاف، يونيو ٢٠٠٤م، ص ١٨٢.

إن من أهم ما يميز الوقف كنتاج واقعي للفكر الإسلامي، أن تعاليم الإسلام في الوقف تنطوي على خصوصيات مشتركة للوقف تتفق مع الأهداف الكلية لنظرة الإسلام الشاملة للكون والإنسان والحياة، ولعل من أبرز خصوصيات الوقف أنه أداة تكميلية لمدخلات البر والإحسان وأهمها الزكاة، إلا أنه يختلف عن الزكاة التي يرى العلماء أفضلية توزيعها وصرف مستحقاتها ضمن الدولة الواحدة، أو حتى بقعة جغرافية واحدة أقل مثل الحي أو نطاق المجموعة الواحدة، فإن الوقف تمتد منافعه ومزاياه ضمن تدابير ووسائل عابرة للحدود والبلدان، أي أن الوقف يمثل في كيانه مشروعاً إنسانياً تسمح مبادئه وفلسفته للعمل بطريقة أوسع خارج حدود الدولة الواحدة، وتبعاً لذلك كانت مشروعات الوقف فاعلة بطريقة أكثر عمقاً في المجتمع الإسلامي، وكانت السمة البارزة للعديد من مدخلات الوقف وأنشطته ذات طبيعة متعددة المنافع، تتجاوز حدود القطر الواحد أو البيئة المحلية الواحدة^(٣١).

لقد ساهمت الأوقاف بشكل فعال في قيام بنية تحتية اجتماعية واقتصادية شكلت الأساس الموضوعي لقنوات التواصل بين العلماء المسلمين، والرافد الأساسي لإعادة إنتاج المعرفة الإسلامية حسب الزمان والمكان؛ مما كان له الأثر الكبير في تسهيل الترابط العلمي بين المراكز الثقافية في العالم الإسلامي^(٣٢).

إن الوقف قد أوجد مجاًلاً محلياً مشتركاً تتعاون من داخله الدولة مع مكونات المجتمع الأهلي، كما أوجد - وفي نفس الآلية - فضاءً دولياً مشتركاً بين مختلف أرجاء الأمة الإسلامية، حتى بعد انفصالها إلى دول مستقلة، وقد تمكن المسلمون من خلال

(٣١) المرجع السابق، ص ١٧٨، ١٧٩.

(٣٢) طارق عبد الله، "عولمة الصدقة الجارية: نحو أجندة كونية للقطاع الوقفي"، مجلة أوقاف، العدد ١، السنة

الثامنة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٨م، ص ٣٣.

هذا الفضاء بمختلف انتماءاتهم الجغرافية من بناء مؤسسات وقفية ذات مهام ووظائف دولية، وتأكيد انتمائهم العملي والواقعي للأمة الواحدة بمفهومها الواسع، بجانب مساهمتهم في الدفاع عن حياضها ومؤازرة أفرادها عند الشدائد حيثما كانوا، إضافة إلى تقديم النماذج الحية التي تعبر وبصدق عن إنسانية الإسلام^(٣٣)، والإنسان القائم على عملية الوقف، سواء الواقف نفسه، أو من يوكل إليه إدارة الوقف.

(١، ١، ٦) تطور فقه الوقف

يمثل تطور فقه الوقف خطأً بيانياً متصاعداً باستمرار منذ بدايته في عهد الرسول ﷺ، حيث كان يقتصر على نوع واحد بسيط وهو الأراضي المثمرة، وعيون الماء والمباني، وحتى اتساعه ليشمل المنقولات من الكتب والسلاح والنقود^(٣٤).

إن الوقف لم يرد نص على كفيته في القرآن الكريم، وإنما ثبت طريقته في السنة النبوية، كما أن الذي ورد في السنة النبوية أيضاً هو حكم إجمالي عام، في أن يجبس أصل الموقوف، دون أن يباع أو يوهب أو يورث، وأن تسبل ثمرته. أما تفاصيل أحكام الوقف المقررة في الفقه، فهي اجتهادية قياسية، للرأي فيها مجال^(٣٥). من هنا فقد كانت هذه الأحكام خاضعة للتطور بسبب اختلاف المسائل الفقهية والإشكاليات، والتي كانت ومازالت تتطلب من الفقهاء الإفتاء فيها، كل منها بحسب حالته والظروف التي تحيط بها.

وقد مرت الأوقاف منذ نشأتها بأدوار وعصور اختلفت مصادر أحكامها تبعاً لاختلافها، ففي عصر الاجتهاد - ويشمل عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم - لم يكن هناك مذهب معين أو قانون خاص يطبق على الأوقاف. أما في عصر تكوين

(٣٣) المرجع السابق، ص ٣٣ - ٣٤.

(٣٤) محمد الأرناؤوط، "الوقف في الدولة العثمانية قراءة معاصرة"، مرجع سابق، ص ٤٨.

(٣٥) مصطفى أحمد الزرقا، أحكام الوقف، ط ٢، دار عمار، عمان، ١٩٩٨م، ص ١٩.

المذاهب وانتشار التقليد فقد كان أكثر الأوقاف في البلاد العربية تطبق عليها الأحكام المقررة في المذهب الحنفي أو الشافعي أو المالكي في شمال إفريقية، بجانب أن هذه الأحكام لم يصدر بها تقنين مسنون وإنما كان القضاة يرجعون إلى كتب الفقه المعتمدة في المذهب الذي يطبقون أحكامه^(٣٦).

وتعد أحكام المنقول والنقود من أهم ما حدث من تطور في فقه الوقف، وقد بدأ الوقف بوقف العقار حيث أجمع الفقهاء على صحة وقف العقار من أرض ومباني، أما المنقول فقد ذهب إلى جواز وقفه أكثر الفقهاء^(٣٧). والمنقول المتعارف على وقفه مثل الفأس والمرو والقدوم والمنشار والجنابة، وثيابها، والقدور، والمراجل، والمصاحف، والكتب، والسلاح، والكراع كالخيل، والإبل. وكل ما يصح وقفه تبعاً، كمن وقف مزرعة بقرها وأكرتها وهم عبيد وسائر آلات الحراثة^(٣٨).

وقال بعض الفقهاء يلحق بالمنقول النقود، فيجوز وقفها وتدفع مضاربة إلى من يعمل فيها، ثم يصرف ريعها إلى من عينهم الواقف ويستبقي أصلها ليثمر ثانية^(٣٩)، حيث حدث ذلك في مطلع الدولة العثمانية بشكل خاص، فقد تطور الوقف على المستويين النظري (الفقهي) والعملي (التطبيقي). فعلى المستوى الفقهي فقد حدث تطور مثير خلال القرن الخامس عشر الهجري، تتجج بإقرار وقف النقود من قبل شيخ الإسلام المعروف أبو السعود أفندي، وتمثل في السماح بوقف النقود^(٤٠)، وعليه فقد

(٣٦) زكي الدين شعبان؛ وأحمد الغندور، أحكام الوصية والميراث والوقف في الشريعة الإسلامية، ط ٢، الكويت: مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م، ص ٤٧٣.

(٣٧) أحمد الحجي الكردي، بحوث وفتاوى فقهية معاصرة، ط ١، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٩٩٩م، ص ٢١٠.

(٣٨) العلامة الفقيه إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، تحقيق ودراسة الألباني، وهي سليمان غاوجي، ملتقى الأبحر، الجزء الأول، والجزء الثاني، ط ١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩هـ، ص ٤٠١.

(٣٩) أحمد الحجي الكردي، بحوث وفتاوى فقهية معاصرة، مرجع سابق، ص ٢١٠.

(٤٠) ظهر أول وقف للنقود في عاصمة الدولة العثمانية أدرنة خلال سنة ٨٢٨هـ / ١٤٢٢م، حين أوقف الحاج مصلح الدين عدة دكاكين ومبلغ ١٠ آلاف أقة لكي يصرف العائد منها على ثلاثة قراء للقرآن الكريم في جامعة كليسه، وبعد حوالي عشرين سنة أي في ٨٤٨هـ / ١٤٤٢م ظهر في أدرنة الوقف الثاني، والذي أنشأه بليان باشا، والذي أوقف حماماً وأربعة دكاكين ومبلغ ٣٠ ألف أقة، يصرف العائد منها على الجامع والكتبة والمدرسة (محمد الأرناؤوط، الوقف في الدولة العثمانية قراءة معاصرة، مرجع سابق، ص ٤٩).

أصبح الواقف يوقف مبلغاً من المال بحيث يصرف الدخل المتأتي من تشغيل المبلغ لأجل أغراض خيرية بينما يبقى الأصل ضامناً لاستمرارية الوقف. ومن ناحية أخرى، على المستوى العملي، تغلغل الوقف في كل مجال في المجتمع العثماني الجديد، ولم يبق هناك مجال يخص الإنسان، حتى الحيوان، خارج اهتمامات الوقف^(٤١). فقد نما الوقف مع نمو المجتمع الإسلامي، وشاع أمره وكثر عندما توافر المال وشعر الحكام والأثرياء بضرورة البذل من جانبهم للإسهام في حركة الرقي والتطور. حيث كان الوقف هو الوسيلة الرئيسة في بناء وتشيد كل ما أدى إلى تطوير احتياجات الناس في المجتمعات الإسلامية ودعمها، كان يمثل البديل للإنفاق الرسمي للدولة الذي تعتمد عليه حياة الناس في العصر الحديث^(٤٢). كما ساعد السماح بوقف النقود على تنوع كل أوجه العمران التي جرى عليها الوقف، بل وساعد في ازدهارها.

(١,١,٧) شروط صحة الوقف

يشترط الفقهاء شروطاً خاصة في الوقف حتى يكون الوقف صحيحاً، وقد شملت هذه الشروط؛ الموقوف، والواقف، والموقوف عليه، وهي على النحو التالي^(٤٣):

الشروط في الموقوف: يشترط في الموقوف أن يكون مالاً في حوزة الواقف، وأن يكون معلوماً، ومملوكاً للواقف ملكاً تاماً، وأن يكون عقاراً، وأن يكون مفرزاً من غيره من الأموال أو العقارات.

(٤١) محمد الأرناؤوط، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، ط١، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م، ص ص ٤١، ٤٢.

(٤٢) يحيى محمود بن جنيد الساعاتي، الوقف والمجتمع نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي، سلسلة كتاب الرياض، مؤسسة الإمامة الصحفية، العدد ٣٩، مارس ١٩٩٧م، ص ص ١٥، ١٦.

(٤٣) محمد بن أحمد بن الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ص

شروط أهلية الواقف: من الشروط الواجب توافرها في أهلية الواقف؛ أن يكون ممن تصح تصرفاته كامل الأهلية من ناحية العقل والبلوغ والحرية والاختيار، وألا يكون مجوراً عليه لفلس (دين) أو سفه أو غفلة، وألا يكون مريضاً مرض الموت، وذلك فيما زاد عن الثلث.

الشروط في الموقوف عليه: يشترط في الموقوف عليه أن يكون جهة بر، وغير منقطعة، وألا يعود الوقف على الواقف، وأن يكون على جهة يصح ملكها أو التملك لها.

(٨، ١، ١) شروط الواقف

تعد شروط الواقف التي تتضمنها وثيقة وقفه من الأهمية بمكان، فيما يخص كل الأوجه المتعلقة بالوقف. ومن خلال استطلاع وثائق الوقف، يتضح أن الواقف قد حدد في شروطه الأشياء الموقوفة، والجهات التي يوقف عليها، وكيفية صرف ريع الوقف، وغير ذلك من الشروط التفصيلية الخاصة بكل ما يهم في مجال الوقف.

وقد اختلف الفقهاء حول مدى الالتزام من جانب ناظر الوقف بشروط الواقف أو عدم الالتزام ببعض هذه الشروط، فقد أجاز فقهاء المالكية، على سبيل المثال، مخالفة شروط الواقف إن تأكد على سبيل اليقين أن ما اشترطه لا يفي بالغاية المعلومة من الوقف عند الواقف، استناداً إلى قاعدة: مراعاة قصد المحبس لا لفظه^(٤٤). وبشكل عام يمكن للناظر مخالفة شروط الواقف بشرطين هما؛ أن تقوم مصلحة تقتضي مخالفة

(٤٤) عبد الرحيم العلمي، "الاجتهادات الفقهية في نوازل الوقف عند المالكية"، مجلة أوقاف، العدد ١٢، السنة

السابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٧م، ص ٥٣.

هذا الشرط ، وأن يرفع الأمر إلى القاضي كي يصدر الإذن بالموافقة على هذه المخالفة لما له من الولاية العامة^(٤٥).

(١, ١, ٩) النظارة على الوقف

بدأت فكرة النظارة على الوقف واضحة منذ البدايات الأولى له في الإسلام. فقد أوصت وثيقة وقف عمر بن الخطاب بالنظارة وجاء في نص الوثيقة أن ناظر وقفه هي حفصة بنت عمر رضي الله عنه ، زوج النبي ﷺ ، ثم تكون النظارة من بعدها لذوي الرأي من أهلها ، أي من آل عمر ولم يحدد اسماً بعينه. وفي رواية أن نظارة الوقف محصورة في الأكابر من آل عمر ، كما هي رواية الخصاف وغيره ، وقد روى الخصاف أن من تولى الوقف بعد حفصة ، هو عبد الله بن عمر رضي الله عنه^(٤٦).

وعن الشروط الواجب توافرها في ناظر الوقف فيذكر النابلسي أنه كان: "يحتاج الناظر فيه إلى أن يكون عالماً متقناً مفتياً في أنواع العلوم ، مشاركاً في الفضائل والأدب ، شريف الهممة عظيم المقدار ، في نفسه ، وعند سلطانه ، وجهاً من وجوه الدولة ، فإنه يحكم على العلماء ، والفقهاء ، والقراء ، والمحدثين ، والفضلاء ، والخطباء ، والمتصدرين (الذين يتصدرون لرواية الحديث) ، والمدرسين ، وأئمة المساجد ، ... وأن يكون من المشهورين بالدين ، والعلم الكبير ، والنزاهة ، والعفاف ، وحسن السمعة ، وأن يكون أهلاً بما فيه من العلم لأنه يعرف من يصلح للتدريس والتصدر ، والخطابة ،

(٤٥) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١١٠.

(٤٦) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، "دراسة وثائقية لأول وثيقة وقفية في الإسلام: وقفية عمر بن الخطاب

رضي الله عنه"، مجلة أوقاف، العدد ٣، السنة الثانية، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٢م،

والإمامة، وشروط ذلك، بعيداً عن الهوى وقبول رشوة يفضح بها نفسه عند هذه الطائفة" (٤٧).

ومهام ناظر الوقف تتلخص في العمل الجاد على ما يحفظ الوقف، وتفقد أحواله، وأحوال الموقوف عليهم، وتنفيذ شروط الواقف بالإجمال. وقد روى ابن النجار في حديثه عن وظيفة ناظر الوقف: "حفظ وقف وعمارته، وإيجاره، وزرعه، ومخاصمة فيه، وتحصيل ريعه من أجرة أو زرع أو ثمرة، والاجتهاد في تنميته، وصرفه في جهاته: من عمارة وإصلاح، وإعطاء مستحق وغيره" (٤٨).

وقد كان الواقف ينص أحياناً وبالتفصيل على وظيفة الناظر وما يلزمه القيام به، فقد حدد الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن الملك الأتابك زنكي التركي السلجوقي، على سبيل المثال، دور الناظر على أوقاف البيمارستان النوري بحلب في نص الوقفية على النحو التالي: "وعلى الناظر في أمور البيمارستان العائد نفعه على الناس في كل زمان يقول النبي ﷺ: "العلم علماً: علم الأديان وعلم الأبدان" والبيمارستان محل علم الأبدان. والمقلد لهذا يجب اختبار الأطباء، وسؤال المرضى عن علاجهم وتدبير مزاجهم، وتدقيق النظر في مداواة المرضى ولسوف يرضى. وحفظهم في الشتاء من البرد الصالب، وفي الصيف من الحر الغالب، وفي فصل الربيع والخريف بالتدبير اللطيف، وتطهير ظاهر البدن من الدرن، كتطهير باطنه من العفن، فكم من روح أتلّفها سوء العلاج وانحراف المزاج. ويجب على المقلد لهذا أن يتفقد الكبير والصغير، ويسأله عن التدبير، ويجهد في حفظ الأرواح من المهلكات، لا لأحد توليته

(٤٧) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٤٨) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٠٧.

ونظره بالشفاعات. فالتقلد لأموره يلزم الأطباء بما هم بصدد، ويتفقد المرضى كافتقاد الوالد لولده، فمن درج منهم بالوفاة يجهره بما يليق به من دينه واعتقاده، ليجزى عليه يوم معاده. ويشاهد بنفسه ما يعمل من الأشربة واللعوقات والمعاجين والمراهم والأكحال، وليخف من يوم لا بيع فيه ولا خلال، وإن وُجد خلل فيما فوّض إليه أمره فويل في الدنيا والأخرى له^(٤٩). كما شدد السلطان قلاوون على وظيفة الناظر في وثيقة وقف البيمارستان المنصوري، فقال: "ويتحرى الناظر في تحصيل ريع هذا الوقف أحسن الحيل على حسب الإمكان ويطلب ذلك حيث كان في كل جهة ومكان، بحيث لا يفرط ولا يفرط، ولا يخرج في سلوكه عن السنن المتوسط، ولا يهمل حقاً معيناً، ولا يغفل عن أمر يكون صلاحه بيناً"^(٥٠)، كما بينت الوثيقة للناظر أهمية ترتيب الأولويات في إدارة الوقف فجاء فيها "إن نقص ريع الوقف المذكور على استيعاب المصارف المذكورة أعلاه قدم الناظر صرف الأهم فالأهم من ذلك من الأطعمة والأشربة والأدوية والسفوفات والمعاجين ومداداة الرمداء ويقدم الأحوج فالأحوج بحسب ما تقتضيه المصلحة..."^(٥١).

إن مما لاشك فيه أن الإشراف القوي على الأوقاف له أثره الفعال في بقاء المنشآت المدنية واستمرارها في وظيفتها، فقد انهارت، على سبيل المثال، المدرسة الصالحية البهائية بعد وفاة شمس الدين بن الصاحب سنة ٨١٣هـ / ١٤١٠م، الذي كان يلي نظرها والتدريس فيها. ويعلل المقرئ سبب ذلك فيقول: "فوضع بعض

(٤٩) محمد مطيع الحافظ، "البيمارستان النوري بحلب ووقفه"، مجلة أوقاف، العدد ٦٤، السنة الثالثة، الكويت:

الأمانة العامة للأوقاف، يونيو ٢٠٠٤م، ص ١٧٢.

(٥٠) الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب، تحقيق: محمد محمد أمين، تذكرة التنبيه في أيام المنصور

وبنيه، ج ١، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م، ص ٣٦٢.

(٥١) المرجع السابق، ص ٣٦٨.

القضاة يده على ما بقي لها من وقف فأقامت هذه المدرسة مدة أعوام معطلة من ذكر الله وإقام الصلاة لا يأويها أحد فاستولى على عمد الرخام التي كانت بها الناصر فرج ولم تلبث أن هدمت في أواخر سنة ٨١٧هـ / ١٤١٤م بعد أن كانت من أجل مدارس الدنيا وأعظم مدرسة في مصر" (٥٢).

ومما لا شك فيه أن الناظر بمفرده لم يكن له القدرة على القيام بأعباء إدارة الوقف وخاصة في حالة كون الأوقاف ضخمة، كما في أوقاف السلطان حسن على مدرسته بالقاهرة التي جاء عنها "أن متحصل وقفها في كل سنة نيف عن متحصل مملكة ضخمة"، لذا كان هناك مجموعة من الموظفين الإداريين والفنيين الذين يساعدون الناظر في إدارة الوقف (٥٣).

(١٠، ١، ١) استثمار الوقف

الوقف نفسه استثمار؛ لأن الاستثمار يراد به إضافة أرباح إلى رأس المال، لتكون المصاريف من الربح فقط، فيبقى رأس المال محفوظاً بل مضافاً إليه الربح الباقي ليؤدي إلى كفاية الإنسان وغناه، وكذلك الوقف فهو في حقيقته استثمار من حيث إن صاحبه يريد أن يقف ماله في سبيل أن يحصد ناتجه يوم القيامة، ومن حيث الحفاظ على الأصل، ويكون الاستهلاك للناتج والثمرة والربح والريع، فالأعيان الموقوفة إما ينتج منها ثمار كما في وقف الأشجار والبساتين المثمرة، أو تنتج منها منفعة وأجرة كما هو الحال في الأعيان المؤجرة، أو ينتج عنها ربح وريع كما في وقف النقود. وما من شك في أن استثمار أموال الوقف، يحقق الحفاظ عليها، حتى لا تاكلها المصاريف والنفقات، ويساهم في تحقيق أهداف الوقف الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والتنموية. إضافة

(٥٢) محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية بالباقية بمدينة القاهرة، مرجع سابق، ص ١٣٠.

(٥٣) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٣٠٤.

إلى ذلك فإن الوقف الذي يراد له الاستمرار، ومن مقاصده التأييد لا يمكن أن يتحقق ذلك إلا من خلال الاستثمارات الناجحة^(٥٤).

ولقد ضرب الواقفون الأمثلة الرائعة من خلال ما اشتملت عليه وثائق أوقافهم في كيفية تنمية الوقف واستثماره والحفاظ عليه. نسوق ما أورده بهذا الشأن رشيد الدين فضل الله الهمداني في جملة أوقافه في مدينة تبريز، حيث كتب يقول: "لا تؤجروا ولا تساقوا الأعيان الوقفية، لأكثر من ثلاثة أعوام وتجنبوا التعامل مع المتحايين... وعليكم ألا تؤجروا الأوقاف لمدة طويلة وامتنعوا عن تأجيرها لأصحاب النفوذ؛ ذلك لأن تسليم هذه الأعيان الوقفية لهؤلاء يعود عليها بالضرر الكبير..."، ثم يذكر كيفية صرف العوائد إما في العمارة أو في الاستثمار بشراء أعيان وقفية جديدة فيقول: "وإذا كان نصف عائدات الأوقاف الذي يعود أساساً للأعيان الوقفية غير كاف للصرف على أحيائها يجب تخصيص العائد لذلك كله، فإذا زاد عن ذلك يجب شراء ملك ووقفه على الأعيان وعلى الذرية كما هو مذكور"^(٥٥). كما نورد مثلاً آخرًا على ذلك، حينما نصت وثيقة وقف البيمارستان المنصوري بالقاهرة على نفس الغرض "على أن الناظر على هذا الوقف والمتولي عليه يؤجر العقار من هذا الوقف المذكور، وما شاء منه، بنفسه أو بنائبه، مدة ثلاث سنين فما دونها بأجرة المثل فما فوقها، ويأجر الأراضي مدة ثلاث سنين فما دونها بأجرة المثل فما فوقها، ولا يدخل عقدًا على عقد ولا يؤجره لمتشرد ولا لمتعذر ولا لمن تخشى سطوته ولا لمن ينسى الوقف في يده"^(٥٦).

(٥٤) على محيي الدين القره داغي، "تنمية موارد الوقف والحفاظ عليها (دراسة فقهية مقارنة)"، مجلة أوقاف،

العدد ٧، السنة الرابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٤م، ص ٣٨، ٣٩.

(٥٥) حسين اميدلاني، "مجمع الربيع الرشدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسية رائدة في الوقف"، مجلة أوقاف،

العدد ١، السنة الأولى، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠١م، ص ٦٠.

(٥٦) الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ابن حبيب، تحقيق: محمد محمد أمين، تذكرة التنبيه في أيام المنصور

وبنيه، مرجع سابق، ص ٣٦١.

(١,٢) الوقف والعمران

العمران هو ما تشمله البيئة من منشآت ومرافق يشيدها الإنسان، مثل المباني والمرافق العامة (مثل الطرق، والترع، والحدائق، وغيرها).

لم يترك الوقف مجالاً من المجالات الحياتية إلا وكان له فيها أثر كبير، وإن كان يمكن القول بأن العلاقة بين الوقف والعمران كانت في الأغلب علاقة غير مباشرة، بمعنى أنه لم يكن بناء المباني وتشديد المنشآت مقصوداً لذاته من جانب الواقف، حيث كان الوقف يتم على أوجه الخير، والتي تدور أنشطتها الحياتية في مباني ومنشآت، ومن ثم نهضت حركة العمران مع نهضة الوقف.

وقد كان لانتشار الأوقاف وازدهارها في العصر المملوكي، على سبيل المثال، أثراً كبيراً في تنوع ما يوقف، وما يوقف عليه، حتى كاد أن يشمل كل شيء تقريباً. ومن أهم ما تم وقفه في عصر سلاطين المماليك: الأراضي الزراعية، والمباني مثل القصور، والدور، والمدارس، ومكاتب الأيتام، والخوانق، والربط، والوكالات، والفنادق، والقياسر، والخانات، والسبل، وأحواض الدواب، ومعاصر الزيت والقصب، والحمامات، والطواحين، والأفران، ومخازن الغلال، ومصانع الصابون والنسيج، ومعامل لترقيد الفروج، ومعامل النشا والنشادر، ومسمط برسم إسقاط الأغنام، الخ^(٥٧). فقد جاء في نص وثيقة وقف السلطان حسن بالقاهرة "خلاص المسجونين، ووفاء دين المدينين، وفكك أسرى المسلمين، وتجهيز من لم يؤد فرض الحج لقضاء فرضه، وتجهيز الطرحاء من أموات المسلمين، وإطعام الطعام، وتسهيل الماء العذب، والصدقة على الفقراء، والمساكين، والأيتام، والأرامل، والمنقطعين،

(٥٧) محمد محمد أمين، "ازدهار الأوقاف في عصر سلاطين المماليك، دراسة تاريخية وثائقية - نموذج مصر"،

مؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة، شعبان، ١٤٢٢هـ، ص ٢٥٧.

والزّمين، والعميان وأرباب العاهات، وذوي الحاجات من أرباب البيوت، وأبناء السبيل، على ما يراه الناظر، إن شاء، صرف ذلك نقداً أو كسوة، أو طعاماً، أو غير ذلك، ومداواة المرضى^(٥٨).

وقد تنوعت المؤسسات الموقوفة تنوعاً شديداً، ولم لا وقد شمل الوقف كل أوجه الحياة تقريباً؟ الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والسياسية. وقد عد مصطفى السباعي ثلاثين نوعاً من المؤسسات الوقفية؛ نوع تنشئه الدولة وتوقف عليه الأوقاف الواسعة، ونوع ينشئه الأفراد من أمراء وقادة وأغنياء ونساء^(٥٩).

ورغم كون العلاقة بين العمران والوقف علاقة غير مباشرة، إلا أنه يمكن القول، وعلى نفس المنوال بأنه كانت هناك ثمة علاقة مباشرة في بعض الأحيان، فقد كانت هناك وقفيات ترمي إلى النهوض بحركة العمران في المدينة الإسلامية، ومن هذه الوقفيات كانت الوقفية الكبيرة والشهيرة التي أوقفها الخديوي إسماعيل، حيث بلغت مساحة الأرض التي وقفت عشرة آلاف فدان، ونصت الوقفية على أن "يصرف ريع ذلك في بناء، وعمارة، وممرات، ومصالح مهمات، وإقامة الشعائر الإسلامية بالمساجد والمكاتب الكائنة بمصر المحروسة التي لا ريع لها، أو لها ريع لا يفي بالعمارات وإقامة الشعائر، واللوازم لذلك من المساجد". وفي التأريخ لنشأة دار الكتب المصرية التي كانت تعرف بالكتبخانة يذكر أن تلك الوقفية كانت مورداً للإنفاق على الكتبخانة. ويسهل الكشف عن الصلة بين هذه الوقفية الضخمة وبين توجهات

(٥٨) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ١٣٤.

(٥٩) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، ط ٢، بيروت: دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٦٨ م،

ص ص ١٢٥ - ١٢٨.

الخديوي إسماعيل العمرانية التي كانت تستهدف إيجاد وجه حديث لمصر على صعيد العمارة والتعليم^(٦٠).

(١, ٢, ١) الوقف ونشأة وتطور المدن

لعبت الأوقاف دوراً مهماً في حياة المدن، وانتشرت انتشاراً ملحوظاً، وأصبح للوقف دور واضحاً في عمران المدن الإسلامية مع بداية القرن السادس الهجري بشكل خاص، واستمر بعد ذلك حتى كان من المؤثرات التي دفعت إلى تطور عمران المدينة الإسلامية، وأثر تأثيراً واضحاً في تشكيل حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية^(٦١).

فقد كان في الطريق بين الشام ومصر خان يونس، الذي كان غالباً نواة لتكوين مدينة خان يونس بفلسطين^(٦٢). كما تعد مدينة سرايفو - عاصمة البوسنة حالياً - من أفضل النماذج الواضحة على دور الوقف في نشوء المدن الجديدة. ففي حوالي ١٤٥٠م، بدأ عيسى بك في بناء المقر الخاص به (القناق أو السراي) في السهل المحيط بقرية بروداتس، الذي أصبحت له أهمية لكونه أعطى اسمه للمدينة الجديدة سراي بوسنة، سراي أواسي، (سرايفو) كما أصبحت تشتهر حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. أما نواة المدينة الجديدة فيمكن أن يرتبط بإنشائها الجامع الجديد (أول جامع عثماني في البوسنة) الذي أسسه على الضفة اليسرى لنهر ميلاتسكا، ويعتقد أن عيسى

(٦٠) هند مصطفى علي، "الأميرة فاطمة بنت إسماعيل: الوقف كمشروع إصلاحي"، مجلة أوقاف، العدد ١٣، السنة السابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٧م، ص ٩٦.

(٦١) محمد عبد الستار عثمان، "المدينة الإسلامية"، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٢٨، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٨م، ص ٧٩.

(٦٢) صالح لمعي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، بيروت: جامعة بيروت العربية، ١٩٧٥، ص

بك قد بنى الجامع المذكور في سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٧م باسم السلطان محمد الفاتح؛ ولذلك عرف منذ ذلك الوقت باسم "جامع السلطان". وبعد هذا الجامع قام عيسى بك بإنشاء وقفه الذي يعتبر النواة الحقيقية لسراييفو؛ فقد بنى حماماً قرب الجامع المذكور، وبنى جسراً على نهر ميلياتسكا ليربط الضفتين، وبنى خاناً من الحجر مع بزستان يشتمل على محلات كثيرة، وبنى أخيراً الزاوية في قرية بروداتس المجاورة، التي خصصت لنزول "الفقراء والمسلمين من السادات والغزاة وأبناء السبيل" وتقديم الطعام لهم، وأوقف عليها العديد من الطواحين والكثير من الأراضي. ويبدو أن هذه النواة العمرانية (الجامع، والحمام، والسوق، والزاوية) قد نمت بسرعة، حيث أخذت تنشأ محلة جديدة حول الجامع ومحلة ثانية حول السراي ومحلة أخرى حول الزاوية، كما أفادت الوقفية التي أعدها عيسى بك لهذا الوقف ووثقها في سنة ٨٦٦هـ/١٤٦٢م، بوجود قصبة جديدة. كما كان لوجود الجامع السلطاني الذي كانت تقام به صلاة الجمعة والعديد من، بجانب وجود السوق، دوراً كبيراً في الاعتراف بتحول أي تجمع سكني إلى قصبة، كما كانت تنص على ذلك شروط الإدارة العثمانية^(٦٣).

كما تعد مدينة القاهرة من الأمثلة الجيدة والواضحة لبيان أثر الوقف في تطور عمران المدينة الإسلامية. فقد كانت مدينة القاهرة مدينة ملكية في العهد الفاطمي، ومن ثم تقلصت الأوقاف فيها إلى تلك الأوقاف التي وقفها الخلفاء الفاطميين على طلبه العلم والجامع الأزهر بهدف تنشيط الدعوة الشيعية، والاهتمام بالمنشآت الدينية من مساجد ومزارات باعتبارها منشآت موقوفة لله. وبالإضافة إلى هذه المنشآت الخيرية كانت هناك منشآت أخرى تخدم أغراضاً خيرية كالسقايات والآبار وغير ذلك، حيث

(٦٣) محمد الأرناؤوط، دور الوقف في نشوء المدن الجديدة في البوسنة (سراييفو نموذجاً)، مجلة أوقاف،

العدد ٨، السنة الخامسة، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، مايو ٢٠٠٥م، ص ٥٢، ٥٤، ٥٥.

وقفها أصحابها ليستفيد منها عامة الناس، ويمثل ذلك جانباً تطوعياً سعى إلى إكمال المرافق الهامة سعياً وراء الخير والثواب^(٦٤). كما زادت أهمية الوقف وأثره في التخطيط العمراني للمدينة في العصر الأيوبي، والذي كان بداية جديدة لانتشار المذهب السني، وعودته مذهباً رسمياً للبلاد التي كانت تخضع للدولة الفاطمية، وهو هدف سعت الدولة إلى تحقيقه بطرق مختلفة، لتخريج أجيال من الفقهاء والمتصوفة سنيي المذهب، يصبغون الحياة بالصبغة السنية، ويزيلون كل أثر للمذهب الشيعي، وهي منشآت تطلب إنشاؤها واستمرارها في أداء وظيفتها أوقافاً كثيرة تدر ريعاً يصرف منه على أرباب الوظائف بها، وعلى ترميم مبانيها إذا ما تهدمت واحتاجت إلى إعادة تعمير^(٦٥). وتبع المماليك سلفهم من الأيوبيين في السياسة نفسها وإن اختلفت في الدوافع. فقد كان دافع المماليك إضفاء نوع من الشرعية على حكمهم، وإبراز تمسكهم بالدين الإسلامي وتعاليم المذهب السني، وازدهرت الحياة الدينية ازدهاراً كبيراً، وتدعمت مدارس الفقه السني بعد أن تخرجت أجيال عديدة من الفقهاء الذين آثروا الحياة الدينية والعلمية في ذلك العصر، وأصبحت مدينة القاهرة مركز إشعاع علمي يجذب طلاب العلم ومعلميه من أنحاء البلاد الإسلامية، حيث كانوا يلقون الرعاية الكافية. ووقف المماليك أوقافاً كثيرة يصرف من ريعها على المنشآت الدينية التعليمية من مساجد ومدارس وخانقات وربط وزوايا وغيرها، وعلى من بداخلها من أرباب الوظائف. فازداد عمران المدن في الأقاليم التي حكمها المماليك كثرة واضحة بسبب العمران (المباني والمنشآت) المرتبط بفكرة الوقف^(٦٦).

(٦٤) محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٨٠.

(٦٥) المرجع السابق، ص ٨١.

(٦٦) المرجع السابق، ص ص ٨١ - ٨٢.

كما كان لشروط الوقف أثره الواضح في اتجاه امتداد تعمير مناطق مدينة القاهرة، حيث كان للحكم الفقهي الخاص بعدم البناء على الأرض الموقوفة أثره المباشر في عدم بناء الممالك بالقرافة التي أوقفها عمر بن الخطاب رضي الله عنه للدفن فقط، كما تم الانطلاق في مناطق أصبحت مهياة لامتداد عمراني متزايد ومتسارع، فعمرت منطقة بولاق وباب اللوق وامتدت القاهرة شمالاً في اتجاه العباسية "الريدانية"، وعمرت ضواحي كسرياقوس التي امتدت إليها عمارة الممالك وأصبحت من ضواحي القاهرة^(٦٧).

وقد قام عمران القاهرة وكثرت وتنوعت مبانيها بناء على سياسة واضحة تنطوي على تبني الدولة ورجالها، ابتداء من الخليفة فالوزراء والأمراء والقضاة والأثرياء بإنشاء المنشآت السكنية والتجارية والصحية، لقدرتهم على ذلك، واعتبار أن ذلك نوع من الاستثمار العقاري، الذي يكسبهم دخلاً، ويوفر في ذات الوقت المسكن والمتجر والحمام للفئات الأخرى من سكان المدينة، التي لا تقوى على إنشاء هذه المنشآت، لكنها تستفيد منها بدفع إيجار شهري نظير استغلالها، وهو ما ساعد على ازدهار العمران وتخطي أي مشكلات قد تنتج عن عدم توفر هذه النوعية من المباني^(٦٨).

يصف لنا ابن فضل الله العمري - المؤرخ الجغرافي (٨هـ / ١٤م) - القاهرة فيقول: "ولم تزل قاهرة كل وقت تتزايد عمارتها وتتجدد معالمها، خصوصاً بعد خراب الفسطاط ... وانتقال أهلها إليها حتى صارت على ما هي عليه في زماننا من

(٦٧) المرجع السابق، ص ٨٣.

(٦٨) محمد عبد الستار عثمان، العمارة الفاطمية، الكتاب الأول، ط ١، القاهرة: دار القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ص

القصور العالية ، والدور الضخمة والمنازل الراحية ، والأسواق الممتدة والمناظر النزهة ...". وعبر عن الحجم العمراني لمدينة القاهرة الرحالة جريفا أفاجار Greffin Affagart عندما زارها سنة ٩٤١هـ / ١٥٣٤م ، حيث وصفها بقوله : "تقدر مساحة القاهرة بثلاثة أمثال مساحة باريس"^(٦٩).

(١, ٢, ٢) كثرة الأوقاف وكثرة العمران

لعل ما ذكره ابن بطوطة في رحلته عن القاهرة ودمشق وبغداد خير دليل على أن كثرة العمارة ارتبطت بالأوقاف. فقد قال عن القاهرة: "ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة"^(٧٠). بينما قال عن دمشق: "والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها .. وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد"^(٧١). كما قال عن بغداد: "وحمامات بغداد كثيرة، وهي من أبدع الحمامات وأكثرها"^(٧٢).

فقد كثرت الأوقاف حتى كاد يصبح نصف أرض المملكة العثمانية أوقافاً، كما كانت ثلاثة أرباع هذه المملكة وفقاً على الجوامع والمدارس^(٧٣). ويكفي للتدليل أيضاً على كثرة الأوقاف الخاصة بالمساجد والمدارس في دمشق أن الإمام النوري المتوفى عام

(٦٩) رفعت موسى محمد، الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية، ط١، الدار المصرية اللبنانية،

١٩٩٣م، ص ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٧٠) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، ص ٥٥.

(٧١) المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٧٢) المرجع السابق، ص ٢٣٦.

(٧٣) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٥، مرجع سابق، ص ٩٤.

٦٧٦هـ، لم يكن يأكل من فواكه دمشق طيلة حياته لأن أكثر غوطها وبساتينها أوقاف^(٧٤).

كما قال ابن جبير عن دمشق: "وبهذه البلدة أيضاً قرب مئة حمام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها. وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب، لأن المرافق بها كثيرة"^(٧٥). ويقول أيضاً في موضع آخر من رحلته: "ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء، ولا سيما لحفاظ كتاب الله، عز وجل والمنتمين للطلب"^(٧٦).

أما عن مساجد الصلوات الخمس في مصر، فقد ذكر كثرتها القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" بقوله: "وأما مساجد الصلوات الخمس فأكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقصى، بكل خط منها مسجد أو مساجد لكل منها إمام راتب ومصلون"^(٧٧).

ويذكر ابن جبير لما رأى من كثرة من رأى من مدارس بلاد الشرق الإسلامي وما تيسر لحال طلابها فيقول: "فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة. فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها، فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد"^(٧٨). فقد

(٧٤) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٣٨.

(٧٥) ابن جبير، رحلة ابن جبير والمسماة تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، طبعة حديثة، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٤م، ص ٢٦١.

(٧٦) المرجع السابق، ص ٢٥٨.

(٧٧) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج ٣، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، ص ٤١٧.

(٧٨) ابن جبير، رحلة ابن جبير والمسماة تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

كانت مدارس دمشق العامرة التي يؤمها الطلاب تزيد على ٤٠٠ مدرسة، حتى أن الطالب الغريب إذا قدم دمشق يستطيع أن يقيم سنة فيها لا ينال في كل مدرسة إلا ليلة واحدة. وفي كتابه "الدارس في تاريخ المدارس" ذكر النعيمي - وهو من علماء القرن العاشر الهجري - ثبناً بأسماء مدارس دمشق وأوقافها، فقد كان فيها سبع مدارس للقرآن الكريم، وست عشرة للحديث، وثلاث مدارس للقرآن والحديث معاً، وللغة الشافعي ثلاث وستون مدرسة، وللغة الحنفي اثنتان وخمسون مدرسة، وللغة المالكي أربع مدارس، وللغة الحنبلي إحدى عشر مدرسة، هذا بجانب مدارس الطب والرباطات والفنادق والزوايا والجوامع وكلها كانت مدارس يتعلم فيها الناس^(٧٩).

كما ذكر ابن خلدون في مقدمته عن ازدهار العلم بازدهار الوقف في مدينة القاهرة فقال: "إن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم، لما له عليهم من الرق والولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة، يجعلون فيها شركاً لولدهم ينظر عليها أو يصيب منها ... فكثر الأوقاف لذلك، وعظمت الغلات والفوائد، وكثر طلب العلم ومعلمه، بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب، ونفقت فيها أسواق العلم وزخرت بحارها"^(٨٠).

وعن كثرة المستشفيات التي وقفها الواقفون، يقول الدكتور جوزيف جارلند في كتابه قصة الطب: "وقد أسس العرب عدداً من المستشفيات الممتازة، جعلوها مراكز لدراسة الطب ولعلاج المرضى كأحدث المستشفيات الآن، وقد بلغ عدد هذه

(٧٩) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٣٧.

(٨٠) جمعة محمود الزريقي، الوقف الأهلي بين الإلغاء والإبقاء، مرجع سابق، ص ٨٧.

المستشفيات أربعة وثلاثين موزعة بين أنحاء الإمبراطورية، وإن كان أهمها مستشفيات بغداد ودمشق وقرطبة والقاهرة^(٨١).

(١, ٢, ٣) متانة المباني الموقوفة

هناك علاقة بين استمرار المبنى في أداء وظيفته التي أنشئ من أجلها، وبين الإنفاق عليه، حيث إن المباني تحتاج إلى عمارة وصيانة، كما يحتاج العاملين فيها إلى رواتب ومصروفات. وقد وضحت هذه العلاقة بشكل كبير في إطار الوقف والمباني التي كانت تجري عليها الأوقاف، ولعل هذا ما يتفق مع ديمومة الوقف واستمراره تحقيقاً لشروط الأوقاف.

فمما لا شك فيه أن المرافق الخدمية من مساجد ومدارس ومكتبات وبيمارستانات لم تكن لتؤدي دورها لولا توفيق الله للواقفين بإجراء الأوقاف عليها، فقد ذكر المقرئ في خطه أن هناك عدداً من المدارس تم إنشاؤها وتأسيسها ولكنها عجزت عن أن تزاو أعمالها التعليمية لعدم وجود أوقاف ينفق عليها من ريعها وعوائدها. ويبيّن أن المدرسة الناصرية ثبتت على عوادي الزمن لوجود الأوقاف. كما ذكر المقرئ أن جامع سنقر الذي كان به مكتب للأيتام، وماء للشاربين، ودروس للفقهاء، يؤدي دوره على أفضل وجه، ولكن لما حدثت الفتنة في الشام، وتوقفت الأوقاف التي كانت قد أوقفت على هذه الخدمات، تعطلت هذه الأنشطة ولم يبق في الجامع إلا الصلاة. وعلى خلاف ذلك ذكر الإمام السيوطي أن المدرسة الصلاحية التي أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٢هـ، كانت عامرة، وكان ينفق عليها

(٨١) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، "الأوقاف والرعاية الصحية"، مجلة أوقاف، العدد ٦، السنة الثالثة،

الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، يونيو ٢٠٠٤م، ص ١٣٤.

مما كان لها من أوقاف، وبقي المشايخ يتناوبون على التدريس فيها حتى بعد سنة ٨٤٤هـ بكثير^(٨٢).

وقد كان من أهم أهداف الواقف الحفاظ على الأوقاف وعمارتها، وقد ظهر ذلك بصورة جلية مع بداية وقف الماء في الإسلام، فبعد أن اشترى عثمان بن عفان رضي الله عنه بئر رومة احتاجت إلى النزع والتبريح مما تسفيه فيها الرياح من الرمل ولقلة مائها خاصة في أيام الصيف القاطئ الشديد الحر، فعلم رسول الله ﷺ بذلك فقال: "من حفر بئر رومة فله الجنة"، فحفرها عثمان بن عفان أيضاً^(٨٣).

ثم ظهر الاهتمام الواضح من جانب الأوقاف بالصيانة الفنية للموقوفات، وهو ما كان يعرف "بعمارة الأوقاف"، ومن هنا كان معظم الواقفين يشترط في وقفته، وفي بداية نص الوثيقة في الغالب، أن تتم عمارة موقوفاتهم من ريع أوقافهم حتى ولو استنفد ذلك جميع الريع، وكان عدم وفاء ناظر الوقف بهذا الشرط سبباً في عزل الناظر، كما أفتى البعض بأن الواقف إن لم يبدأ شروط صرف الريع بأفضلية الصرف على عمارة الأوقاف يبطل ذلك^(٨٤).

وكان لبعض القضاة عناية خاصة برعاية الأوقاف، ومن ذلك أن القاضي أبا الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمي الأنصاري، كان يتفقد الأحباس بنفسه ثلاثة أيام في كل شهر، فيأمر بمرمتها، وإصلاحها، وكنس ترابها، ومعه طائفة من عماله عليها،

(٨٢) ياسين بن ناصر الخطيب، "أثر الوقف في نشر التعليم والثقافة"، مؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة، شعبان، ١٤٢٢هـ، ص ص ٣١٣-٣١٤.

(٨٣) السيد أحمد ياسين أحمد الخباري، تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، ط ٤، جدة: دار العلم للطباعة والنشر، ١٩٩٣م، ص ١٨٤.

(٨٤) محمد عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م، ص ص ١٥١-١٥٢.

فإن رأى خلاً في شيء منها، ضرب المتولي لها عشر جلدات. كما كان القاضي عبد الرحمن بن العمري يقف على مرمة الأوقاف بنفسه ويجلس مع البنائين أكثر نهاره، وكان يقول: "لولا المرمة ما بقيت الأحباس لأهلها"^(٨٥).

ولا عجب إذاً أن ينص الواقفون والواقفات في وثائق الأوقاف على أهمية عمارة الوقف. ففي وقفية ست الشام أخت صلاح الدين الأيوبي على المدرسة الشامية الجوانبية "يبدأ في الإنفاق بعمارة المدرسة وثمان زيت، ومصابيح، وبسط، وقناديل وشمع وما تدعو الحاجة إليه"^(٨٦). كما جاء في وقف الحاجة إسماعيل على عين زبيدة بمكة المكرمة: "... بحيث تصرف ريع هذه الدار، في عمارة مصالح عين زبيدة المذكورة من عمارة ومؤنة وتطهير مجاريها مما يتراكم بها من التراب والأحجار وغيرها"^(٨٧). كما جاء في نص وثيقة وقف بيمارستان قلاوون الإشارة إلى عمارة الوقف "ويبدأ من ذلك بعمارة ما تجب عمارته في الوقف والبيمارستان المذكور ذلك فيه، ومن إصلاح وترميم أو بناء أو هديم، على وجه لا ضرر فيه ولا ضرار ولا إجحاف ناجد في عمل ولا إضرار"^(٨٨).

(٨٥) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨هـ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ١١ - ١٣ - ١٥.

(٨٦) سعيد إسماعيل علي، معاهد التعليم الإسلامي، دار القاهرة: الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٨م، ص ١٤٥.
(٨٧) عادل بن محمد نور غباشي، "أوقاف عين زبيدة في عهد الملك عبد العزيز"، مؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة، شعبان، ١٤٢٢هـ، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٨٨) الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ابن حبيب، تحقيق: محمد محمد أمين، تذكرة التنبيه في أيام المنصور وبنيه، مرجع سابق، ص ٣٦١ - ٣٦٢.

لذلك كان حرص الأوقاف الكبرى على وجود جهاز للصيانة الفنية للوقف يتولى أعمال الصيانة والترميم المختلفة، بل خصصت في بعض الأوقاف أجور زيادة لعمال الترميم إذا ما زادت مدة عملهم في المرمات عن ثلاثة أيام^(٨٩).

وكان من الوظائف المتعلقة بعمارة الأوقاف وظيفة "شاهد العمارة" واختص بالإشراف على الأعمال والتأكد من صلاحية المباني والمنشآت. وعلى سبيل المثال فقد حددت وثيقة وقف السلطان المؤيد شيخ (تولى الحكم سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م) بالقاهرة شروط شاغل هذه الوظيفة: "يرتب رجلين جيدين عدلين أمينين يقرران شاهدي العمارة يضبطا رجال العمارة في الأماكن المذكورة وما ينصرف فيها ويصرف لكل واحد منهما في كل شهر من الشهور المذكورة ما مبلغه من الفضة والأنصاف المذكورة ثلاثون نصفاً نصف ذلك خمسة عشر نصفاً"^(٩٠).

من هنا تبرز أهمية الوقف في المحافظة على المنشآت الموقوفة، مما أدى إلى بقاء الكثير من المنشآت الدينية المملوكية والعثمانية الموقوفة على وجه الخصوص. فمن ريع المنشآت الموقوفة عليها كان يعاد بناء ما تهدم وترميمه، وفق الوصف الموثق الدقيق الذي يرد في حجج الوقف الخاصة بهذه المنشآت^(٩١).

كما كان للقضاء دور في تقرير حاجة الوقف إلى العمارة أو الصيانة والترميم، فما كان لناظر الوقف القيام بالمهمة من دون إذن من القاضي الذي يعاين الوقف ويقرر مدى الحاجة إلى الصيانة والترميم، بجانب تحديد المبالغ المقدرة للإنفاق عليها، وبالطبع فقد كان القاضي يستعين في ذلك بأهل الخبرة من المهندسين والخبراء والفنيين. فكان القاضي يرسل من طرفه من يعاين العين الموقوفة، ويقدم إليه تقريراً عن حالتها

(٨٩) محمد عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ١٥٢

(٩٠) فهمي عبد العليم، العمارة الإسلامية في عصر المماليك الجراكسة "عصر السلطان المؤيد شيخ"، القاهرة:

الجلس الأعلى للآثار، ٢٠٠٣، ص ٢٤.

(٩١) محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٨٠ - ٨١.

المعمارية. وهل تحتاج إلى عمارة ضرورية، وفي العادة كانت هذه المهمة توكل إلى "كشاف الأوقاف"، وهو أحد القضاة الذي يأتمر بأمر قاضي القضاة ويرفع كشاف الأوقاف تقريراً شافياً إلى القاضي^(٩٢).

ومن منطلق أهمية عمارة الوقف، فقد أجاز الفقهاء بيع بعض الوقف أو تأجيرها للصرف على عمارة الوقف، قال في المغني: "إن الوقف إذا خرب، وتعطلت منافعه (...)، ولم تمكن عمارته، ولا عمارة بعضه، إلا يبيع بعضه، جاز بيع بعضه، لتعمر به بقيته". كما أجاز الفقهاء تأجير الوقف للصرف على عمارته سواء كانت مدة الإجارة قصيرة أو متوسطة أو طويلة نسبياً، وذلك بالقدر الكافي للحصول على المال اللازم للصيانة والعمارة "إذا احتيج إلى عمارته من أجرته، يؤجره الحاكم مدة طويلة بقدر ما يعمر به"^(٩٣).

هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد كان لوثائق الوقف دورها في المحافظة على المباني الموقوفة، فوثيقة الوقف بما تتضمنه من وصف وثنائي دقيق للمبنى تحدد شكله ومحتوياته، وهي تكون مسجلة، حتى يبقى على حاله، ويعمل المباشرون للوقف على المحافظة عليه، وإعادة ما يتهدم منه في إطار هذا الوصف الموثق، كما أنه كان في هذا الوصف حماية للمنشأة واستمرارها في أداء وظيفتها التي أنشئت من أجلها بصورة طبيعية^(٩٤)، بجانب تسهيل عمارة الوقف، ولا عجب أن يكون طول وثيقة وقف مجموعة قلاوون بالقاهرة نحو ٢٠ متراً من الرق^(٩٥).

(٩٢) محمد عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ١٥٣-١٧٨.

(٩٣) رفيق يونس المصري، الأوقاف فقهاً واقتصاداً، ط ١، دمشق: دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م، ص ٩٣.

(٩٤) محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، مرجع سابق، ص ١٢٦.

(٩٥) شافعي، فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية، الجزء الأول عصر الولاة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠م، ص ٣١٠.

(١, ٢, ٤) الأوقاف والنواحي الجمالية

كانت الوقفيات إما مخطوطة أو مكتوبة ، كما نقش نص الوقف أحياناً على جدران وواجهات المنشآت الموقوفة ، كما فعل برسباي بمدرسة الأشرفية في الإيوان القبلي ، وبواجهة منشآته بالصحراء^(٩٦).

ولما كان الأصل المعنوي للوقف هو أنه عمل من أعمال التقوى ، وقربة إلى الله تعالى طمعاً في نيل ثوابه ودخول جنته ، وبما أنه جل شأنه جميل يحب الجمال ، وطيب لا يقبل إلا طيباً ، فقد اجتهد الواقفون على مر الزمن في أن تكون قرباتهم الوقفية المتمثلة في المنشآت الأثرية في غاية الإتقان وآية من آيات الجمال الفني والمعماري الأثري ، وبخاصة أنها حملت أسماءهم - في كثير من الحالات - وخلدت ذكراهم ، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: الجامع الأزهر ، وقبة السلطان الغوري ، وسبيل محمد علي بشارع المعز لدين الله ، وشقيقة النعمان بالخيامية (وهي كلها من أوقاف وآثار مدينة القاهرة الآن). والحاصل من ذلك أن الوقف كان إحدى آليات تكوين الثروة الفنية والأثرية ومصدراً من مصادر تراكمها عبر العصور في مختلف البقاع الإسلامية.

وستحتوي الفصول القادمة على بعض الصور التي يمكن من خلالها فهم الدور الذي قام به الوقف في تكوين هذه الثروة الفنية ، (الشكل رقم ٢,٣ و ٢,٤ و ٢,٥ و ٢,٦ و ٣,١ و ٣,٢ و ٣,٣ وغيرها).

(٩٦) عثمان ، محمد عبد الستار ، نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية. بمدينة القاهرة ، مرجع سابق ،

(١, ٢, ٥) الوقف والنواحي الاجتماعية

تتمثل أهم قيم الوقف في ارتباطه بالجوانب الاجتماعية، فقد حقق الوقف نوعاً من السلام الاجتماعي بين فقراء المجتمعات المسلمة وأغنيائها.

كما يمكن القول بأن الشعور الديني الذي ساد مصر في العصر المملوكي وأكبه ازدهار الأوقاف وانتشارها^(٩٧). فالوقف على المحرومين من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل يبعث في قلوبهم المودة ويبعد عنها الغل والحسد، ويدفع سواعدهم إلى المشاركة في بناء المجتمع المسلم، الذي لم يضمن عليهم بالرعاية بلا طلب أو استجداء، وإنما يقدم لهم عوائد الأموال الموقوفة عليهم لتحقيق الحياة الكريمة لهم^(٩٨).

ومن أهم الأدوار الاجتماعية للوقف المرتبطة بالنواحي الروحية أيضاً، قيام كثير من الواقفين بتخصيص بعض الأعيان وحبسها للإنفاق من عوائدها لإعانة الفقراء والمساكين على تأدية العبادات المفروضة كالصيام والحج^(٩٩).

(٩٧) المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٩٨) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٩٣.

(٩٩) المرجع السابق، ص ١٩٤.

الوقف والمنشآت الدينية

تميزت المدينة الإسلامية بعمارة المساجد والجوامع المختلفة الحجم والتصميم؛ لما للمساجد من دور أساسي في حياة المسلم بكافة نواحيها ومكوناتها ومطالبها، ولا عجب إذاً أن يكون أول شيء فعله رسول الله ﷺ عندما وصل مهاجراً إلى المدينة المنورة هو بناء مسجد، مؤكداً بذلك على أهمية المسجد بالنسبة للفرد المسلم ول الأمة الإسلامية، ومبرهنًا على اعتبار المسجد وما يدور فيه هو المنهج للحياة الإسلامية.

هذا من ناحية أهمية المسجد في حياة المسلم، أما من ناحية دوره في عمران المدينة الإسلامية، فقد كان المسجد هو بؤرة المدينة وفي مركزها بالنسبة للمدن الإسلامية التي خططت في العصر الإسلامي^(١)، كما انتشرت مباني المساجد في كافة أرجاء ومناطق المدينة الإسلامية، بل كانت المنارات الخاصة بالمساجد هي علامات مميزة يهتدي بها السائر في حركته داخل المدينة وإلى المسجد، بشكل يتشابه به مع كون المسجد هو مركز الهداية ومقصد العبادة بالنسبة للمسلم.

(١) مازال هذا الفكر التخطيطي سائداً في تخطيط بعض المدن الإسلامية المعاصرة؛ إذ يحتوي قلب المدينة على المسجد الجامع، كما يحتوي كل حي سكني في مركزه على مسجد جامع أيضاً، بجانب المساجد الأخرى التي تنتشر في الأحياء السكنية وتخدم المناطق السكنية المجاورة، وتوزع على مسافات سير في حدود المقياس الإنساني.

وبجانب المساجد والجوامع، عرفت المدينة الإسلامية الكثير من المنشآت الدينية الأخرى؛ مثل: المدارس، والخوانق، والربط، والزوايا، وهذه المباني وإن كان لكل منها وظيفته المحددة، إلا أنه أقيم في معظمها منبر كما أقيمت فيها الصلوات، بجانب أن منشئها أو واقفيها قد رتبوا فيها من الموظفين من يقوم بأمر الشعائر الدينية، ويبدو أن ذلك الوضع جعل المؤرخين يدخلون في حسابهم عند الكلام عن المساجد هذه الأنواع الأخرى من المنشآت الدينية^(٢).

ولم يقف الواقفون عند وقف الأوقاف على المنشآت الدينية كمباني عامرة فقط، بل امتد الأمر إلى ترتيب ما يحتاجه كل منها من أدوات وبشكل خاص الوظائف، فكان هناك وظائف مرتبة للمسجد أو الجامع أو الخانقاة أو الزاوية مثل: الإمام، والخطيب، والمؤذنين، والعمال، وغيرهم، بما يضمن استمرار المنشأة الدينية الموقوفة في أداء وظيفتها على الوجه الأكمل.

كما اهتم الواقفون بترتيب الفراغات المعمارية في المنشأة الدينية الموقوفة بما يكفل لها القيام بدورها، فبجانب الفراغات الرئيسة المتمثلة في فراغ المسجد أو المدرسة أو الخانقاة أو الزاوية المخصص للصلاة (بيت الصلاة)، وما يحتاجه كل فراغ من هيئة معمارية ومكونات تشكيلية، فقد راعى بعض الواقفين مثلاً ترتيب سكن للمؤذن، فتذكر أحد الوثائق "وعلى مينة الإيوان المذكور بيت برسم الخطيب". كما كان يوجد ما يسمى "خلوة الخطبة" وهي عبارة عن حجرة معدة لوضع الملابس الخاصة بالخطيب. كما رتب الواقفون ما تحتاجه المنشآت الدينية من حاجات أخرى كالشمع الذي كان يستخدم في الإضاءة، فنصت بعض وثائق الوقف على أن "يصرف الناظر في ثمن أربع

(٢) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ١٨٢.

موكبات من الشمع الأبيض المسبول على القطن المفتول، زنة كل موكبة عشرة أرطال بالمصري، فمن ذلك موكبتان توضعان في محراب القبلة المباركة، وموكبتان توضعان في محراب الإيوان الكبير القبلي من المسجد الجامع، يوقد ذلك وقت صلاتي العشاء والصبح وصلاة التراويح في شهر رمضان، وكلما فرغت الموكبتان المذكورتان استبدل الناظر عوضهما، من ريع الأوقاف المذكور بعد بيع الأعقاب الفاضلة منها^(٣).

(١، ٢) المساجد

نال الوقف على إنشاء المساجد والإنفاق عليها، جل اهتمام المسلمين وعنايتهم الخاصة منذ عهد النبوة، حيث كان أول وقف في الإسلام هو مسجد قباء الذي أسسه النبي ﷺ حين قدومه إلى المدينة المنورة، ثم المسجد النبوي الذي بناه الرسول ﷺ في السنة الأولى من الهجرة، ثم انتشر بناء المساجد والوقف عليها في عهد الخلفاء الراشدين، وفي عهد بني أمية وبني العباس وفي عهد الفاطميين أيضاً والدولة العثمانية. فلم تكن المساجد في كل البلاد الإسلامية إلا مساجد وقفية^(٤).

وقد بلغت الأوقاف على المساجد مبلغاً عظيماً، ويرجع ذلك لفضل المسجد في الإسلام والرغبة في نيل الثواب والصدقة الجارية. ومما يجدر قوله في مجال ارتباط الوقف بعمارة المساجد اعتبار التقائهما بالآخر في مجال الصدقة الجارية؛ فالمسجد هو صدقة جارية لمنشئته ولكل المساهمين فيه، وكذا الوقف فهو بالأساس صدقة موصولة ومستمرة للأوقاف.

(٣) المرجع السابق، ص ١٨٧، ١٨٨، ١٩٧.

(٤) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٧٢.

وكان المسجد محورياً رئيساً لسياسة الوقف، سواء من حيث إنشاؤه، أو الصرف على مصالحه ومهماته وعماراته وممراته، أو من حيث ترتيب من يقومون بإمامة الناس في الصلاة، والخطابة والأذان، والاهتمام بنظافة المسجد، وتوفير المياه اللازمة له، وكذلك الإضاءة، أو من حيث إلحاق منشآت أخرى بالمسجد، كدور المناسبات أو المؤسسات التي تؤدي بعض الخدمات، وخاصة في مجال التعليم والصحة والرعاية الاجتماعية^(٥).

يقول بنعبد الله عن علاقة الوقف بالمساجد: "وتعتبر مؤسسة الوقف أهم مورد مالي رُصد لحياة المساجد ليستمر بكل ما يتعلق بالشئون الإسلامية ودور تحفيظ القرآن الكريم وأن يؤدي الوعاظ والخطباء دورهم في تنمية معاني الخير والحق وبيان روعة الإسلام ومعالجته لمشكلات الحياة وقضايا الناس .. فهذه المؤسسة كانت - وما تزال - أهم مورد لشئون الدين والتعليم الإسلامي على الإطلاق، وأكثرها دخلاً وإدراكاً وإليها يرجع الفضل في بقاءه واستمراره أحقاباً وقروناً وفي انتظام الحياة العلمية والدراسية في جامعات الإسلام وكتلياته"^(٦).

وحتى يقوم المسجد الجامع بأداء وظيفته التي أنشئ من أجلها، فقد كان الواقف يعين له من يقوم بأداء شعائر الصلاة فيه من إمام يؤم المصلين، وخطيب يقوم بالخطابة وإمامة المصلين في الصلوات الجامعة ومؤذنين وقراء للقرآن، والذين كانت تختلف أعدادهم باختلاف قدرات الواقف^(٧).

(٥) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٧١، ١٧٢.

(٦) عبد الرحمن الضحيان، "الأوقاف ودورها في تشييد بنية الحضارة الإسلامية"، ندوة المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية، ص ٤٨٩.

(٧) محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

ومما يدل على اهتمام الواقفين بالوقف على المساجد، وكثرة الوقف في هذا المجال الخيري، ما "ورد في وثيقة الجامع الأعظم بالجزائر خلال العصر العثماني والتي جاء فيها أن عدد الواقفين على هذا الجامع حوالي ٤٢٠ واقفاً منهم ١١٦ امرأة، وأن عدد الأملاك الموقوفة على هذا الجامع بلغت ٢٧٣ وقفاً: منها ١٢٥ منزلاً، و ٣٩ حانوتاً، و ٣ أفران، و ١٩ بستاناً، و ١٠٧ إيراد. ومنها ما كان يصرف على الوظائف الخاصة بالجامع، ومنها ١٩ أستاذاً و ١٨ مؤذنًا و ٨ حزاين و ١٣ موظفاً كانوا يشرفون على نشر وتنشيط الوعي الديني"^(٨).

ومما يدل أيضاً على كثرة عمران المساجد بفعل الوقف؛ فإنه كان في سيرلانكا ما يقرب من ٤١ مسجداً موقوفاً، وفقاً لإحصائيات ١٩٥٦ م^(٩). أما عن مساجد الصلوات الخمس والتي أنشئت من مال الأوقاف في مصر، فقد قال عنها القلقشندي أنها "أكثر من أن تحصى، وأعز من أن تستقصى"^(١٠). ومما يدل على كثرة الأوقاف على الجوامع أيضاً، أن الجوامع التي أسست للعبادة وتلقي علوم القرآن والحديث واللغة في ربوع المغرب بأموال الوقف، تعد بعشرات الآلاف^(١١).

ومما يجدر قوله عن حرص الواقفين على الوقف على عمارة المساجد، أنه في مصر وحين توقف الوقف الأهلي بموجب القانون رقم ٤٨ لسنة ١٩٤٦ م، توقف

(٨) عبد الله بن سليمان الباحث، "الوقف والتنمية الاقتصادية"، مؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة، شعبان، ١٤٢٢ هـ، ص ١٥٣.

(٩) Marsoof, S., *Awqaf Experience in Sri Lanka*, Awqaf, No. 6, Year 3, Kuwait Awqaf Public Foundation, Kuwait, June 2004, p.9

(١٠) محمد محمد أمين، *الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م دراسة تاريخية وثائقية*، مرجع سابق، ص ١٨١ - ١٨٢.

(١١) محمد الحجوي، "الجوامع والمدارس والزوايا والخزانات التي ازدهرت بمال الوقف في المغرب"، مجلة *أوقاف*، العدد ٧، السنة الرابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٤ م، ص ٩٦.

الوقف الخيري تباعاً وأحجم الناس عن الوقف الخيري، ولم يبق من الوقف الخيري إلا وقف المساجد، وما يوقف عليها^(١٢).

(١, ١, ٢) الحرمين الشريفين

لم تقتصر الأوقاف على الحرمين على جهة معينة، حيث كانت هناك أوقاف في المملكة العربية السعودية، ومصر، وفي اليمن، وفي مدينة صيدا، وفي تونس، وفي الجزائر، والمغرب^(١٣).

وأول وقف عربي من الأراضي والبساتين على الحرمين كان وقف أبي بكر المارداني، فقد حبس أراض له على الحرمين الشريفين وبعض جهات البر^(١٤). كما قام السلاطين المماليك بواجبهم تجاه عمارة الحرمين الشريفين، وخاصة السلطان قايتباي الذي حج عام ٨٨٤هـ وزار المدينة المنورة، فوقف بنفسه على أحوال الحرمين الشريفين من حيث عمارتهما، ومن حيث أحوال السكان هناك، والخدمات المقدمة للحجاج والزوار، فأقام داراً لإطعام الفقراء مجاناً كل يوم، وأنشأ أسبلة المياه، وعندما رجع إلى مصر أوقف الكثير من الدور والمزارع وخصص ريعها للإنفاق منه على خدمة الحرمين الشريفين والفقراء فيهما ولعمارتهم، تقرباً إلى الله عز وجل بالأعمال الصالحة^(١٥).

أوقف صلاح الدين الأيوبي، عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م، ثلث ناحية سنديس من القليوبية، وبلدة نقادة بقوص، على أربعة وعشرين خادماً لخدمة المسجد النبوي

(١٢) الإمام أبو زهرة، محاضرات في الوقف، مرجع سابق، ص ٣٨.

(١٣) محمد بن أحمد العكش، "تجربة الأوقاف في المملكة العربية السعودية"، مجلة أوقاف، العدد ٤، السنة الثالثة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٣م، ص ١٠٩.

(١٤) الإمام أبو زهرة، محاضرات في الوقف، مرجع سابق، ص ١٣.

(١٥) عبد اللطيف بن عبد الله دهيش، عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي في العهد السعودي، دراسة

تاريخية حضارية، الرياض: دار الملك عبد العزيز، ١٩٩٩م، ص ٢٨٦.

الشريف، وكان ذلك لما رأى أن بني الحسن الذين تغلبوا على الحجاز يجهرون عند الآذان بشعار أهل الشيعة، فعمل على استمالتهم وأغدق عليهم الأموال والهدايا، حتى سمحوا له بأن يجعل على المدينة المنورة جماعة من قبله، فقرر بها الخدام، وجعل عليهم شيخاً من الخدام وهو بدر الدين الأسدي^(١٦).

وفي العصرين المملوكي والعثماني تضاعفت الأوقاف على الحرمين الشريفين، وتسابق السلاطين والأمراء والوجهاء في هذا الميدان. وكان من أعظم هذه الأوقاف في العصر المملوكي، وقف السلطان الأشرف شعبان بن حسين (المتوفى سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م) على الحرمين الشريفين، فقد أوقف عشرة قرى من قرى سوريا والأردن وفلسطين، وقد حددت الوثيقة كيفية صرف عوائد هذه القرى على مكة والمدينة وطريق الحج. كما كان ممن أوقفوا على الحرمين من السلاطين؛ السلطان صلاح الدين الأيوبي (المتوفى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م)، والسلطان محمد بن قلاوون (المتوفى سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م)، والسلطان الظاهر برقوق (المتوفى سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م)، والسلطان الأشرف برسباي (المتوفى سنة ٩٤١هـ/١٤٣٧م)، والسلطان قايتباي (المتوفى سنة ٩٠١هـ/١٤٥٩م)^(١٧). فقد اشترى السلطان الملك الصالح بن الناصر قلاوون من بيت المال قرية بيسوس ووقفها على كسوة الكعبة في كل سنة، وعلى كسوة الحجرة النبوية والمنبر النبوي مرة كل خمس سنين^(١٨).

(١٦) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٦٢-٦٣-٦٦

(١٧) محمد بن أحمد العكش، تجربة الأوقاف في المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، ص ١٠٨.

(١٨) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ١٠٥.

كما تنوعت الأوقاف على الحرمين في العهد العثماني ومنها ؛ وقف الدشيشة الكبرى (وهي حساء يصنع من بر مدقوق لإطعام أهالي الحرمين) ، ويعد هذا الوقف أكبر وأضخم ما وقف على الحرمين ، حيث ضم الوقف ما يقرب من خمسين قرية. وهناك كانت أوقاف كسوة الكعبة أيضاً^(١٩) ، حيث أوقف السلطان سليمان خان على الكسوة الشريفة ، كما جاء في نص وثيقة الوقف التي أوردت أهم الأوقاف "ومنها جميع القرى الثلاث المسماة: بيسوس ، وأبو الغيث ، وحوض بقمص الواقعة بالولاية المصرية التي كان حصل منها في السنة الواحدة مبلغ تسعة وثمانين ألف درهم. ومنها جميع القرى السبع الواقعة في الولاية الشرقية بالديار المصرية ، أولها قرية سلكه كان حصل منها في تلك السنة مبلغ ثلاثين ألف درهم وأربعمائة درهم وستة وتسعين درهماً. وثانيها قرية سرو بجنتمه وحاصلها فيها مبلغ واحد وسبعين ألف درهم وثمانية وعشرين درهماً. وثالثها قرية فريش الحجر حاصلها فيها مبلغ إحدى وخمسين ألف درهم وثلثمائة درهم وأربعة دراهم. ورابعها قرية منايل وكرم ريحان ، وحاصلها فيها مبلغ سبعة وثلاثين ألف درهم وثمانية وأربعين درهماً. وخامسها قرية بجام حاصلها فيها أربعة عشر ألف درهم وتسعمائة درهم وأربعة وثلاثين درهماً. سادسها قرية منية النصرى ، وحاصلها فيها مبلغ ستين ألف درهم وثمانية وخمسين درهماً. وسابعها قرية بطالية وحاصلها فيها مبلغ عشرة آلاف درهم وأربعمائة درهم وأربعة وثمانين درهماً يكون جميع النقود مبلغ ثلثمائة ألف درهم وخمسة وستين ألفاً ومائة واثنين وخمسين درهماً فضياً"^(٢٠).

(١٩) محمد بن أحمد العكش، تجربة الأوقاف في المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٢٠) عبد الكريم بن محب الدين القطي، إعلام العلماء بالأعلام ببناء المسجد الحرام، ط ١، الرياض: دار

الرفاعي، ١٤٠٣هـ، ص ص ١٧١-١٧٣.

لقد كان للأوقاف على الحرمين الشريفين أهدافاً عدة، فهي لم تقتصر على بنية المسجدين كما هو الحال في بقية المساجد، ولكن ارتبط بما يحتاجه أداء المناسك من تيسير طرق القوافل وإمدادها بالخدمات اللازمة، بجانب كل ما يضمن سلامة القوافل. هذا بجانب الدور الروحي الذي كانت تلعبه الأوقاف على الحرمين، فقد عكست هذه الأوقاف عملية نقل الروابط الوجدانية بين المسلمين من المستوى العاطفي إلى المستوى العملي، ومن ثمّ مثلت الترجمة العملية لوحدة الأمة وتماسكها. وعن ذلك يكتب ناصر السعيدوني أن أوقاف الحرمين في الجزائر العثمانية، على سبيل المثال، كانت عبارة عن رباط قانوني تؤكد من خلاله الجزائر العثمانية انتماءها للأمة الإسلامية، وهي كذلك رمز للأخوة الإسلامية، حيث يضيف الكاتب أن "حصّة الحرمين من ريع هذه الأوقاف كانت تمثل بالنسبة لأفراد الشعب [الجزائري] مهمة كريمة وواجب نبيل يعكس العلاقات الروحية، والثقافية، والاقتصادية بين الجزائر العثمانية من ناحية ومكة والمدينة من ناحية ثانية"^(٢١).

(٢, ١, ٢) المسجد الأقصى

رغم أن تاريخ عمارة المسجد الأقصى، (الشكل رقم ٢, ١) قديم وسابق لظهور الإسلام، إلا أنه يمكن القول بأن اهتمام المسلمين بالمسجد الأقصى قد ظهر مع بداية حادثة الإسراء والمعراج، وما ورد فيها من الآيات والأحاديث النبوية، بجانب اتخاذ القدس أولى القبلتين قبل تحول المسلمين عنها إلى بيت الله الحرام. كما تصاعد هذا الاهتمام حين فتح المسلمون القدس العربية وخلصوها من أيدي الروم البيزنطيين، وحضر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنفسه ليشهد الفتح، ويشاهد الصخرة الشريفة، صخرة المعراج، ويعتني بها، ويقيم مسجداً إلى جوارها ما تزال ذكرها باقية،

(٢١) طارق عبد الله، عوامة الصدقة الجارية: نحو أجنحة كونية للقطاع الوقفي، مرجع سابق، ص ٣٤.

وآثار موقعه معروفة. وقد بلغ هذا الاهتمام ذروته، حين شيد الخليفة الأموي، عبد الملك بن مروان صرح المسجد الأقصى وقبة الصخرة^(٢٢).



الشكل رقم (٢, ١). المسجد الأقصى الحالي بساحة الأقصى^(٢٣).

فبعد أن أتم عبد الملك بن مروان بناء قبة الصخرة سنة ٧٢هـ، شرع في بناء المسجد الأقصى المعروف اليوم، سنة ٩٧هـ (٧١٥-٧١٦م)، ولكنه لم يتم إلا في عهد ابنه الوليد، حتى قيل هو الذي بناه^(٢٤)، وقد مثل هذين العاملين العملاقين انطلاقة الفن المعماري الإسلامي بشكل لم يكن معروفاً من ذي قبل. وقد كثرت الأوقاف على المسجد الأقصى من الحكام والأمراء والأغنياء. ومن الأوقاف القديمة في المسجد الأقصى، الوقف الذي أوقفه الملك الأفضل نور الدين، ابن صلاح الدين، وكان ملكاً في دمشق ٥٨٤-

(٢٢) عبد القادر الريحاني، قمم عالية (في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني)، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٠م، ص ٨٩-٩٠.

(٢٣) عن الموقع التالي: <http://ar.wikipedia.org/wiki/>

(٢٤) محمد عثمان شبير، بيت المقدس وما حوله، خصائصه العامة وأحكامه الفقهية، ط ١، الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٧م، ص ٩٢.

٥٩٢هـ، حيث جعل جميع المنطقة الواقعة خارج الجدران الغربية للمسجد الأقصى في القدس والمعروفة بحي المغاربة، وفقاً لمنفعة جميع المغاربة ذكوراً وإناثاً، وبجانب أن هذا الوقف كان له دوراً في البر والإحسان، فقد كان يؤدي دوراً تربوياً؛ إذ أنشأ فيه الملك الأفضل مدرسة للدراسات الدينية العليا، سميت الأفضلية نسبة إليه^(٢٥). كما كان للمغاربة أوقافاً كثيرة حول المسجد الأقصى، أوقفوها على طلاب العلم والمقيمين في المناطق المحيطة به.

(٢، ١، ٣) جامع عمرو بن العاص

يعتقد البعض أن جامع عمر بن العاص بالفسطاط في القاهرة، (الشكل رقم ٢، ٢) هو أول وقف إسلامي في مصر الإسلامية، حيث كان هذا الجامع هو أول جامع للمسلمين بمصر، وقد تصدق به قيسبة بن كلثوم التحبيبي، فيذكر ابن دقماق عن الليث بن سعد رحمته الله أن مسجد عمرو بن العاص حازه "قيسبة بن كلثوم، ويكنى عبد الرحمن أحد بني سوم، ونزله في حصارهم الحصن، فلما رجعوا من الإسكندرية سأل عمرو قيسبة في منزله هذا يجعله مسجداً، فقال قيسبة "لقد علمتم يا معاشر المسلمين أنني حزت هذا المنزل وملكته، وأني أتصدق به على المسلمين"، وكان ذلك عام ٢١هـ / ٧٤١م^(٢٦).

(٢٥) عبد اللطيف الطيباوي، الأوقاف الإسلامية بجوار المسجد الأقصى بالقدس، أصلها وتاريخها واغتصاب إسرائيل لها، ترجمة: عزت جرادات، الأردن: من منشورات وزارة الأوقاف والشئون والمقدسات الإسلامية، ١٩٨١م، ص ص ١٣ - ١٤.

(٢٦) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ص ٣٣، ٣٤.



الشكل رقم (٢، ٢). منظور داخلي في مسجد عمرو بن العاص بالقاهرة^(٢٧).

وبجانب وظيفة المسجد الدينية كمكان للعبادة، كان الجامع عبارة عن مدرسة لتلقي العلوم. فقد جاء عن محمد بن عبد الرحمن الصائغ الحنفي أنه أدرك جامع عمرو بن العاص قبل عصر الوباء الذي كان عام ٧٤٩هـ، فشاهد بضعا وأربعين حلقة لأفراد العلم لا تكاد تبرحها، وكلها كان يصرف عليها من أوقاف السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف^(٢٨). كما وصل عدد تلك الحلقات، التي كانت تسمى بالزوايا، إلى نحو ١١٠ حلقات لعلوم المذهب السني أيام الخلافة الفاطمية نفسها، وقد ذكر ناصر خسرو عن ذلك "يقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون. هو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة. ولا يقل من فيه في أي وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها"^(٢٩).

(٢٧) Michell, G., *Architecture of the Islamic World, its History and Social Meaning*, London: Thames and Hudson Ltd, 1996, p. 127

(٢٨) فؤاد عبد الله العمر، *إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية*، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، ٢٠٠٠م، ص ٢٨.

(٢٩) فريد شافعي، *العمارة العربية في مصر الإسلامية*، المجلد الأول، عصر الولاة، مرجع سابق، ص ٤٦٨-٣٨٣.

(٢, ١, ٤) الجامع الأموي

يقع الجامع الأموي في قلب مدينة دمشق القديمة، (الشكل رقم ٢, ٣). بناه الوليد بن عبد الملك، وبدأ في بنائه في ذي الحجة من عام ٨٦هـ/ ٥٠٧م، وقد تجلت فكرة الوليد في بناء الجامع من خلال قوله "إني أريد أن أبني مسجداً لم يبن من مضى قبلي ولن يبني من يأتي بعدي مثله" (٣٠).

أما عن عمارة الجامع، فهو يشغل أرضاً مستطيلة الشكل، طول ضلعها ١٥٦م وعرضها ٩٧م، وله صحن مستطيل الشكل واسع تحيط به أروقة من ثلاث جهات، ويقع بيت الصلاة في الجهة الرابعة، ناحية القبلة، ويبلغ طوله ١٣٩م وعرضه ٣٧م، مساوياً مساحة الصحن تقريباً. ويحتوي بيت الصلاة على مجاز (٣١) عمودي على القبلة يخترق قاعة الصلاة ويقسمها إلى قسمين متساويين، وتتقدم المحراب الرئيس قبة كبيرة الحجم، مبنية على قاعدة مربعة الشكل تتكون من أربعة أركان ضخمة، وهذه القبة تسمى قبة النسر (٣٢).



الشكل رقم (٢, ٣). الجامع الأموي بدمشق (٣٣).

(٣٠) عبد القادر الريحاني، العمارة العربية الإسلامية، خصائصها وآثارها في سورية، ط٢، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م، ص ٥٥.

(٣١) المجاز: هو فرق ارتفاع منسوب سقف المبنى، ويدخل الضوء الطبيعي من هذا الفرق في المنسوب، وكان أول ظهور له في معبد الكرنك بمدينة الأقصر. بمصر في العمارة المصرية القديمة، ثم انتشر بعد ذلك في الكنائس، وبعض المساجد.

(٣٢) رؤوف الأنصاري، عمارة المساجد، دراسة في تاريخ عمارة المساجد خلال العهود الإسلامية، ط١، دار النبوغ للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٦م، ص ٤٧.

(٣٣) علي الطنطاوي، الجامع الأموي في دمشق، وصف وتاريخ، ط١، جدة: دار المنارة للنشر والتوزيع، ١٩٩٠م، ص ٤٩ - ٥٠.

وقد أوقف الحكام والأغنياء على الجامع الأموي الكثير من الأوقاف. وفي عام ٦٩٩هـ، نظر الملك الظاهر في أوقاف الجامع الأموي وما يصرف منها لأرباب الرواتب "فمن كان منهم مستغنياً وليس به انتفاع في علم أبطله، ومن كان منهم ذا حاجة ولم يكن لديه علم رتب له على بيت المال ما يقوم به، وصرف ما كان مقرراً لمن أبطله في مصالح الجامع، وفيمن للمسلمين الانتفاع بعلمه، ورتب فيه مصحفاً يقرأ فيه بعد كل صلاة الصبح تحت قبة النسرة، وأجرى على القارئ فيه كل شهر شيئاً معلوماً. وكان بصحن الجامع الأموي حواصل للمنجنقات وحواصل للأمرءاء، فيها أشياء من خيم وغيرها فأمر بإزالتها، فأتسع الجامع وزاد رونقه، وتطلب كتب الوقف، وكانت قد أهمل النظر فيها، وأجرى الوقوف على شروطها من واقفيها، وإنما كان المتولي للنظر فيها يعمل بمقتضى رأيه في منعه وإعطائه، فحُملت إليه بعد ما شق على الباحث عنها وجودها، فوجدها قد تمزق القديم منها، وما كان وقفه المالك العادل نور الدين محمود ومن بعده من الملوك قد كادت كتبها تتلف، فأمر بإحياء خطوطها وإثباتها عند سائر القضاة، واجتهد فيها حسب ما اقتضته آراؤه" (٣٤).

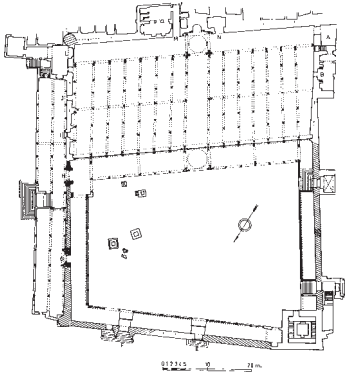
(٥، ١، ٢) جامع الزيتونة

يقع جامع الزيتونة في تونس، (الشكل رقم ٢، ٤). وقد اختلف المؤرخون في بانيه وتاريخ بنائه، فبينما نسبته الكثير منهم إلى عبيد الله بن الحبحاب، الذي سماه هشام بن عبد الملك الأموي والياً على إفريقيا، سنة ١١٠هـ (٧٢٨ - ٧٢٩م) وقيل سنة ١١٦هـ / ٧٣٤م، فقد ذهب آخرون إلى انتساب إنشاء الجامع إلى حسان بن النعمان الغساني، فاتح تونس وقرطاجنة، في حدود سنة ٧٩هـ (٦٩٨ - ٦٩٩م) (٣٥).

(٣٤) المرجع سابق، ص ٤٩ - ٥٠.

(٣٥) محمد العزيز عاشور، جامع الزيتونة، المَعْلَم ورجاله، تونس: دار سراس للنشر، ١٩٩١م، ص ٨.

وبجانب الأوقاف العظيمة التي أوقفت على الجامع، اشتهر هذا الجامع بوجود مكتبة عامة، احتوت على الكثير من الكتب، وقفت على الطلبة يقرؤونها، وينسخون منها، وعين لها متخصصون لمناولة الكتب، وإرجاعها إلى أماكنها، كما أسند الإشراف عليها إلى إمام الجامع^(٣٦). يذكر السّخاوي أن السلطان عثمان بن محمد بن عبد العزيز الحفصي المتوفى سنة ٨٩٣هـ "أنشأ الأبنية الهائلة والخزانة الشرقية بجامع الزيتونة وجعل بها كتباً نفيسة"^(٣٧).



منظور عام وسط النسيج العمراني^(٣٩)



المسقط الأفقي^(٣٨)

الشكل رقم (٤, ٢). جامع الزيتونة بتونس.

(٢, ١, ٦) جامع القرويين

يعد جامع القرويين من أهم الجوامع في تاريخ العمارة الإسلامية، (الشكل رقم ٢.٥). بنته السيدة فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني في مدينة فاس بالمغرب، وبدئ في

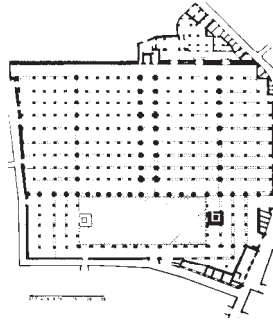
(٣٦) ياسين بن ناصر الخطيب، أثر الوقف في نشر التعليم والثقافة، مرجع سابق، ص ٣٠٢

(٣٧) يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٣٨) عاشور، محمد العزيز، جامع الزيتونة، المعلم ورجاله، مرجع سابق، ص ٨

(٣٩) المرجع السابق، ص ١١

بنائه في غرة رمضان سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م. وقد كانت الطريقة التي سلكها البناءون في البناء أنهم التزموا أن يأخذوا كل حاجاتهم من الرمال والحجارة من نفس البقعة دون غيرها، كما أنهم عثروا على عين ماء غزيرة تجاور الموقع الذي اختير لإقامة المسجد، وكان ذلك كله تحريماً من القائمين على عملية البناء كي لا تدخل في بناء المسجد شبهة، وظلت فاطمة صائمة منذ أن شرع في بنائه، إلى أن اكتمل وأقيمت الصلاة فيه^(٤٠). وقد رصدت لذلك الأموال لفعل الخير الذي يعود بالنفع الدائم على المسلمين. وظل الجامع على امتداد هذه العصور منبراً مشعاً وحصناً من حصون الدين والفكر والعلم، تخرج منه على امتداد هذه القرون عشرات الآلاف من العلماء والمفكرين والمصلحين والدعاة الذين أسهموا في تنقية الفكر الإسلامي من الشوائب والخرافات والأباطيل، حيث كان علماءه يحرصون على تعليم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفهمهما فهماً صحيحاً سليماً بعيداً عن البدع والغلو^(٤١).



الشكل رقم (٢،٥). جامع القرويين - المسقط في عهد المرابطين^(٤٢).

(٤٠) خفاجي، محمد عبد المنعم، الأزهر في ألف عام، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢١٦.

(٤١) محمد الحوي، "الوقف الخيري في المغرب قديماً وحديثاً وأثره الثقافي والاجتماعي والاقتصادي"، مجلة

أوقاف، العدد ٤٤، السنة الثالثة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٣م، ص ٩٦.

(٤٢) عبد الهادي التازي، جامع القرويين، المجلد الأول، ط ١، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٢م،

وكان للمولى يحيى بن محمد بن إدريس الثاني بن إدريس الأول المتوفى سنة ٢٤٩هـ دوراً كبيراً في الإشراف على البناء بالطريقة التي جعلت منه صرحاً مغربياً إسلامياً. فهو يمثل العمارة الإسلامية المغربية في أصالتها وإبداعها وتفرداها^(٤٣).

وتطلب تزايد عدد السكان واتساع نطاق المدينة إدخال إصلاحات جمة على مباني القرويين القديمة، واستحداث مبان وأفنية جديدة ألحقت بها، فلم يكد ينقضي إلا نحو قرن حتى أصبحت مساحته أربعة أضعاف ما كانت عليه عند بنائه^(٤٤).

ولما كثرت الأوقاف على الجامع، رؤي إنشاء مستودع للأوقاف سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م، ليوضع فيه مال الأوقاف وأحباسه، وكان الناظر المشرف على بنائه الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن حميد، وقد حفر قاعدة المستودع ونحتها حتى وصل إلى الأرض الصلبة، ثم جصص الأرض بالرمال والجير، وجعل له فتحتين علويتين لإدخال الهواء، كما جعل للمستودع بابين؛ أحدهما من الخشب، والثاني ملبس بالحديد على الوجه المحكم والعمل الوثيق^(٤٥).

(٢، ١، ٧) جامع أحمد بن طولون

حدث أن شكا الناس إلى أحمد بن طولون ضيق جامع العسكر بهم، فبدأ في بنائه عام ٢٦٣هـ/٨٧٦م، وكمل بناؤه عام ٢٦٥هـ/٨٧٩م^(٤٦)، الشكل رقم (٢، ٦)، وقد جاء نص تشييد الجامع منقوشاً على لوح من الرخام مكتوب بالخط الكوفي البسيط "... بسم الله الرحمن الرحيم. أمر الأمير أبو العباس أحمد بن طولون مولى أمير

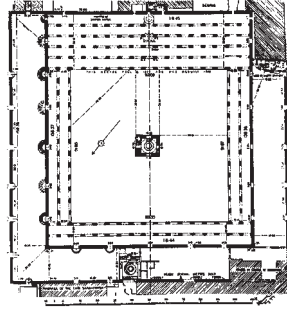
(٤٣) محمد الحجوي، "الجامع والمدارس والزوايا والخزانات التي ازدهرت بمال الوقف في المغرب"، مجلة أوقاف، العدد ٧، السنة الرابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٤م، ص ٩٦.

(٤٤) محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر في ألف عام، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٣٧.

(٤٥) عبد الهادي التازي، جامع القرويين، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ٧٦-٧٧.

(٤٦) فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، عصر الولاة، مرجع سابق، ص ٤٦٣.

المؤمنين ، أدام الله له العز والكرامة والنعمة التامة في الآخرة والأولى ببناء هذا المسجد المبارك الميمون ، من خالص ما أفاء الله عليه^(٤٧) ، وطيبه لجماعة المسلمين ، ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة ، وإيثاراً لما فيه تسنية الدين وألفة المؤمنين ، ورغبة في عمارة بيوت الله وأداء فريضة وتلاوة كتابه ومداومة ذكره ..."^(٤٨).

صحن الجامع^(٥٠)المسقط الأفقي^(٤٩)

الشكل رقم (٢,٦). جامع أحمد بن طولون بالقاهرة.

وعن عمارة الجامع يقول شافعي: "ويتميز جامع ابن طولون بوضوح نضج كبير في جملة نواح معمارية وزخرفية ، ويتجلى هذا النضج في حسن اختيار موقعه وتصميمه وأسلوب بنائه وطلاوة عناصره الزخرفية والمعمارية ، مما جعل له شخصية ذات طابع محلي صريح ، على الرغم من وجود تأثيرات ليست بالقليلة جاءت إليه من سامراء"^(٥١).

(٤٧) اختلف المؤرخون حول المال الذي بني منه جامع أحمد بن طولون، فمنهم من ذهب إلى أنه من كثر وجده في صعيد مصر، ومنهم من قال أنه نفى ذلك وأقسم أنه من خالص ماله.

(٤٨) كامل إسماعيل، دراسات أثرية، جامع أحمد بن طولون، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، (د.ت)، ص ٦.

(٤٩) صالح لمي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق.

(٥٠) Hillenbrand, R., *Islamic Art and Architecture*, Thames and Hudson Ltd, London, 1999, p. 44.

(٥١) فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، عصر الولاة، مرجع سابق، ص ٤٦٨.

وقد شهد جامع ابن طولون حركة علمية مستمرة عن طريق العناية التي أولاها إياه الأمير علم الدين سنجر الدواداري نيابة عن الملك المنصور لاجين، وجعل إليه شراء الأوقاف على الجامع الطولوني، وصرف إليه كل ما يحتاج إليه في العمارة، فأزال كل ما فيه من تخريب وبلطه، ورتب فيه دروساً لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة، ودرساً يلقي في تفسير القرآن، ودرساً في الحديث، ودرساً في الطب^(٥٢).

ومن النماذج الوقفية على ترتيب دروس في الطب في الجامع الطولوني بالقاهرة، ما جاء في نص وثيقة وقف حسام الدين لاجين، من ترتيب مدرس للطب، والوقف على هذا المدرس وعشرة طلبة يشتغلون بالطب "... رجلاً عارفاً بطب الأبدان مشهور المعرفة للأمراض والأدوية وهو القاضي الأجل الصدر الرئيس العالم الفاضل شرف الدين محمد بن المرحوم شهاب الدين أحمد بن أبي الحوافر الطبيب السلطاني يجلس بالجامع المذكور لإقراء الطب وتعليمه، ويرتب له من الطلبة عشرة يشتغلون بالطب ويلزمهم المدرس بحفظ ما يجب حفظه في الطب وعرضه وتصحيحه ويوضح لهم مشكلة ..."^(٥٣).

(٢، ١، ٨) الجامع الأزهر

شيد الجامع الأزهر^(٥٤) جوهر الصقلي، قائد جيش المعز لدين الله الفاطمي. وبدئ في إنشائه في ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ (٩٧٠م)، وتم بناؤه في عامين

(٥٢) يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي، ط ١، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٨٨م، ص ٢١.

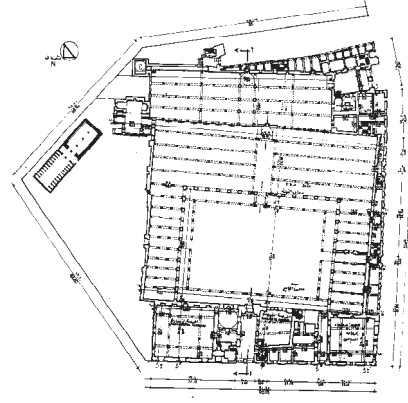
(٥٣) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ١٧١.

(٥٤) سمي الجامع الأزهر في البداية بجامع القاهرة، اسم العاصمة الجديدة، أما تسميته بجامع الأزهر فقد جاءت متأخرة بعد إنشاء القصور الفاطمية في عهد العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) التي أطلق عليها اسم

وبضعة أشهر، وافتتح للصلاة في يوم الجمعة السابع أو التاسع من رمضان سنة ٣٦١هـ (٩٧٢م)^(٥٥)، (الشكل رقم ٢,٧).



صحن الجامع الأزهر حالياً^(٥٧)



المسقط الأفقي^(٥٦)

الشكل رقم (٢,٧). الجامع الأزهر بالقاهرة.

وقال عنه المقرئزي في خططه: "ولم يزل في هذا الجامع - الأزهر - منذ بني عدة من الفقراء يلزمون الإقامة فيه، وبلغت عدتهم في هذه الأيام - سنة ٨١٨هـ -

القصور الزاهرة ومن ثم أطلق اسم الجامع الأزهر، أو أنه سمي الجامع الأزهر تفاؤلاً بما سيكون له من مستقبل زاهر، ومكانة سامية بازدهار العلوم فيه، وإن كان المرجح أن هذه التسمية مشتقة من لفظ الزهراء لقب السيدة فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) ابنة رسول الله ﷺ، وزوج الإمام علي عليه السلام، والتي نسبت إليها الدولة الجديدة، وسميت باسمها، وقد ظل المسجد الجديد يعرف بجامع القاهرة والجامع الأزهر، ثم تلاشى الاسم الأول مع الزمن وغلب عليه اسم الجامع الأزهر، واستمر يعرف بهذا الاسم إلى اليوم (عن: محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر في ألف عام، الجزء الثالث، ط٢، بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٨م، ص ٢١٦).

(٥٥) محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر في ألف عام، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢١٦.

(٥٦) مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، أسس التصميم المعماري والتخطيط الحضري في العصور الإسلامية المختلفة، دراسة تحليلية على العاصمة القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٣٢.

(٥٧) <http://www.sis.gov.eg/Ar/Arts&Culture/Archaeology/islamic/>

سبعمئة وخمسين رجلاً ما بين عجم وزiale - نسبة إلى زيلع - ومن أهل ريف مصر، ومغاربة ولكل طائفة رواق يعرف بهم، فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن، ودراسته، وتلقيه، والاشتغال بأنواع العلوم، والفقه، والحديث، والتفسير، والنحو، ومجالس الوعظ، وحلق الذكر، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله، والارتياح، وترويح النفس ما لا يجده في غيره، وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس، إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى، وكل قليل تحمل إليه أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات ولا سيما في المواسم" (٥٨).

وكان السلاطين والأمراء يتبارون في الإنفاق على الأزهر وتخصيصه بوقفيات كبيرة، ولا تكاد تقرأ سيرة لأحدهم إلا وترى أثراً له في تجديد وترميم الأزهر. فقد جده الحاكم بأمر الله وزوده بمجموعة من التناير الفضية، ورتب له سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م، مع بعض المنشآت الفاطمية الأخرى، أوقافاً ينفق من ريعها على إدارته وشئونه، فكانت أول وقفية رتبت للجامع الأزهر^(٥٩).

وقد أمدنا المقرئ بنص وقفية الحاكم بأمر الله الفاطمي على الجامع الأزهر، التي تتضمن حبس بعض أملاكه من دور وحوانيت ومخازن لتنفق على الأزهر وجامع راشدة وجامع المقس ودار الحكمة، وأفرد لكل منها نصيباً خاصاً، كما عين رواتب الخطباء والمشرفين والأئمة، وخصص أحباساً للنفقة منها على فرش الجامع وتأثيثه بالحصر وإنارته بالقناديل والزيت، وعلى إصلاحه وإمداده بالماء. ولقد أسفرت تلك الوقفية عن العناية بهذا الجامع، ولا عجب فهو مسجد القاهرة الرسمي ومقل الدولة

(٥٨) محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر في ألف عام، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٥٩) محمد عبد الله عنان، تاريخ الجامع الأزهر، ط ٢، القاهرة: مؤسسة الخانجي، ١٩٥٨م، ص ٢٤.

الفاطمية، وفي الوقفية نرى وفرة عدد الأئمة والمؤذنين والخدام وكيف كانت تخزن سنوياً أدوات الإضاءة والبخور والنظافة والفرش، وخصه الواقف بالحصر المضفورة للفرش العادي والحصر العبدانية الفخمة التي تحمل محل السجاد للحفلات، ونصت على العناية بتدعيمه وتقويمه إلى درجة بيع عين من الأوقاف المشتراة من فائض ريعه لترميمه^(٦٠).

كما تبرع الأمير بيلبك الخازندار بإنشاء مقصورة كبيرة بالجامع، عين لها بعض الأساتذة لتدريس الفقه الشافعي والحديث النبوي ورتب له سبعة من القراء لتلاوة القرآن وحبس على ذلك أوقافاً جلييلة. وتوالت أوقاف السلاطين والأمراء والكبراء على الجامع الأزهر خلال العصور الوسطى كما كانت تتوالى الأعطية والأرزاق الثابتة والمؤقتة لأساتذته وطلابه وكان من أجل أعمال البر وأشرفها أن يوقف القادرون من أملاكهم وضياعهم على دور العلم وبخاصة الجامع الأزهر، وكانت هذه الأوقاف ترتب إما بصفة عامة أو تخصص لأساتذة المذاهب والأروقة المختلفة وطلبتها، أو للإنفاق على تدريس مادة معينة ولا سيما علوم القرآن والحديث^(٦١).

كما جدد عمارته الأمير سعد الدين بشير الجامدار، وكان يسكن على مقربة من الأزهر، فاستأذن السلطان في إصلاحه وقام فيه بعمارة شاملة، وأنشأ فيه دروساً جديدة للفقه الحنفي، ورتب لطلابه أطعمة توزع عليهم كل يوم، وأوقف على ذلك أوقافاً جلييلة^(٦٢).

(٦٠) محمد السعدي فهود، تاريخه وتطوره، ط٢، القاهرة: الأزهر الشريف، ١٩٨٣م، ط٢، ص ٣٢.

(٦١) علي سعيد إسماعيل، الأزهر على مسرح السياسة المصرية، القاهرة: ١٩٧٤م، ص ٦٤ - ٦٥.

(٦٢) محمد عبد الله عنان، تاريخ الجامع الأزهر، مرجع سابق، ص ٢٥ - ٢٦.

بيد أن أعظم عمارة تمت للجامع الأزهر في العهد القديم ، هي تلك التي قام بها الأمير عبد الرحمن كتحدا القازدغلي ، في أواخر القرن الثاني عشر (الثامن عشر الميلادي) ، فقد أنشأ بهواً كبيراً يشتمل على خمسين عموداً من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقصورة في الناحية الشرقية القبليّة من الجامع. وأنشأ للجامع محراباً ومنبراً جديدين. كما بنى في أعلاه مكتباً بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم القرآن للأيتام من الأطفال المسلمين. وأنشأ أيضاً بداخله رحبة متسعة وصهرجاً عظيماً ، وأنشأ له داخل هذه الرحبة مدفناً عليه قبة معقودة ، كما أنشأ بتلك الجهة رواقاً خاصاً لطلاب الصعيد. وجدد المدرسة الطيرسية وجعلها هي والمدرسة الأقبغوية داخل الجامع ، وأنشأ فيما بينهما باباً عظيماً. كما أنشأ للجامع منارتين جديدتين ؛ تقع إحدهما في الجهة الشرقية القبليّة ، والأخرى في الجهة الشرقية. ورتب الأمير للجامع وطلابه مرتبات وأطعمة كثيرة^(٦٣).

ويرجع الاستقلال المالي للأزهر الذي كان يتمتع به في العصور السابقة إلى حصيلة الأوقاف التي حبسها عليه الخيرون من أهل البذل ليؤدوا رسالته الإسلامية العربية نشرًا وتعليمًا ، وكانت هذه الأوقاف تدر الخير على علمائه وطلابه وجعلتهم في غناء عن عون مالي تقدمه لهم الحكومة ويعتمدون عليه في معيشتهم. ويقرر جومار - أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون التي صاحبت حملة بونابرت - أنه كانت للأزهر موارد مالية ضخمة وأن شطراً كبيراً منها ينفق على التعليم الجامعي الذي يمارس في رحاب الجامع وعلى تمويل المكتبة به^(٦٤).

(٦٣) المرجع السابق، ص ٢٨ - ٢٩.

(٦٤) سعيد إسماعيل علي، الأزهر على مسرح السياسة المصرية، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٢,٢) الخانقاوات

الخانقاة كلمة فارسية معناها دار للتعبد، وقد أقيمت أول خانقاة في الإسلام في حوالي ٤٠٠هـ / ١٠١٠م^(٦٥). وكانت الخانقاة تبني على هيئة مسجد بدون مئذنة، ويحيط بها عدد من الغرف مخصصة لإقامة الفقراء، وعابري السبيل^(٦٦)، والمتصوفة. وقد بدأ إنشاء الخانقاوات في القرن الخامس الهجري، وأوقفت عليها الأوقاف الكثيرة^(٦٧). ومع أواخر القرن ٧هـ / ١٤م أصبحت الخانقاوات تؤدي وظيفة المسجد الجامع فأضيف لها منارة ومنبراً^(٦٨).

كما بنى خسرو بك في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي في سرايفو خانقاة لأتباع الطريقة الخلوتية، التي كانت تجمع بين الإقامة والمطالعة الصوفية^(٦٩).

ولا يختلف مسقط الخانقاة عن مسقط المدرسة إلا أنه في بعض الأحيان تعمل الخلوات في جناح منفصل، وذلك إذا اجتمعت المدرسة والخانقاة في مجموعة واحدة، مثل ما حدث في مدرسة و خانقاة برقوق بالنحاسين، حيث عملت الحشوات منفصلة في أربع وحدات سكنية خلف المدرسة بالجهة الغربية^(٧٠).

(٦٥) صالح لمعي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق، ص ٢٤.

(٦٦) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٧٦.

(٦٧) محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٤٣.

(٦٨) محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، مرجع سابق، ص ١٦٦.

(٦٩) محمد الأرنؤوط، "وقفية مدرسة الغازي خسرو بك في سرايفو"، مجلة أوقاف، العدد ١٣، السنة السابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٧م، ص ١١١.

(٧٠) صالح لمعي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٢,٢,١) خانقاة فرج بن برقوق

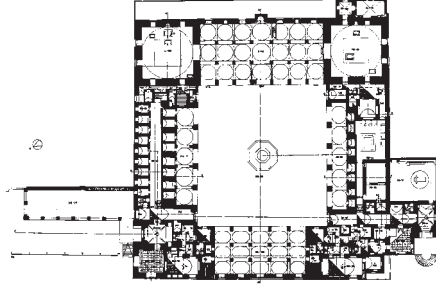
كان صلاح الدين الأيوبي أول من أدخل نظام الخانقاوات إلى مصر، عندما حول دار سعيد السعدا إلى خانقاة، وأوقف عليها كثيراً من الأوقاف مثل بستان الحبانية بجوار بركل الفيل، وقيسارية الشراب، وناحية دهمرو بإقليم البهنساوية، وحمام الصوفية^(٧١). وكانت خانقاة الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري الصالحي النجمي أول خانقاة من هذا الطراز^(٧٢).

أما خانقاة فرج بن برقوق بالقاهرة، (الشكل رقم ٢,٨)، فقد بنيت في الفترة من ٨٠١-٨١٣ هـ / ١٣٩٩-١٤١١ م. وكانت الخلوات التي يقيم فيها الصوفية في هذه الخانقاة عبارة عن حجرات صغيرة مفروشة ببلاط من الحجر الجيري ويفرش عليها حصير. وقد يحتوي بعضها على مسطبة يرتفع منسوبها عن أرضية الغرفة بدرجة واحدة. والخلوة لها سقف عبارة عن قبو نصف دائري، وتستعمل جلسات النوافذ المنخفضة كمسطبة للقراءة، وكان في الغالب توجد فتحة في أعلى الباب بها حاجز من الخشب الخرط، حتى تتم تهوية الغرفة مع ضمان عدم تعرض الجالس بالداخل لتيارات الهواء، هذا بجانب تهوية وإنارة الطريقة بين الغرف على جانبيها^(٧٣).

(٧١) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣ هـ / ١٢٥٠-١٥١٧ م دراسة تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٦٢.

(٧٢) محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، مرجع سابق، ص ١٦٦.

(٧٣) صالح لمي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق، ص ٢٨-٢٩.

مسقط الطابق الأرضي^(٧٤)الخانقة من الخارج^(٧٥)

الشكل رقم (٢,٨). خانقة فرج بن برقوق بالقاهرة.

وقد أوضحت وثيقة وقف السلطان برقوق شروط الالتحاق وطريقة المعيشة بالخانقة. فنصت على أن يكون الصوفي مثقفاً وحكيماً وأميناً. ويفضل ألا يكون متزوجاً، وفي حالة تزوجه، عليه أن يترك سكنه في الخانقة لغيره من غير المتزوجين، إلا أنه يسمح له بالانتظام في سلك التصوف. أما المتصوف المتزوج الذي يعمل كإمام فيسمح له بالمبيت بالخانقة، ويمكن للصوفي غير المتزوج أن يقيم خارج المبنى في حالة

(٧٤) المرجع السابق.

(٧٥) عن موقع آثار مصر الإسلامية (<http://www.cim.gov.eg>).

عدم توفر غرف. ويسمح للصوفي بالمبيت خمس ليال منفصلة خارج المبنى وله إجازة ثلاثة أشهر في السنة. وقد سمح في الخانقاة بإقامة الصوفية من المذاهب الأربعة إلا أنه يرجح بأن كل مذهب كان يشغل جناحاً خاصاً^(٧٦).

وقد تميزت الخانقاة بصورة معمارية جميلة في الهيئة الخارجية، حيث احتوت على الزخارف، بجانب العناصر المعمارية الأساسية الأخرى مثل المآذن والقبّة.
(٢، ٢، ٢) خانقاة المؤيد

كانت هذه الخانقاة بمدينة الجيزة بجوار القاهرة، وقد ذكرها المقريزي تحت عنوان الخانقاة الخروبية، فحدد موقعها وأصل المكان الذي أقيمت عليه بقوله، هذه الخانقاة بساحل الجيزة تجاه المقياس كانت منظرية من أعظم الدور وأحسنها. وكان عدد الحجرات على جانب الدهليز الذي يلي المدخل عشر حجرات، يعادل عدد جماعة الصوفية المنقطعين للعبادة بالخانقاة^(٧٧).

(٢، ٣) الزوايا

الزوايا كالخانقاة، ولكنها أصغر من حيث المساحة، وتقام على الطرق، والأماكن الخالية، وقد تقام في أحد أركان المسجد، وكان هناك من يوقف عليها الأوقاف، وعلى مرتاديه من الفقراء، ويخصص لها شيخ لتدريس القرآن والعلوم الشرعية^(٧٨).

(٧٦) المرجع السابق، ص ٢٦ - ٢٨.

(٧٧) فهمي عبد العليم، العمارة الإسلامية في عصر المماليك الجراكسة "عصر السلطان المؤيد شيخ"، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٧٨) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٧٦ - ١٧٧.

وكانت في الغالب تابعة لمؤسسات أهلية أو شخصية أو غير مرتبطة بالطرق الصوفية، وانتشرت في مختلف المدن والقرى. وكانت الزاوية غالباً مقر رجل من الأتقياء أو الصالحين، يجمع فيها حوله جماعة من التلاميذ، وفيها مصلى ومكتبة وأمكنة لإقامة الزهاد أو العابدين المعتكفين^(٧٩). ومن ذلك زاوية الشيخ خضر التي أنشأها الظاهر بيبرس خارج القاهرة، وأوقف عليها أحكاراً تغل في السنة نحو الثلاثين ألف درهم، وأنزل بها الشيخ خضر بن أبي موسى المهراني العدوي^(٨٠). ومن الأمثلة أيضاً، زاوية ابن منظور، والتي قال عنها المقرئ: "هذه الزاوية خارج القاهرة بخط الدكة بجوار المقس عرفت بالشيخ جمال الدين محمد بن أحمد بن منظور بن إدريس، كانت له معارف وأتباع ومعرفة بالحديث، حدث عن أبي الفتوح الجلالى وروى عنه الديماطي ... ونظر في الفقه واشتهر بالفضيلة وكانت له ثروة وصدقات". كما كانت هناك زاوية الطحاوي، التي أنشأها أبو جعفر الطحاوي أحمد بن محمد بن سلامة، وجاء في حجة وقفها "أنه أرصد على هذه الزاوية والمقام والسييل والخوض والساقية جهات منها ما إيراده من العثمانية المصرية في السنة سبعة وخمسين ألفاً وتسعمائة وستون عثمانياً مقيدة للدفت الكشيدة بالديوان العالي، يصرف منها أجرة جمال لحمل الماء من النيل إلى السيل والزاوية كل يوم أربعين عثمانياً ولشيخ القراء والزاوية يومياً عشرة عثمانية، ... ولخادم السيل ستة عثمانية يومياً، وللوقاد اثنان، ولثمن الزيت كذلك، ومعلوم الناظر ثلاثة، وللبناب كذلك، وللغراش اثنان، ... إلخ"^(٨١).

(٧٩) عبد الكريم إبراهيم، "الأوقاف الإسلامية في فلسطين (المحددات العامة والأصول التاريخية)"، مجلة أوقاف،

العدد ٦٤، السنة الثالثة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، يونيو ٢٠٠٤م، ص ٢١١.

(٨٠) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(٨١) علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، الجزء السادس، ط ٢، طبعة جديدة، القاهرة:

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص ٤٨، ٤٩، ٩٣ - ٩٤.

ومن أمثلة الزوايا في بلاد الشام ؛ الأرموية ، والرومية الشرقية ، والحريرية ، والحريرية الأعقفية ، والدهستانية ، والحصنية ، والدينورية ، والدينورية الشيعية ، والسيوفية ، والداودية ، والسراجية ، والشريفية التغاراتية ، والطالبية ، والوطية ، والطيبية ، والعمادية المقدسية ، والغسولية ، والفقاعية ، والفرنثية ، والقوامية البالسية ، والقلندرية الدرگزينية ، والقلندرية الحيدرية ، واليونسية ، والعمرية ، والصمادية ، والسعدية^(٨٢).

كما كان لهذه الزوايا دور كبير في الجهاد والحفاظ على أرض الإسلام من هجمة الصليبيين ، وكانت أموال الوقف ، وهبات المحسنين تمددها بالقدرة على الاستمرار والصمود ؛ لأن الأمة كانت ترى في رجالها مزايا العلم والزهد والدفاع عن الثغور من الغزاة المعتدين^(٨٣). ومن أشهر الزوايا التي قامت بهذا الدور في المغرب ؛ الزاوية الناصرية ، في تامكروت ، وقد أسسها محمد بن ناصر المتوفى سنة ١٠٨٥هـ ، وكان فقيهاً عالماً. والزاوية الدلائية ، ومقرها جبال الأطلس المتوسط ، ومؤسسها الشيخ أبو بكر الدلائي ، وكان عالماً متصوفاً ورعاً زاهداً مجاهداً ، اجتمع حوله عدد كبير من العلماء ورجال الفكر وأهل الصلاح^(٨٤).

(٨٢) للمزيد من المعلومات حول هذه الزوايا، أنظر بتوسع: الدمشقي، عبد القادر بن محمد النعيمي، المدارس في تاريخ المدارس، الجزء الثاني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، ص ١٥٣-١٧٣.

(٨٣) محمد الحجوي، الجموع والمدارس والزوايا والخزانات التي ازدهرت بمال الوقف في المغرب، مرجع سابق، ص ١٠٣.

(٨٤) المرجع السابق، ص ١٠٣.

الوقف والمنشآت التعليمية

ملأت المدارس مدن العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، ويذكر التاريخ بكثير من الإكبار والإعجاب نفراً من أمراء المسلمين كانت لهم اليد الطولى في إنشاء المدارس في مختلف الأمصار، منهم صلاح الدين الأيوبي، حيث أنشأ المدارس في جميع المدن التي كانت تحت سلطانه في مصر ودمشق والموصل وبيت المقدس، ومنهم نور الدين الشهيد الذي أنشأ في سوريا وحدها أربعة عشر معهداً، منها ستة في دمشق، وأربعة في حلب، واثنان في حماه، واثنان في حمص، وواحد في بعلبك، ومنهم نظام الملك الوزير السلجوقي العظيم الذي ملأ بلاد العراق وخراسان بالمدارس حتى قيل فيه إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة، وكان ينشئ المدارس حتى في الأماكن النائية، وكلما وجد عالماً في بلدة قد تميز وتبحر في العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفاً وجعل فيها دار كتب. وبجانب هؤلاء العظماء كان الأمراء والأغنياء والتجار يتسابقون في بناء المدارس، والوقف عليها بما يضمن استمرارها وإقبال الطلاب عليها، وكثيرون جداً هم الذين جعلوا بيوتهم مدارس، وجعلوا ما فيها من كتب وما يتبعها من عقار وقفاً على طلاب العلم الدارسين فيها^(١). يتضح من هذا العلاقة الوثيقة التي ربطت بين الوقف وازدهار عمران المدارس في المدينة الإسلامية، الذي انعكس، ولاشك، على

(١) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٣٦.

حركة التعليم في ذلك الوقت ، بل جعل بلاد المشرق العربي مقصداً للطلاب والمدرسين من كل صوب من مشرق العالم الإسلامي ومغربيه.

وقد كانت عوائد الأوقاف المصدر المالي الأساس والوحيد لغالبية المؤسسات التعليمية ومراكز التعليم في العصور الإسلامية المتقدمة ، ومن هنا فإن الحركة العلمية الواسعة التي شهدتها الأمصار والبلاد الإسلامية والتي كانت تدين بوجودها إلى كثرة المدارس واستمرار التعليم فيها ، إنما هي في الحقيقة نتاج طبيعي لازدهار الأوقاف وكثرتها وديمومة عوائدها الخيرية. ولم يقتصر أثر الأوقاف على التعليم في كونها المصدر الأساس والوحيد الذي يمدده مالياً ، إنما تعدى الأمر إلى تدخل الأوقاف في تنظيم كافة الجوانب العلمية والتعليمية ، حتى اعتبرت الوثائق الوقفية بمثابة لائحة أساسية تنظم شئون التعليم وتصنع الأسس التربوية^(٢).

يؤكد أحد الباحثين على أنه بدون توفيق الله للواقفين ما كان بالإمكان أن تقوم قائمة للمدرسة في العصر المملوكي ، على سبيل المثال ، كما يرى أن أثر الوقف على التعليم لم يقتصر على أنه كان مجرد مورد مالي ، بل تعدى الأمر ذلك إلى كافة جوانب العملية التعليمية حتى يمكننا القول إن وثيقة الوقف أو كتاب الوقف كان بمثابة اللائحة الأساسية للمؤسسات التعليمية ، التي تضم الأسس التربوية للتعليم والشروط التي يجب أن تتوافر في القائمين بالتدريس ومواعيد الدراسة ، وما إلى ذلك من التنظيمات الإدارية والمالية. كما يمكن القول بأن دور الوقف تجاوز توفير المدرس وإتاحة الكتب وتخصيص نفقات للطلاب ، إلى توفير الخبر والورق والطعام والكساء وغير ذلك ، مما يوفر لطلبة العلم كل سبل الراحة حتى يتمكنوا من التحصيل دون أي عائق مادي^(٣).

(٢) عبد الستار إبراهيم الهيتي، الجامعة الوقفية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٠٢.

(٣) يحيى محمود بن جنيد الساعدي، الوقف والمجتمع نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص

وتجدر الإشارة إلى أن مؤسسة الوقف عنت بشؤون التعليم من خلال نطاقين متلازمين ومتوازنين؛ رוחي، ومادي. فكان علماء الإسلام يشكلون ظاهرة موسوعية في المعرفة، ولم تكن علومهم نافعة بدرجة أقل من التزامهم بالمبادئ التي يتلزمون بها في علومهم ومعارفهم، فالعلوم المادية التي يحققها المجتمع تكون مسخرة لتنمية الملكات الروحية، وبالتالي فإن المجتمع الذي يعجز عن تحقيق التوازن والانسجام بين التطور المادي والتربية الإيمانية هو مجتمع متخلف، من وجهة نظر القيم السليمة ولو أنه تطور بعيداً في الوصول إلى متع الدنيا ومباهج الحياة^(٤)، من أجل هذا كان العلم الديني ملازماً للعلم التجريبي من هندسة وطب وصيدلة وغيره في المدارس الموقوفة، كظاهرة عامة.

(٣، ١) المساجد كمدارس علمية

كان المسجد هو النواة الأولى للمدرسة في الحضارة الإسلامية، فلم يكن مكان عبادة فحسب، بل كان مدرسة يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة والقرآن وعلوم الشريعة واللغة وفروع العلوم المختلفة^(٥). وكان التدريس يتم في المسجد على شكل حلقات^(٦)، وكانت الحلقة تتسع أو تضيق تبعاً لعدد الطلاب، فقد كانت حلقة إمام

(٤) ياسر عبد الكريم الحوراني، تجربة الوقف في إطار عالمي، مرجع سابق، ص ١٨١.

(٥) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٣١.

(٦) سمي التدريس حلقة لأن الطلبة كانوا يتحلّقون حول شيخهم على شكل حلقة أو شبه عقد، ولم يكن للحلقة مكان مخصص في المسجد، فقد كانت أحياناً تعقد في الزوايا، أو في المقصورة، وكان الشيخ يجلس في بعض الأحيان في المحراب (حيدر، كامل، العمارة العربية الإسلامية، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي، ط ١، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٥م، ص ٢١).

المالكية بمصر أبي بكر النعالي (المتوفى سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م) بمسجد عمرو بن العاص تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها^(٧).

وكانت المساجد مراكز للعلم في تاريخ الحضارة الإسلامية، يدرس فيها القرآن والسنة والعلوم الشرعية واللغوية التي تعين على فهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وحتى العلوم العقلية والتجريبية من رياضيات ومنطق وفلسفة وطب وكيمياء كان الطلبة يدرسونها في المساجد. ومن هنا كان المسجد هو أول مدرسة وجامعة ومؤسسة علمية في تاريخ الحضارة الإسلامية. ومن هنا أيضاً كان إقبال المسلمين على وقف ممتلكاتهم لبناء المساجد والإنفاق على صيانتها، وعلى شيوخ العلم والطلبة الذين كانوا يقصدونها من مختلف الأماكن للعبادة وللتعليم والتعلم^(٨).

وقد كانت الأوقاف هي السبب المباشر في احتفاظ المساجد الكبرى بشهرتها العلمية من ناحية، وفي استمرارها كمركز للحركة العلمية في كافة أنحاء العالم الإسلامي من ناحية أخرى، وذلك عن طريق ما كان يوقف على حلقات العلم بهذه المساجد. ويؤكد المقرئ على ذلك فيقول، نقلاً عن شمس الدين بن الصائغ الحنفي "أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر قبل الوفاء الكائن في سنة تسع وأربعين وسبعمائة، بضعاً وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح مكانه"^(٩).

(٧) كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي، مرجع سابق، ص ٢١.

(٨) محمد الحجوي، الوقف الخيري في المغرب قديماً وحديثاً وأثره الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٩) محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ص ٢٦٠ - ٢٦١.

وبذلك فقد كان للوقف دور في عمارة المسجد كمكان للتعليم وتلقي العلم، وبذا لم تقتصر وظيفة المسجد على الصلاة والعبادة، بل امتدت إلى جوانب تعليمية وثقافية واجتماعية أخرى.

(٣، ٢) الكتاتيب

أقيم الكتاب بجوار المسجد، وخصص لتعليم القراءة والكتابة والقرآن وشيء من علوم العربية والرياضة، وكان الكتاب يشبه المدرسة الابتدائية في عصرنا الحاضر. وكانت الكتاتيب من الكثرة في المدينة الإسلامية، فقد عد ابن حوقل ثلاثمائة كتاب في مدينة واحدة من مدن صقلية، وأن الكتاب الواحد كان يتسع للمئات أو آلاف من الطلبة. وكان الكتاب من الاتساع أحياناً بحيث يضم مئات وآلاف من الطلاب. ومما يذكر في التاريخ أن أبا القاسم البلخي كان له كتاب يتعلم به ثلاثة آلاف تلميذ، وكان كتابه فسيحاً جداً بحيث يحتاج إلى أن يركب حملاً ليتدبر بين طلابه، وليشرف على شؤونهم^(١٠).

كما كانت الكتاتيب والمكاتب تقام خصيصاً لتعليم الأيتام، ويذكر المقرئ أنه في عهد المماليك صدر توجيه يلزم كل من يؤسس مدرسة للعلوم الشرعية، بأن يقيم بجوارها كتاباً للأيتام والفقراء والمساكين، وقد أنشئت الكتاتيب بوفرة تحقيقاً لذلك، في أمكنة متفرقة من مصر، وكان تلاميذها يتلقون التعليم والإعاشة عن طريق الوقف^(١١). وقد وجد الرحالة ابن جببر عدداً كبيراً من الكتاتيب التي وقفت على الأيتام، في مدينة القاهرة، في القرن السادس الهجري، وكانوا يسمونها آنذاك "كتاب سبيل"^(١٢).

(١٠) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٣١.

(١١) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٨٠.

(١٢) المرجع السابق، ص ١٨٠.

ومن ذلك ، على سبيل المثال ، مكتب السبيل الذي أنشأه الظاهر بيبرس بجوار مدرسته بالقاهرة وقرر لمن فيه من الأيتام المسلمين الخبز في كل يوم بالإضافة إلى الكسوة في فصلي الشتاء والصيف. كذلك أنشأ السلطان قلاوون مكتباً لتعليم الأيتام ورتب لكل طفل بالمكتب جارية في كل يوم وكسوة في الشتاء وأخرى في الصيف. وقد انتشرت هذه الأوقاف بشكل كبير حتى إنه : "قلما يوجد أمير أو سلطان إلا وأوقف للأيتام مكتباً لتعليمهم والصرف عليهم". كما أنه : "قلما تخلو وثيقة وقف خيري من تخصيص جزء من الربيع لتعليم عدد من الأطفال الأيتام ، كما أنه قلما يوجد مسجد أو مدرسة وقفية إلا ويوجد بجوارها مكتب لتعليم الأيتام"^(١٣).

ورغم بساطة التعليم في الكتاتيب في المرحلة الأولية المهمة من عملية التعليم ، فقد كان للأوقاف فيها آثار بعيدة المدى ، حيث حرص الواقفون على تحديد كل ما يتعلق بالعملية التعليمية في هذه المرحلة ، وقد أوجدت شروط الواقف وحرص الناظر على توفير كل ما تنص عليه الشروط في وثائق الوقف ، نوعاً من التقاليد التي أصبح معمولاً بها حتى ولو لم يرد عليها نص صريح في وثيقة الوقف^(١٤).

وبلغ من حرص الواقفين على نجاح عملية التعليم بمكاتب الأيتام ، أنهم لم يكتفوا ببناء المكاتب وترتيب المؤدبين والعرفين^(١٥) بها ، كما لم يكتفوا بتوفير الطعام والكساء فضلاً عن راتب شهري للأيتام ، بل حرص الواقفون على توفير أدوات

(١٣) عبد الله بن سليمان الباحث، الوقف والتنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص ١٥٠

(١٤) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م دراسة تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٢٦٤.

(١٥) المؤدب: هو من يقوم بالتدريس في المكتب، وكان يسمى في بعض الأحيان الفقيه. العريف: هو من كان يساعد المؤدب في عملية التدريس، وهو يشبه المعيد في المدرسة (أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م دراسة تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ص ٢٦٤، ٢٦٥).

الكتابة للأيتام. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك ما نصت عليه وثيقة وقف الأمير صرغتمش على مكتب للأيتام بالقاهرة "ويصرف ثمن ما يحتاج إليه الأيتام المذكورين من أقلام ومداد وألواح ودوي وحصر يجلسون عليها"^(١٦).

(٣,٣) المدارس

ذكر المؤرخ أبو الحسن المسعودي أن التعليم بدأ أول الأمر في المساجد والجوامع وانتقل إلى بيوت المدرسين الخاصة، ليصل في نهاية المطاف إلى تخصيص دور للعلم معدة لهذا الغرض، يؤسسها الولاة والخلفاء ويطلقون عليها اسم بيوت الحكمة وخزائن الحكمة^(١٧).

ولما أهل القرن الخامس الهجري، كانت قد انتشرت مختلف العلوم على يد العلماء العرب والمسلمين بفضل مؤلفاتهم والكتب المترجمة من اللغات الأخرى، وكان قد بلغ شغف الناس بالعلم مبلغاً عظيماً، فلم تعد دور العلم تفي بحاجة المجتمع الإسلامي في التعليم؛ فكان لابد من ظهور المدارس. وتعد المدرسة التي أنشأها ابن أبي بكر بن فورك الأصبهاني، المتوفى سنة ٤٠٦ هـ، أقدم مدرسة. ثم انتشرت هذه المدارس الأهلية في مختلف البلاد الإسلامية، وتطورت تطوراً سريعاً حتى إنها، قبل أن ينتصف القرن الخامس الهجري، كانت قد دخلت دوراً جديداً باحتضان الدولة لفكرة تأسيس المدرسة، واتخاذ هذه المدارس مراكز لنشر العلوم والفكر الإسلامي^(١٨).

(١٦) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

(١٧) الهيني، عبد الستار إبراهيم، الجامعة الوقفية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٩٩.

(١٨) محمود الحاج قاسم محمد، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، بغداد: مطبعة الإرشاد،

١٩٧٤ م، ص ١٢١ - ١٢٢.

ومن الناحية المعمارية، يلاحظ في أغلب المدارس الإسلامية أن جدار القبلة كان هو المحدد الرئيس في تخطيط المبنى، وأن حدودها الداخلية كانت تنظم في شكل مستطيل أو مربع قائم على خط هذا الجدار، ويتضح تبعاً لذلك أنه كان لكل من تلك المدارس بيتاً للصلاة، وأن هذا البيت كان يتصدر بناءها، وأنه كان أكبر قاعة في المدرسة وأكثرها أهمية واتساعاً، ويلاحظ في بيوت معظم المدارس أنه قد روعي في تخطيطها أن تمتد في موازاة جدار القبلة أكثر من امتدادها في اتجاهه. أما العنصر الآخر، فهو البهو، إذ يلاحظ أن كل مدرسة كان بها في أغلب الأحيان بهو مكشوف فسيح، مربع أو مستطيل أو قريب من ذلك. كما كانت جميع المدارس تحوي بيوتاً للطلاب تتكون من غرف صغيرة حجماً، بعضها من طابق واحد وفي معظمها كانت تتكون من طابقين، وكان عدد هذه الغرف يتناسب مع حجم المدرسة ومع سعة بهوها وبيت صلاتها. وبجانب ذلك نظمت في كل مدرسة قاعات فسيحة، تتناسب سياستها مع الغرض الذي أعدت من أجله كخزانات للكتب، أو قاعات لتذكير الدروس وتناول الطعام وجلس المدرسين والنظار والمشرفين والكتبة. كما كانت تضم المدارس مبان أخرى كملحقات تصلح كمطبخ أو مخبز أو حمام، وغير ذلك من المنافع العامة للعاملين والطلاب بها^(١٩).

كما شهد القرن السادس الهجري، بداية تأسيس المدارس الوقفية، بالهيئة المتكاملة للتعليم، التي تحتوي على جميع الخدمات اللازمة للعملية التعليمية والمكملة لها؛ مثل الخدمات الطبية، ومكتب لرعاية الأيتام، بل وحتى مدافن الطلبة الذين يتوفون، فقد وقفت قطعة أرض في مدينة سبتة في المغرب يدفنون فيها من يتوفى من الطلاب^(٢٠).

(١٩) سعيد إسماعيل علي، معاهد التعليم الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٢٠) فؤاد عبد الله العمر، إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٢٨.

وعن دور الوقف في إنشاء هذه المدارس وقيامها بوظيفتها، يقول أحد الباحثين: "إن المؤكد أن جميع المدارس والمراكز العلمية التي تم إنشاؤها في التاريخ الإسلامي إنما كان يعتمد في تمويلها وإدارتها على مؤسسة الأوقاف، رغم تنوع مهام تلك المدارس من حيث الحجم والتخصص والإمكانات، وقد كان التعليم فيها مجانياً شاملاً لجميع قطاعات المجتمع، فلم يكن التعليم فيها محصوراً بفئة من أبناء الأمة دون فئة، بل كانت فرص التعليم فيها متوفرة لجميع طبقات المجتمع بفضل عوائد المؤسسة الوقفية التي تديرها وتعمل على تسهيل مهامها وتحقيق رسالتها"^(٢١). وهذا ما يؤكد أن ريع الأوقاف كان هو المصدر المالي الأساس والوحيد لغالبية مدارس ومكاتب الأيتام في العصر المملوكي خاصة، ومن ثم فإن الحركة العلمية الواسعة التي شهدتها مصر في ذلك العصر، والتي تدين بوجودها إلى إنشاء المدارس واستمرار التعليم بها، إنما هي في الحقيقة نتاج طبيعي لازدهار الأوقاف وانتشارها في العصر المملوكي^(٢٢).

وقد قامت المدارس بجانب الكتاب والمسجد، وكانت الدراسة فيها تشبه الدراسة الثانوية والعالية في عصرنا الحاضر، وكانت الدراسة فيها قسمين: قسم داخلي للغرباء الذين لا تساعدهم أحوالهم المادية على أن يعيشوا على نفقات آبائهم، وقسم خارجي لمن يريد أن يرجع في المساء إلى بيت أهله وذويه، وكانت الدراسة في القسم الداخلي بالمجان أيضاً، يهياً للطالب فيه الطعام والنوم والمطالعة والعبادة. وقد كانت كل مدرسة تحتوي على مسجد وقاعات للدراسة وغرف لنوم الطلاب ومكتبة ومطبخ وحمام. وكانت بعض المدارس تحتوي فوق ذلك على ملاعب للرياضة البدنية

(٢١) عبد الستار إبراهيم الهبتي، الجامعة الوقفية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٢٢) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

في الهواء الطلق^(٢٣). وكان يلحق بالمدارس أطباء للمعالجة، مع حمامات لاستخدام الطلبة، مع مستشفى، ومطاعم ومطابخ لتقديم الطعام، وكانت تعلق ساعة في وسط ساحة المدرسة، ليعرف الطلبة أوقات المحاضرات وأوقات الصلاة خاصة، كما احتوت هذه المدارس على حدائق تنتشر بين أروقتها^(٢٤).

ولم تكن تلك المدارس، التي كانت تدار من ريع الوقف وعوائده، مجرد أبنية تقام أو قاعات ترتب أو مجموعة طلاب يتلقون العلوم، وإنما كان أكثرها عبارة عن مؤسسات ومراكز راقية لها أنظمتها وقوانينها وتقاليدها الخاصة، التي تسير على نهجها، ومواردها المالية المستقلة التي تعطيها دعماً كبيراً في أداء وتحقيق رسالتها الثقافية والتربوية^(٢٥).

ولم يقتصر دور الوقف على مدارس البنين فقط، بل امتد إلى مدارس البنات، ففي مصر وفي النصف الأول من القرن العشرين انتشرت مدارس البنات الموقوفة في أنحاء البلاد، ولم تقتصر على مدينتي القاهرة والإسكندرية فقط، فكانت مدرسة البنات بالمنصورة في شمال مصر التي كانت تمولها إحدى وقفيات الأميرة فاطمة بنت الخديوي إسماعيل، وكان بالمدرسة أيضاً قسم للبنين، وكانت الوقفية عبارة عن ريع ١٨٤ فدان، وقد نصت الأميرة في وقفيتها على أن: "للتلمذة والتلميذات من كتب دراسية وكراريس وورق أبيض للكتابة، وأقلام من أي نوع كان، ومداد وغير ذلك ... وفي مستوى كساوي لمائة وعشرين تلميذ وتلميذة من ذلك ستون تلميذاً ذكراً وستون تلميذة، بشرط أن يكون المذكورون من أبناء المسلمين الفقراء وتكون كسوة كل واحد

(٢٣) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٢٤) ياسين بن ناصر الخطيب، أثر الوقف في نشر التعليم والثقافة، مرجع سابق، ص ٣٠٦.

(٢٥) عبد الستار إبراهيم الهبتي، الجامعة الوقفية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٠٠.

من الذكور مشتملة على بنطلون ودكتة وصديري من الجوخ الوسط، وطربوش وقميص ولباس بفته، وجزمة وشراب وياقة ورباط ياقة، وتكون كسوة كل واحدة من التلميذات مشتملة على فستان من الحرير الوسط، وقميص من البفته الشاش، ولباس من القماش الدبولان، وجزمة وشراب، بشرط ألا تقل كسوة من المائة وعشرين كسوة عن جنيهين اثنين، وأن يكون إعطاء الكساوي للتلامذة والتلميذات في ليلة السابع والعشرين في شهر رمضان من كل سنة^(٢٦). وكذلك كانت مدرسة البنات الخيرية الإسلامية بدرب أبي الحسن بقنا في صعيد مصر، التي كانت من بين الواقفين عليها السيدة بخيتة بنت حمد بن أحمد، حيث أوقفت أربعة منازل لهذا الغرض، واشترطت في نص الوقفية أنه لو تعذر الصرف على مدرسة البنات الخيرية فيكون لصالح مدرسة ولي العهد الإسلامية الخيرية للبنين بقنا^(٢٧). ومن النماذج أيضاً في هذا المجال وقفية السيدة دلبرون هانم شكري، حيث أوقفت مساحة ١٢٠ فدانا في مصر ليصرف ريعها على المدرسة التي أنشأتها واشترطت أن تتعلم فيها "البنات اليتيمات الفقيرات من سن سبع إلى اثني عشرة سنة، بحيث لا يقل عدد من يقبل منهم عن خمسين بنتاً يتعلمن فيها القراءة والكتابة وحفظ شيء من القرآن، وباقي العلوم الجارية تدريسها بمدارس البنات الأولية، ثم يتعلمن الخياطة بأنواعها وكذلك الطبخ بأنواعه، وصنع الفطورات والحلوى"^(٢٨).

(٢٦) هند مصطفى علي، الأميرة فاطمة بنت إسماعيل: الوقف كمشروع إصلاح، مرجع سابق، ص ١٠٥.
 (٢٧) ريهام أحمد خفاجي، "أوقاف النساء: نماذج لمشاركة المرأة في النهضة الحضارية، دراسة للحالة المصرية في النصف الأول من القرن العشرين"، مجلة أوقاف، العدد ٤، السنة الثالثة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٣م، ص ٢٥ - ٣١.

(٢٨) المرجع السابق، ص ٢٢ - ٢٣.

وفي الحقيقة أنه، في كتاب بهذا الحجم، يصعب الحصر، والحديث بشكل مفصل عن كل المدارس الوقفية في التاريخ الإسلامي وفي البلاد الإسلامية المختلفة، وخصوصاً المراكز العلمية الكبيرة في ذلك الوقت أمثال: مكة المكرمة، والقاهرة، وبغداد، ودمشق، واليمن، وبلاد المغرب العربي، والأندلس، وأصفهان، كما يصعب سرد كثرة المدارس على امتداد التاريخ الإسلامي المزدهر بحركة التعليم في المدارس التي ارتبطت بالوقف، غير أنه من الضروري تقديم أمثلة على تلك المدارس لبيان دور الوقف فيها من خلال دور تلك المدارس ووظائفها، وأيضاً دوره في عمارتها.

(٣,٣,١) المدرسة النظامية

روي عن الرحالة ابن جبير أنه شاهد في بغداد نحو ثلاثين مدرسة كل واحدة منها في قصر وبناية كبيرة أشهرها وأكبرها المدرسة النظامية التي تخرج منها أكابر العلماء وأشهرهم، أمثال الشيرازي، والغزالي، وكمال الدين الأنباري، وغيرهم، وقد كان لتلك المدارس أوقاف وعقارات للإنفاق عليها وعلى العلماء والدارسين فيها^(٢٩). وقد كانت بغداد في ذلك الوقت من المراكز العلمية الكبيرة في الخلافة الإسلامية.

ومن هذه المدارس، كانت المدرسة النظامية، اكتمل بناؤها سنة ٤٥٩هـ، وخصص لها ما يعادل ١,٥ مليون من الفرنكات الذهبية لشراء الكتب والمخطوطات^(٣٠). ومن المرجح أنها أول مدرسة كبيرة في العالم الإسلامي، خصصت لتدريس الفقه الشافعي، وقصدها أهل العلم على اختلاف طبقاتهم من أطراف

(٢٩) عبد الستار إبراهيم الهبتي، الجامعة الوقفية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٣٠) محمود الحاج قاسم محمد، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، مرجع سابق، ص ١٢٢.

البلاد^(٣١). وقد كان الريع الذي تنتجه الأوقاف المخصصة لهذه المدرسة ١٥٠٠٠ دينار في العام، وكان ذلك الريع كافياً لمرتبات الشيوخ ولما يدفع للطلاب، وكان يشمل مئونة طعامهم وملابسهم وفرشهم، وغير ذلك من ضرورات معاشهم^(٣٢). أما عن عمارتها، فقد كانت على طابقين وبها عدد كبير من الحجرات والغرف، وقيل إنها كانت مستطيلة البناء متناسبة الزوايا والأرجاء، فيها أماكن واسعة للدرس وأخرى للمذاكرة وللترويح عن النفس، يتسع مصلاها للآلاف، وفيها مواضع لرؤساء العلم والمدرسين وغرف للذخائر وأدوات للطباخين، كما كان بها خزانة للكتب اشتملت على ما يفوق الحساب من الكتب التي جمعت من الآفاق^(٣٣).

(٣,٣,٢) مدرسة الصابرين

قام الملوك والأمراء في المغرب برصد أموال الوقف لبناء المدارس ومساكن الطلبة، وقد كثرت المدارس في عهد بني مرين خاصة، حيث اهتم ملوك هذه الدولة ببناء المدارس وسكنى الطلبة (الأحياء الجامعية) على طراز مغربي إسلامي أصيل في هندستها وزخرفتها. وقد ازدانت بنقوش بديعة وآيات بينات كتبت بخط مغربي. وقد بلغت في جمالها المعماري مبلغاً يدل على أصالة العمارة المغربية في جودة الذوق والدقة في الصنعة. ولكي تستمر هذه المدارس في أداء دورها الديني والتعليمي أنفقوا عليها أموالاً باهظة من مال الوقف الذي نما وكثر في عهدهم، كما زودوها بالخزانات المليئة بالمصاحف والكتب القيّمة والنادرة، وبلغ حرصهم في المحافظة عليها أنهم كانوا

(٣١) كامل حيدر، "العمارة العربية الإسلامية"، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي، مرجع سابق، ص ٧٥-٧٦.

(٣٢) سعيد إسماعيل علي، معاهد التعليم الإسلامي، مرجع سابق، ص ٣٤.

(٣٣) كامل حيدر، "العمارة العربية الإسلامية"، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي، مرجع سابق، ص ٢١.

ينقشون الموقوفات على رخام كان يبنى في جدرانها حفاظاً على استمرار إنفاقه عليها. ولهذا عرفت الحركة الفكرية والأدبية والعمرانية في عهدهم ازدهاراً أصبح مضرب المثل^(٣٤).

ومن النماذج المهمة على المدارس في المغرب؛ مدرسة الصابرين التي أنشأها في مدينة فاس الأمير يوسف بن تاشفين سنة ٤٦٢هـ، وكانت بجانب دورها الديني والعلمي تقوم بإيواء الطلبة وتقديم الخدمات الضرورية من مال الوقف ليستمروا في طلب العلم^(٣٥).

(٣,٣,٣) المدرسة اليوسفية

وهناك كانت أيضاً المدرسة اليوسفية بمراكش جنوب المغرب التي بناها الأمير علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥١٤هـ؛ لتكون مؤسسة دينية وعلمية وثقافية، وقد قامت بهذا الدور خير قيام حيث كان يتعلم بها الطلبة العلوم الشرعية والأدبية واللغوية والفلسفة والطب والهندسة، إلى أن أصبحت في العصر الحديث كلية للغة العربية. وبجانب هاتين المدرستين العظيمتين، كانت هناك مدارس أخرى شيدت من أموال الوقف في مدينة فاس - عاصمة المغرب العلمية - منها: مدرسة العطارين التي بناها أبو سعيد المريني، والمدرسة المصباحية التي أسسها أبو الحسن المريني، والمدرسة البوعانية التي بناها أبو عنان المريني^(٣٦).

(٣٤) محمد الحجوي، الجوامع والمدارس والزوايا والخزانات التي ازدهرت بمال الوقف في المغرب، مرجع سابق، ص ١٠٢.

(٣٥) محمد الحجوي، الوقف الخيري في المغرب قديماً وحديثاً وأثره الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، مرجع سابق، ص ٩٧.

(٣٦) محمد الحجوي، الوقف الخيري في المغرب قديماً وحديثاً وأثره الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، مرجع سابق، ص ٩٧.

(٤, ٣, ٣) المدرسة النورية الكبرى

عرفت بلاد الشام المدارس في وقت مبكر؛ فقد بنى شجاع الدين والدولة صادر بن عبد الله أولى مدارس دمشق للأحناف سنة ٤٩١ هـ، كما أنشأ أتابك العسكر أمين الدولة كستكين مدرسة للشافعية سنة ٥١٤ هـ سماها الأمينية وهي أول مدرسة أنشئت للشافعية^(٣٧). وقد كثرت المدارس في بلاد الشام مع كثرة الأوقاف حتى عد الدمشقي في كتابه "الدارس في تاريخ المدارس" ما يربو على مائتي مدرسة ما بين دور للقرآن الكريم والحديث الشريف ومدارس لكل مذهب من المذاهب الأربعة^(٣٨).

أما عن المدرسة النورية بدمشق، فقد أنشأها نور الدين محمود زنكي سنة ٥٦٣ هـ، (الشكل رقم ٣، ١)، وهي في حي الخياطين بدمشق، في الجنوب الغربي بالنسبة للجامع الأموي، وتبعد عنه بما يقرب من نصف ميل^(٣٩). وقد كتب نور الدين وثيقة وقف هذه المدرسة في إبريل سنة ١١٧٢ م، وكانت لتدريس المذهبين الحنفي والشافعي. وبجانب الإيوانات الأربعة التي كانت تحتوي عليها المدرسة، كانت تحتوي أيضاً على مساجد للطلبة على طابقين^(٤٠). وكانت مثلاً لهندسة المدارس في عصور الحضارة الإسلامية الأولى. وقد زارها الرحالة ابن جبير في أوائل القرن السابع الهجري، فأعجب بها وكتب عنها: "من أحسن مدارس الدنيا مظهرًا مدرسة نور الدين رحمه الله، وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيها الماء في شاذورات وسط

(٣٧) المرجع السابق، ص ١٦١.

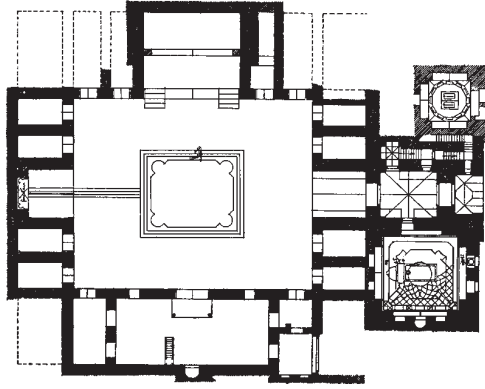
(٣٨) للمزيد من المعلومات حول هذا العدد الكبير من مدارس بلاد الشام، انظر: الدمشقي، عبد القادر بن محمد النعمي، الدارس في تاريخ المدارس، الجزء الأول والثاني، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠ م.

(٣٩) سعيد إسماعيل علي، معاهد التعليم الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٦١ - ١٦٢.

(٤٠) Hoag, J. D., Islamic Architecture (op. cit.), p.214.

نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر"^(٤١).

وكانت المدرسة تتكون من مجموعة من العناصر أهمها؛ الإيوان وكان متسعاً حتى يمكن لأكبر عدد من الطلاب أن يتلقوا دروسهم به، والمسجد، واستراحة خاصة تتكون من حجرتين لراحة المدرسين، ومساكن للطلاب، ومسكن خاص لمن يقوم بمهمة الخدمة داخل المدرسة، ودورة مياه، ومطبخ وقاعة الطعام، ومخزن للبقول ومواد الطعام المختلفة، ومخزن عام للأدوات والأجهزة والمعدات التي كانت تحتاج إليها المدرسة^(٤٢).



الشكل رقم (١، ٣). المدرسة النورية الكبرى بدمشق^(٤٣).

وقد كثرت الأوقاف على تلك المدرسة، كما كان مثبتاً على باب المدرسة وهي: جميع الحمام المستجد بسوق القمح، والحمامان المستجدان بالوراقة خارج باب السلامة، والدار المجاورة لهما، والوراقة بعونية الحمى، وجنيئة الوزير، والنصف

(٤١) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٤٢) سعيد إسماعيل علي، معاهد التعليم الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(٤٣) Hoag, J. D., Islamic Architecture (op. cit.), p.216.

والربع من بستان الجوزة بالأرزة، والأحد عشر حانوتاً خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لهما من الشرق، والتسعة حقول بداريا^(٤٤).

(٣, ٣, ٥) المدرسة الفاضلية

قال عنها المقرئزي: "هذه المدرسة بدرب ملوخيا من القاهرة، بناها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني بجوار داره في سنة ٥٨٠هـ، ووقفها على طائفتي الفقهاء الشافعية والمالكية، وجعل فيها قاعة للقراءة، قرأ فيها الإمام أبو محمد الشاطبي ناظم الشاطبية ثم تلميذه القرطبي، ووقف بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم يقال إنها كانت مائة ألف مجلد"^(٤٥).

(٣, ٣, ٦) المدرسة الأكرية

بناها أكر حاجب نور الدين محمود، بدمشق، وهي غربي الطيبة والتنكزية وشرقي أم الصالح، وقد رسم على عتبة بابها ما صورته بعد البسملة "وقف هذه المدرسة على أصحاب الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمته الله الأمير أسد الدين أكر في ست وثمانين وخمسائة، وتمت عمارتها أيام الملك الناصر صلاح الدين والدنيا، ومنقذ البيت المقدس من أيدي المشركين، أبي المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين، الدكان التي شرقيها وقف عليها، والثلث من طاحون اللوان، سنة سبع وثمانين وخمسائة"^(٤٦).

(٣, ٣, ٧) المدرسة الأفضلية

كان بالقدس الشريف مدارس وقفية كثيرة أوقفها أفراد من مختلف الطبقات، وقد بلغ عدد المدارس في بيت المقدس في القرن ٥-١٢ الهجري حوالي ٧٠ مدرسة

(٤٤) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٣٧.

(٤٥) علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، الجزء السادس، مرجع سابق، ص ٣٠.

(٤٦) عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، الجزء الأول، ط ١، دار بيروت:

الكتب العلمية، ١٩٩٠م، ص ١٢٤.

كلها مدارس موقوفة تقدم التعليم مجاناً من ريع أوقافها بالإضافة إلى مرتبات ومخصصات للطلاب^(٤٧). وبشكل عام، كثرت وانتشرت الأوقاف على النواحي التعليمية في فلسطين؛ مما جعل بيت المقدس من أهم المراكز التعليمية آنذاك.

ومن بين هذه المدارس: المدرسة الأفضلية، وقد وقفها الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي بن صلاح الدين حوالي سنة ٥٩٠ هـ على فقهاء المالكية، وظلت هذه المدرسة قائمة إلى القرن الثاني عشر الهجري. ومنها المدرسة الأشرفية، وتعد أفخم مدارس القدس بناءً، وقفها الملك الأشرف قايتباي بين سنتي ٨٨٥ و ٨٨٧ هـ^(٤٨).

(٣، ٣، ٨) المدرسة العادلية الكبرى

شرع في إنشاء هذه المدرسة نور الدين زنكي، بدمشق، وأراد أن تكون على غط المدرسة النورية، إلا أنه توفي قبل أن يتم بناءها، فأكمل بناءها الملك عيسى عام ٦١٩ هـ/ ١٢٢٢ م، وكانت هذه المدرسة موقوفة على المذهب الشافعي. وتشابه في التصميم المعماري مع غط المدارس المعروف، من حيث احتواؤها على فناء أوسط يحيط به مجموعة من الغرف والحجرات والقاعات التي خصصت لأغراض مختلفة ومتنوعة^(٤٩).

(٣، ٣، ٩) المدرسة الكاملية

أسسها السلطان الملك الكامل نصر الدين محمد عام ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م، وكانت في موضع ذكره المقرئ بقوله "بخط بين القصرين من القاهرة في سوق للرقيق وظلت زاهرة حتى سنة ٨٠٦ هـ/ ١٤٠٣ م فتلاشت كما تلاشى غيرها". وعن عمارتها فإنها كانت على طابقين، وتوزع فيها الغرف على جانبي الفناء الأوسط^(٥٠).

(٤٧) عبد الرحمن الضحيان، الأوقاف ودورها في تشييد بنية الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤٩١.
(٤٨) يحيى محمود بن جنيد الساعاتي، الوقف والمجتمع نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص ٢٨.

(٤٩) كامل حيدر، "العمارة العربية الإسلامية"، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي، مرجع سابق، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٥٠) كامل حيدر، "العمارة العربية الإسلامية"، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي، مرجع سابق، ص ١١١ - ١١٣.

(٣,٣,١٠) المدرسة الصالحية

شيدها الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، وكانت أشبه بجامعة كبرى ، ذات كليات أربع تختص كل واحدة منها بمذهب من المذاهب الأربعة المعروفة. وفي العصر المملوكي اهتم بشأنها الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ابن الظاهر بيبرس ، وأضاف إليها أوقافاً جديدة بنواحي متعددة منها أماكن بالقاهرة والمحلة بالعربية وبالجزيرة ، ورتب لها أربعة من المدرسين لكل مدرس معيدان وعدة طلبة ، وعين له جميع ما يحتاج إليه من خدام وأئمة ومؤذنين وذلك في سنة ٦٧٧هـ^(٥١).

وقد مد الواقفون في مصر المدارس المتوسطة والعالية بوجبات يومية ومنح وعطايا ، بجانب تقديم الدعم المالي لاستكمال الدراسة والتخرج. كما أن أنظمة هذه المدارس كانت تدمج الإسلاميات مع التعليم الحديث ، حيث كانت الإسلاميات والدراسات العربية تقدم جنباً إلى جنب مع العلوم والحساب والدراسات الاجتماعية^(٥٢).

(٣,٣,١١) مدرسة السلطان حسن

أنشأها الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ، في الفترة من عام ١٣٥٦ - ١٣٥٩ م ، (الشكل رقم ٣,٢) ، كانت المدرسة للمذاهب الأربعة ، وكل مدرسة في إيوان وملحق بها بعض الفراغات الخاصة بالدراسة^(٥٣).

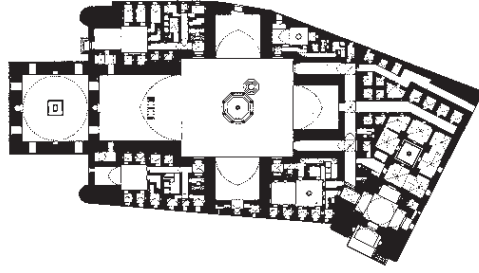
وقد قال عنها القلقشندي "وبنيت تحت القلعة ، وهي لم يسبق إلى مثلها ، ولا سمع في مصر من الأمصار بنظيرها ، ويقال إن إيوانها يزيد في القدر على إيوان كسرى بأذرع"^(٥٤).

(٥١) سعيد إسماعيل علي ، معاهد التعليم الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ١٦٦ - ١٦٧

(٥٢) Khafagy, R. A., *Beyond Politics: Roles of Islamic Endowments in Resisting Colonialism in Egypt* (1882- 1952), *Awqaf*, No. 13, Year 7, Kuwait Awqaf Public Foundation, Kuwait, November 2007, p.19

(٥٣) Hoag, J. D., *Islamic Architecture*, Harry N. Abrams, Inc., Publishers, New York, 1977, p.169

(٥٤) أحمد بن علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج ٣ ، مرجع سابق ، ص ٤١٥ .

المدرسة من الخارج^(٥٦)مسقط أفقي^(٥٥)

الشكل رقم (٢، ٣). مدرسة السلطان حسن بالقاهرة.

وبدا البناء في هذه المدرسة سنة ٧٥٧هـ، وذكر الطواشي مقبل الشامي أن السلطان حسن قال في كثرة النفقة التي أنفقت عليها: "لولا أن يقال أن ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه لترك بناء هذا الجامع من كثرة ما صرفت عليه". كما وصفها المقرئ بقوله: "فلا يعرف في بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحاكي هذا الجامع وقبته التي لم يبن بديار مصر والشام والعراق واليمن مثلها"^(٥٧). ويعد هذا المبنى من أكثر مساجد مصر فخامة وأحسنها شكلاً، وأجمعها لمحاسن العمارة، وأدلهها على عظم الهمة وغاية العناية التي بذلت في إنشائه، وهو ذو شكل كثير الأضلاع، يبلغ متوسط طوله ١٥٠ م، وعرضه ٦٨ م، ومساحته حوالي ٢٧٩٠٦ م^٢، وارتفاع مدخله

(٥٥) عبد القادر الريحاوي، *العمارة في الحضارة الإسلامية*، جدة: مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، ١٩٩٠ م.

(٥٦) <http://www.sis.gov.eg/Ar/Arts&Culture/Archaeology/islamic/>

(٥٧) سعيد إسماعيل علي، *معاهد التعليم الإسلامي*، مرج سابق، ص ١٦٨.

٣٧٠م^(٥٨)، ورغم عدم انتظام قطعة الأرض التي عليها مبنى المسجد والمدرسة، فقد نجح العماري في تنظيم عناصر المسقط الأفقي بشكل راعى فيه ترتيب الوظائف والعناصر، وتناسقها مع بعضها بصورة مبتكرة.

(٣،٣،١٢) مدرسة الملك المنصور غياث

هي مدرسة الملك المنصور غياث الدين أبي المظفر أعظم شاه صاحب بنجاله من بلاد الهند، أوقفت على الفقهاء من المذاهب الأربعة، وكان ابتداء عمارتها في رمضان سنة ٨١٣هـ، بمكة المكرمة، والفراغ من ذلك في جمادى الأولى سنة ٨١٤هـ، وفي المحرم من هذه السنة وقفت ودرست بها للمالكية، ولها وقف بالركباني أصيلتان، وأربع رجاب ماء. ومنها مدرسة أبي علي بن أبي زكري، وهو الموضع المعروف بأبي الطاهر العمري المؤذن، بقرب المدرسة المجاهدية، وتاريخ وقفها سنة ٦٣٥هـ...^(٥٩).

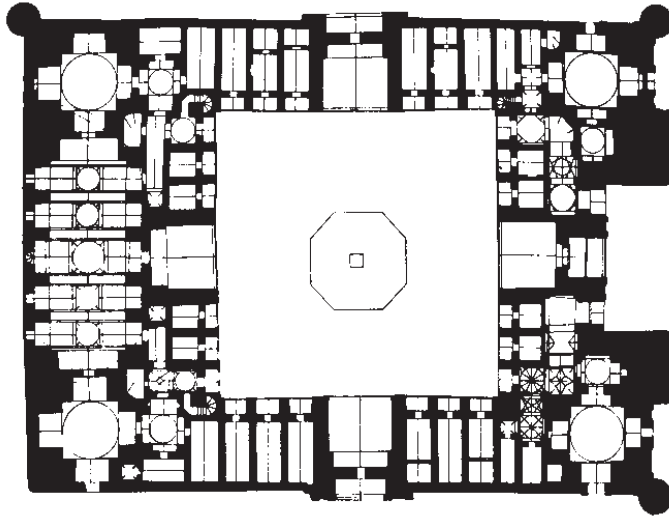
(٣،٣،١٣) مدرسة ميرزا ألغ بك

كانت مدرسة ميرزا ألغ بك من أشهر المدارس في سمرقند، (الشكل رقم ٣،٣)، وقد بنيت وأوقفت في الفترة من ٨١٩-٨٢٢هـ/١٤١٧-١٤٢٠م، وهي على نفس نمط المدارس المكونة من أربعة إيوانات، بجانب فراغات أخرى للتعليم، وكلها تحيط بفناء داخلي مكشوف^(٦٠).

(٥٨) محمود أحمد، دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة، القاهرة: المطبعة الأميرية ببولاق، ١٩٣٨م، ص ٣٦-٣٧.

(٥٩) تقي الدين أبو الطيب أحمد بن علي الحسيني الفاسي، تحقيق مصطفى محمد حسين، الزهور المتقطعة من تاريخ مكة المشرفة، ط ١، مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٩٩٧م، ص ١٢١، ١٢٢.

(٦٠) J. D., Hoag, Islamic Architecture (op. cit.), p.267.



الشكل رقم (٣,٣). مدرسة ميرزا ألغ بك بسمرقند^(٦١).

(٣,٣,١٤) مدرسة قايتباي

أنشأها وأوقفها السلطان قايتباي في الفترة ما بين ٨٧٦-٨٧٨هـ / ١٤٧٢-١٤٧٤م، وهي عبارة عن أربعة إيوانات مع أماكن لتعليم الطلبة، وسبيل أعلاه كتاب، كما احتوت المجموعة على مقبرة للسلطان. وتتحد هذه العناصر في وحدة معمارية واحدة تؤكد لها من الخارج المئذنة والقبة^(٦٢)، (الشكل رقم ٣,٤).

. Ibid, p.266(٦١)

. J. D., Hoag, Islamic Architecture (op. cit.), p.173 (٦٢)



الشكل رقم (٣، ٤). مدرسة قايتباي بالقاهرة^(٦٣).

(٣، ٣، ١٥) المدرسة المستنصرية

بناها المستنصر بالله أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي، ببغداد، (الشكل رقم ٣.٥)، وكانت تشتمل على دار للقرآن الكريم ودار للحديث بجانب أنها كانت مخصصة لتدريس المذاهب الأربعة^(٦٤). وكانت في الجانب الشرقي من بغداد على ضفة نهر دجلة، مما يلي دار الخلافة، آخر سوق الثلاثاء، وظلت هذه المدرسة عامرة بطلابها وأساتذتها حتى عام ٩٤٠هـ / ١٥٣٣ م، ثم انتابتها المحن فأصبحت حصناً، ثم ثكنة، ثم خاناً، فداراً للمكوس، فمخزناً للملابس الجنود فمسكناً لكتيبة من الجنود، ثم مخزناً للآثار والمخطوطات العربية^(٦٥).

(٦٣) S. B., Fletcher's, A History of Architecture, Nineteenth Edition, Butterworths, London, 1987, p. 371.

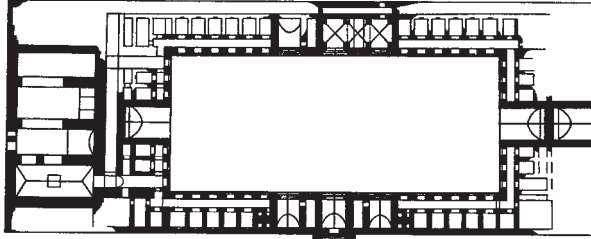
(٦٤) J. D., Hoag, Islamic Architecture (op. cit.), p.219.

(٦٥) كامل حيدر، "العمارة العربية الإسلامية"، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي،

مرجع سابق، ص ٢١.



الفناء الداخلي للمدرسة^(٦٦)



المسقط الأفقي^(٦٧)

الشكل رقم (٣،٥). المدرسة المستنصرية ببغداد.

أما عمارة المدرسة^(٦٨)، فهي تتألف من فناء أوسط مكشوف بأبعاد ٦١،٥ م طولاً و ٢٦ م عرضاً، يحيط به أربعة إيوانات، كل إيوان يستخدم كقاعة للتدريس لأحد المذاهب الأربعة، بجانب استخدام إيوان القبلة للصلاة^(٦٩)، ويعمل الفناء الداخلي على إدخال الضوء والهواء إلى سائر المرافق المحيطة به. وبجانب الإيوانات الأربعة

(٦٦) J. D., Hoag, Islamic Architecture (op. cit.), p.220.

(٦٧) صالح لمعي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق.

(٦٨) عن عمارة المدرسة ومرافقها المختلفة (أنظر بتوسع: كامل حيدر، "العمارة العربية الإسلامية"، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي، مرجع سابق، ص ص ٧٩-١٠٠).

(٦٩) J. D., Hoag, Islamic Architecture (op. cit.), p.219.

والدهليز الذي كانت تحتويه المدرسة ، كانت توجد مجموعة من الغرف الصغيرة والحجرات (كانت في الغالب سكن للطلاب والمعلمين) والقاعات^(٧٠). وقد كانت المدرسة على درجة عالية من الفن المعماري ، وبشكل خاص في داخل المدرسة ، كما يظهر في الفناء الداخلي لها.

وقال ابن كثير في "البداية والنهاية" في حوادث سنة ٦٣١هـ/ ١٢٤٣م: "فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد ، ولم يبن مدرسة قبلها مثلها. ووقفت على المذاهب الأربعة^(٧١) ، من كل طائفة اثنان وستون فقيهاً ، وأربعة معيدين ، ومدرس لكل مذهب ، وشيخ حديث ، وقارئان وعشرة مستمعين ، وشيخ طب ، وعشرة من المسلمين يشتغلون بالطب ، ومكتب للأيتام ، وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد ..."^(٧٢). وقد نالت تلك المدرسة مقداراً كبيراً من العناية والرعاية من قبل الخليفة العباسي ، لتظهر نموذج حرص الواقف على جعلها ذات أبعاد حضارية يصعب تطبيق نموذجها على الكليات والجامعات الحديثة ، فهي لم تكن مجرد مبنى بل تعدت ذلك إلى تحقيق الراحة والرفاهية ، وقبل ذلك العمق التعليمي للملتحقين بها^(٧٣). فقد كانت تشتمل على ما يمكن أن نسميه بالأقسام العلمية

(٧٠) كامل حيدر ، "العمارة العربية الإسلامية" ، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي ، مرجع سابق ، ص ٧٩.

(٧١) يقال أنها أول مدرسة جمعت فيها الدراسات الفقهية على المذاهب الإسلامية الأربعة؛ الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، والحنبلي (انظر: كامل حيدر ، "العمارة العربية الإسلامية" ، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي ، ط ١ ، مرجع سابق ، ص ٧٤).

(٧٢) مصطفى السباعي ، من روائع حضارتنا ، مرجع سابق ، ص ١٣٩.

(٧٣) يحيى محمود بن جنيد الساعاتي ، الوقف والمجتمع نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي ، مرجع سابق ، ص

المتخصصة، بمعنى أجزاء خصصت لعدد من الفروع العلمية المهمة، مثل دراسة القرآن، والمذاهب الأربعة، والطب، وغيرها^(٧٤).

كما كان في هذه المدرسة طبيب يقوم بفحص المرضى ووصف الأدوية من الصيدليات الخاصة في المدرسة^(٧٥)، ويبدو أن المستنصر بالله حين اشترط وجود الطبيب في المدرسة، إنما فعل ذلك بعد أن رأى أن أهل الذمة قد استولوا على مهنة الطب واستفحل أمرهم وأخذوا يفسدون هذا العلم بقصد الثراء، ويمكن الاستدلال على ذلك من المذكرة التفصيلية التي رفعها ابن فضلان مدرس المستنصرية إلى الخليفة الناصر لدين الله العباسي، ومما جاء فيها قوله "... ومنهم الأطباء أصحاب المكاسب الجزيلة بتردهم إلى منازل الأعيان وأرباب الأحوال ودخولهم على المتوجهين في الدولة. والناس يتحملون فيما يعطون الطبيب زائداً على القدر المستحق، وهو أمر من قبيل المروءات فلا ينفكون عن الخلع السنية، والدنانير الكثيرة، والطرف في المواسم، والفصول مع ما يخطئون في المعالجات ويفسدون الأمزجة والأبدان. ويخرج الصبي منهم ولم يقرأ غير عشر من مسائل حنين، وخمس مسائل من تذكرة الكحالين، وقد تقمص، ولبس العمامة الكبيرة، وجلس على مقاعد الأسواق، والشوارع على دكة حتى يعرف وبين يديه المكحلة والملحدان يؤدي هذا بدنه ويجرب على ذا في عينيه فيفتك من أول النهار إلى آخره، ويمضي آخر النهار ومكحلته مملوءة قراصة؛ فإذا عرف بقعوده على الدكة، وصار له الزبون قام يدور ويدخل الدور"^(٧٦).

(٧٤) سعيد إسماعيل علي، معاهد التعليم الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٤٩.

(٧٥) محمود الحاج قاسم محمد، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، مرجع سابق، ص ١١٣.

(٧٦) سعيد إسماعيل علي، معاهد التعليم الإسلامي، مرجع سابق، ص ٢٢٧.

(٣،٣،١٦) مدرسة الساقزلي

أنشأها أحمد بن إبراهيم الساقزلي أحد تجار آسيا الوسطى عام ١١٢٥هـ ملاصقة للسور السلطاني شمال الحرم النبوي الشريف بالقرب من دار الضيافة. وقد اشترى الواقف جملة عقارات وبيوتاً وجعلها في مبنى واحد مكون من خمس عشرة خلوة، خصص منها واحدة للمدرس، وأخرى لحفظ الكتب الموقوفة، وثلاثة للمهمات، ورابعة للبواب، وخامسة للملازم، والعشرة الباقية لسكنى الطلبة. يضاف إلى ذلك محلين للتدريس، وستة دكاكين، وبئر وبركة، وحنفية، وحمام، وسبيل عند باب المدرسة، وفي الطابق العلوي ثلاثة مجالس. وقد أوقف الواقف على المدرسة الكثير من العقارات أهمها: كامل حوش عميرة، وحديقة زمزم الكائنة ببستان النقا، والبيت المقابل للمدرسة المخصص سكناً للمدرس، وبيته الذي أنشأه في حوش بابين. ونصت الوقفية على أن يكون المدرس عالماً فاضلاً حنفياً ملماً بسائر العلوم المعقولات والمنقولات، واشترط أن يكون الطلبة من الأروام حنفاء المذهب، عزاباً لا يشربون الدخان وليسوا فساقاً، وأن يختاروا من بينهم شيخاً عليهم يجبي غلة الوقف، وأن يكون أهل المدرسة والمدرس ناظرين على الشيخ يتولون محاسبته وإخراجه إن حصلت منه خيانة. وخصص الواقف ربع ريع حديقة زمزم للناظر، وربع للمدرس، والنصف الباقي للطلبة والبواب والشيخ. كما وزع بيوت حوش عميرة لسكنى عتقائه. كما خصص من غلة الوقف لشراء ستة أراذب حنطة، وثلاثة أراذب شربة، وأن يطبخ لهم يومي الاثنين والخميس وجبة من الأرز. وخصص للمدرس والشيخ والناظر والطلاب وغيرهم راتباً سنوياً^(٧٧).

(٧٧) محمد بن عبد الرحمن الحصين، "دور الوقف في تأسيس المدارس والأربطة والمحافظة عليها في المدينة

المنورة"، مجلة جامعة الملك سعود، العمارة والتخطيط، م٩، الرياض، ١٩٩٧م، ص ٧٣-٨٣

(١٧، ٣، ٣) مدرسة بشير أغا

أسس هذه المدرسة بشير أغا عام ١١٥١هـ، في الركن الجنوبي الغربي للحرم النبوي الشريف، ملاصقة لباب السلام، ويتكون المبنى من طابقين يضمان عشرين غرفة. وقد اشترط الواقف أن يكون المدرس من ديار الروم، المفسر المحدث الفقيه، على أن يقوم بالتدريس خمسة أيام؛ يوم للتفسير، وآخر للحديث، وثلاثة أيام للفقهاء. كما اشترط أن يسكن في الغرف الطلاب الأروام الطهار غير المتزوجين، وخصص لكل طالب ثلاثة جنيهاً سنوياً إضافة إلى المخصصات الشهرية. وعين الواقف شيخ الحرم النبوي كائناً من كان على نظارة المدرسة والسبيل والدوايق، ويتصرف مقابل ذلك بعشرة جنيهاً، ويعطى أربعين جنيهاً لسقات العشرة دوايق المرتبة بالحرم النبوي الشريف. كما اشترط على الطلاب العشرين الساكنين بالدار قراءة القرآن كل ليلة جمعة في العشرين جزءاً التي وضعها الواقف، ويهدون ثوابها لروحه. كما تضمنت الوقفية مقدار ما يصرف من غلة الوقف على المواد التموينية من رز وسمن وعسل، وغيرها من مستلزمات لطبخ وجبة كل ليلة جمعة من مطبخ الدار. كما اشتملت على طريقة صرف المبالغ المعينة للمدرس والطلاب والخدم والمواد التموينية، والدوايق بحيث تسلم لأمناء الصرة، وهم بدورهم يسلمونها لمدرس دار الحديث بمعرفة قاضي المدينة وشيخ الحرم النبوي الشريف. كما تشير وثائق دار الوثائق القومية بالقاهرة إلى أنه كانت هناك أوقاف للمدرسة، فقد احتيج عام ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م لمبلغ خمسين ألف قرش لترميم المدرسة وكان رد محمد علي آنذاك أن تتم مخاطبة إستنابول بهذا الشأن^(٧٨).

(٧٨) محمد بن عبد الرحمن الحصين، "دور الوقف في تأسيس المدارس والأربطة والمحافظة عليها في المدينة

المنورة"، مجلة جامعة الملك سعود، العمارة والتخطيط، م٩، الرياض، ١٩٩٧م، ص ٧٣-٨٣.

(٣, ٣, ١٨) المدرسة الحميدية

أنشأها السلطان عبد الحميد الأول، ولا يعرف بالتحديد تاريخ إنشائها، لكنه يقع في فترة حكم السلطان عبد الحميد ما بين عامي ١١٨٧ - ١٢٠٣هـ. تقع هذه المدرسة في آخر حارة الساحة من جهة الحرم النبوي الشريف، أمام زقاق كومة حشيفة، عند حارة الخرازة. يتكون مبنى المدرسة من فناء واسع به أشجار تحيط به ما يقارب عشرين غرفة. وللمدرسة مدخلان أحدهما هو الرئيس يقع تحت السقيفة التي على طريق الساحة، والآخر يقع على طريق متفرع من طريق الساحة، وليس للمدرسة أي واجهة على هذين الطريقين^(٧٩).

(٣, ٣, ١٩) المدرسة المحمودية

جدها السلطان محمود خان عام ١٢٣٧هـ، بالمدينة المنورة، حيث كانت تحتل مكان المدرسة الأشرفية التي أنشأها الأشرف قايتباي عام ٨٨٨هـ، ثم تحول المبنى إلى محكمة وبعد فترة تهدم. وجدها السلطان محمود وأضاف لها رباط البساطية، وبنى بجوارها داراً للناظر، ثم جدها السلطان عبد العزيز عام ١٢٨٧هـ. تقع المدرسة ملاصقة للحرم النبوي الشريف بجوار باب السلام، ولها نوافذ تفتح على الحرم. وقد وصف علي بن موسى هذه المدرسة بأنها من أعظم مدارس المدينة المنورة، وأن بها نحو الأربعين غرفة، إضافة إلى سكن المدرس، وحديقة صغيرة في فناء متوسط، وميضأة في الجهة الغربية. وقد أوقف على المدرسة العديد من الأوقاف؛ منها وقف نصف أبنية، وأنقاض البيت الكائن بجوش التاجوري العائد إلى محمد أمين مصطفى عام ١٣١١هـ، على ساكني المدرسة بالسوية. ونصت الوقفية على احتواء المدرسة على ٢٣ غرفة،

(٧٩) الحصين، محمد بن عبد الرحمن، "دور الوقف في تأسيس المدارس والأربطة والمحافظة عليها في المدينة

المنورة"، مجلة جامعة الملك سعود، العمارة والتخطيط، م ٩، الرياض، ١٩٩٧م، ص ٧٣ - ٨٣.

ومحل للتدريس ، وآخر للكتب ، إضافة إلى المرافق ، كما نصت الوقفية على أن يكون النظر لمدرس المدرسة ويتقاضى عشر غلة الوقف^(٨٠).

(٣,٣,٢٠) مدارس علي باشا

بنى أهل البر في تونس مدارس كثيرة انتشرت في كامل البلاد ، حتى في الأماكن النائية ، وأوقفوا عليها أوقافاً عديدة. ومن بنوا المدارس علي باشا ، فكانت له مدارس كثيرة أوقف عليها أملاكاً شاسعة ، وكان يشرف على المدرسة شيخ ، وكثيراً ما يكون من ذوي المكانة العلمية عند وجود المدرسة في العاصمة أو في إحدى المدن الكبرى^(٨١).

(٣,٣,٢١) مدرسة خسرو بك

أنشأ خسرو بك مدرسة في سراييفو من أموال الوقف ، وأوقف عليها وقفيات عديدة. وقد كانت هذه المدرسة أشهر مدرسة في البوسنة ، ومن أشهر مدارس البلقان ، وتعد من المدارس النادرة التي استمرت في أداء دورها طيلة العهد العثماني ١٥٣٧ - ١٨٧٨ م والعهد النمساوي/المجري ١٨٧٨ - ١٩١٨ م والعهد اليوغسلافي ١٩١٨ - ١٩٩١ م وصولاً إلى اليوم. وقد أوقف خسرو بك من أجل هذه المدرسة ٤٠٠ درهم فضي أو أقبجة لبناء المدرسة التي أرادها أن تكون على نمط "مدارس الوزراء والأمرأ" في إستنبول. وقد أشار في الوقفية إلى ضرورة بناء ١٢ غرفة تخصص لسكن الطلبة وخصوصاً من هم من خارج سراييفو ، مع اشتراطه ألا يكونوا من "الفواسق من الجهلة". كما حدد المواد التي تدرس في المدرسة وهي ؛ التفسير ، والحديث ، والأحكام ، والأصول ، والمعاني ، والبيان ، والكلام ، كما أنه ترك الباب مفتوحاً للمستقبل لإضافة مواد أخرى "حسب ما يقتضيه العرف والمقام". وفيما يتعلق بالمدرس

(٨٠) محمد بن عبد الرحمن الحصين ، "دور الوقف في تأسيس المدارس والأربطة والحفاظة عليها في المدينة

المنورة" ، مجلة جامعة الملك سعود ، العمارة والتخطيط ، م ٩٠ ، الرياض ، ١٩٩٧ م ، ص ٧٣ - ٨٣.

(٨١) أحمد قاسم ، "الوقف في تونس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر" ، بحث منشور في كتاب الوقف في

العالم الإسلامي ، دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٩٥ م ، ص ٣٧.

الذي يتولى تدريس هذه المواد فقد اشترط الواقف أن يكون "جامعاً للفروع والأصول، حاذقاً للمعقول والمنقول" وأن يكون عالماً حتى "يفتي الأنام فيما يستفتونه من المسائل الشرعية بأقوى المذاهب والأقوال". كما أكد الواقف على أهمية حضور الطلبة والأستاذ، حيث يورد في الشروط "لا يفوت دروسهم إلا بعذر شرعي ولا هم يفوتونه إلا بوجه مرعي فيه أيام التعطيل"^(٨٢).

(٣، ٤) المدارس الطبية

بجانب ما كانت عليه البيمارستانات من بيئة تعليمية صالحة (كما سيأتي بيانه في الفصل السادس من هذا الكتاب) لتعليم الطلاب أصول الطب وبشكل تطبيقي على المرضى^(٨٣)، فقد كانت هناك مدارس الطب الخاصة التي أنشأها ووقفها الواقفون. فقد وقف مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م داره التي بدمشق عند الصاغة العتيقة شرق سوق المناخلين، وجعلها مدرسة تتابع فيها من بعده دراسة الطب، ووقف لها ضياعاً وعدة أماكن ينفق من ريعها في مصالح المدرسة، وفي رواتب المدرس ورواتب المشتغلين بها، وأوصى بأن يكون المدرس فيها الحكيم شرف الدين علي بن الرحيبي، الذي استمر بها عدة سنين^(٨٤)، وكانت هذه المدرسة تسمى الدخوارية، كما كان هناك ثلاث مدارس أخرى هي: الدنيسرية، والربيعية، واللبودية^(٨٥).

(٨٢) محمد الأرناؤوط، وقفية مدرسة الغازي خسرو بك في سراييفو، مرجع سابق، ص ١١٣-١١٦.

(٨٣) سيأتي توضيح دور البيمارستانات كمراكز تعليم طبية في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

(٨٤) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، الأوقاف والرعاية الصحية، مرجع سابق، ص ١٤١.

(٨٥) كردعلي، محمد، خطط الشام، ج ٥، مرجع سابق، ص ١٠٠-١٠١.

وفي عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م كان علم الطب من العلوم التي تدرس بالمستنصرية في بناية خاصة مقابل الباب الرئيسي للمدرسة المستنصرية^(٨٦).

كما كان لا يسمح للأطباء بممارسة مهنة الطب إلا بعد أن يؤدي الطبيب امتحاناً أمام كبير أطباء الدولة^(٨٧)، وكان هذا الامتحان في صورة دراسة علمية في موضوع طبي، وقد تكون هذه الدراسة من تأليفه أو من تأليف أحد كبار علماء الطب ولكن عليها دراسات وشروح، فيمتحنه فيها، فإن أحسن الإجابة أجازه كبير الأطباء بما يسمح له بمزاولة مهنة الطب. ويروى أنه قد حدث سنة ٣١٩هـ في أيام الخليفة المقتدر خطأ في علاج رجل فمات، فأمر الخليفة أن يمتحن جميع الأطباء في بغداد من جديد^(٨٨)، وكان عددهم في بغداد وحدها ثمانمائة طبيب ونيفاً وستين طبيباً، هذا عدا من لم يمتحنوا من مشاهير الأطباء، وعدا أطباء الخليفة والوزراء والأمراء^(٨٩).

ولم تكن هناك مدة محددة للدراسة في المدارس الطبية؛ لأنه لم يكن هناك امتحان ونجاح يحدد انتقال الطالب من سنة إلى أخرى، وإنما كانت فترات تقديرية لإقامة الطالب في المدرسة، يتمكن الطالب العادي خلالها من أن يحصل قدرًا لا بأس به من العلم في الفرع الذي يختص به وينال في نهايتها الإجازة العلمية التي يرغب فيها من الأساتذة الذين يدرس عندهم. وكان الطالب إذا طلب الإجازة تقدم لأستاذه برسالة من تأليفه أو من تأليف أحد الأطباء المتقدمين أو المعاصرين فيمتحنه فيها، وبما يتعلق بالطب بصورة عامة والفرع الممتحن فيه الطالب بصفة خاصة، فإذا ما اقتنع

(٨٦) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، *الأوقاف والرعاية الصحية*، مرجع سابق، ص ١٤١.

(٨٧) يشبه هذا النظام ما هو موجود الآن في الكثير من البلاد المتقدمة، والتي لا يتوقف التأهيل المهني لممارسة المهنة على الطب فقط من خلال الامتحانات اللازمة، بل أيضاً في بعض المهن الأخرى مثل مهنة الهندسة.

(٨٨) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، *الأوقاف والرعاية الصحية*، مرجع سابق، ص ١٣٠.

(٨٩) سعيد إسماعيل علي، *معاهد التعليم الإسلامي*، مرجع سابق، ص ٢٢١.

الأستاذ بأجوبته ومقدرته على ممارسة المهنة أخذ منه عهد أبقرط في الطب وأذن له بالعمل بإعطائه الإجازة، التي هي أشبه ما تكون بشهادة البكالوريوس في وقتنا الحاضر^(٩٠).

(٣, ٥) مدارس الفنون الجميلة

للووقف دور بارز في مجال الفنون الجميلة، ففي مصر، على سبيل المثال، ساهم الوقف في إنشاء المدارس المتخصصة في تعليم أصول الفنون الجميلة، التي نشأت مواكبة لحركة نشأة المدارس في القرن العشرين، وهو ما حدث بالفعل في عام ١٩٠٨م عندما أنشأ الأمير يوسف كمال - أحد أعضاء الأسرة المالكة في مصر قبل ثورة يوليو - أول مدرسة للفنون الجميلة في درب الجماميز بالقاهرة ووقفها، وأوقف عليها مساحة قدرها ١٢٧ فداناً من الأراضي الزراعية الواقعة بزمَام مديرية المنيا بصعيد مصر، وأوقف عليها أيضاً عدة عقارات بمدينة الإسكندرية، وقد نص في حجة وقفه على أن يصرف ريعها "فيما يلزم لتدريس وتعليم مائة وخمسين تلميذاً، يكون الثلثان منهم للمصريين، والثلث من الأجانب، بدون التفات إلى الجنسية والدين، ويكون تعليمهم مجاناً - بغير استثناء - العلوم العصرية التي منها الخطوط العربية، والنقوش البارزة، وأشغال العمارات، والتصميمات والرسومات وغير ذلك"، وقد أجازت محكمة مصر الشرعية الكبرى حجة وقف الأمير بما تضمنته من تلك الشروط الفنية، وذلك بتاريخ ١٤ جمادى أولى ١٣٢٧هـ - ٣ يونيو ١٩٠٩م. الأمر الذي يستفاد منه عدم وجود مانع شرعي للوقف على مثل تلك الأغراض - الفنون الجميلة وتعلمها - طبقاً لما ورد

(٩٠) محمود الحاج قاسم محمد، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، مرجع سابق، ص ص

بنص حجة الوقف بما في ذلك اشتراطه "أن يقوم بالتدريس مدرسون من فرنسا وإيطاليا، وأن تمنح ميدالية برونزية لكل من الطالب الأول والثاني من الناجحين بالفرقة النهائية، مكتوب على أحد وجهي الميدالية (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) وعلى الوجه الآخر (تذكار من الأمير يوسف كمال). ثم عاد الأمير وغير من شروط وقفه في سنة ١٩٢٧م، وجعل ريعها مخصصاً لإرسال بعثات علمية من المائة وخمسين طالباً ليتعلموا الفنون الجميلة في جامعات فرنسا وإيطاليا^(٩١).

(٣، ٦) التعليم المهني

اهتم الواقفون بالتعليم المهني بنفس درجة اهتمامهم بالتعليم العام، حيث كان منهم من أوقف على الحِرَف وتعلم الصناعات المختلفة، ولم يكن للتعليم المهني في أغلب الحالات مبان خاصة، بل كان يتم مباشرة في مواقع ممارسة الحرف والصناعات المختلفة.

ومن الأمثلة على ذلك، كانت مدرسة التعليم المهني في الجمع الرشيد بمدينة إيران، فقد أوصى رشيد الدين الهمداني المتولي على الوقف بأن يسمح للطلبة الموجودين في الربع باختيار ما يستهوي كلاً منهم من حرفة أو صناعة داخل الربع أو المؤسسات الأخرى الزراعية والمعامل وغيرها، وأن يوفر لهم الإمكانات اللازمة. وقد جاء في نص وثيقة الوقف "ليمض أبناء هؤلاء قدماً في تعلم صناعة أو مهنة توافق ظروفهم كالحِط أو الخطابة أو الرسم أو الصياغة أو البستنة، أو الزراعة أو العمارة

(٩١) إبراهيم البيومي غانم، دور الأوقاف في خدمة الآثار والفنون الجميلة، الإسلام وقضايا العصر،

وسائر الحرف الأخرى ، وذلك بإشراف المتولي وفيما يراه صالحاً ، ليتعلموا مهنة معينة ويكتسبوا لقمة العيش من خلالها والأفضل المضي في حرفة والديهم قدر الإمكان^(٩٢).

(٣،٧) الجامعات

مع تطور حضارة المسلمين وتنامي علومهم التطبيقية تطلب الأمر نمو المؤسسات التعليمية الوقفية ، فتحولت المدارس إلى جامعات ، خصوصاً في مراكز الحضارة الإسلامية في دمشق ، وبغداد ، ومصر ، ومكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وبلاد المغرب العربي.

وقد تطورت المدارس التعليمية في بعض المساجد الكبيرة إلى ما يشبه الجامعة حالياً ، مثل الأزهر الشريف ، وجامع القرويين وغيرهما. أما الجامعة بمفهومها المعاصر ؛ فقد اختلف المؤرخون حول أول مدرسة أخذت طابع الجامعة ؛ فمنهم من رجح المدرسة النظامية في بغداد التي أنشئت سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٧م وكان مدرستها الأول أبو إسحاق الشيرازي الشافعي ، ومنهم من رجح المدرسة المستنصرية التي أنشئت سنة ٦٣١هـ ، وكانت تدرس بها العلوم الشرعية والطبية. ثم توالى بعد ذلك المدارس التي كانت على غرار الجامعات الحالية ، فأنشأ نور الدين محمود زنكي سنة ٥٦٣هـ المدرسة النورية في الشام ، كما أنشأ الملك الناصر صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ المدرسة الناصرية ، وفي سنة ٦٤١هـ أقام الملك الصالح نجم الدين أيوب المدرسة الصالحية الوقفية وهي أول مدرسة تدرس المذاهب الأربعة ، كما شيد المنصور بن

(٩٢) حسين اميداني، مجمع الربيع الرشدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسية رائدة في الوقف، مرجع سابق،

قلاوون سنة ٦٨٣هـ المدرسة الناصرية التي كانت تدرس العلوم التطبيقية والطبية وأوقف عليها الكثير من الحوانيت والأطيان^(٩٣).

(١, ٧, ٣) الأزهر كجامعة علمية

إن الأزهر، وإن كان قد بدأ كغيره من المساجد لإقامة الشعائر الدينية، لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيه طلاب العلم مختلف العلوم والفنون. ففي صفر سنة ٣٦٥هـ (أكتوبر ٩٧٥م) في أواخر عهد المعز لدين الله، جلس قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان القيرواني بالجامع الأزهر، وقرأ مختصر أبيه في فقه آل البيت (فقه الشيعة) وهو المسمى بكتاب الاختصار، في جمع حافل من العلماء والكبراء، وأثبتت أسماء الحاضرين، فكانت هذه أول حلقة للدرس بالجامع الأزهر^(٩٤). وفي سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م أشار يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بالله الفاطمي بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية، فوافق الخليفة^(٩٥)، حيث استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلسه ويلازمونه، ويعقدون مجالسهم بالأزهر في كل يوم جمعة من بعد صلاة الجمعة حتى العصر، وكان عددهم سبعة وثلاثين فقيهاً ورئيسهم، ومنظم حلقتهم الفقيه أبو يعقوب قاضي الخندق، وكان جل حديثهم في الفقه وما إليه، ورتب لهم العزيز أرزاقاً وجرايات شهرية حسنة، وأنشأ لهم داراً للسكنى بجوار الأزهر، كما أجرى عليهم ابن كلس أرزاقاً من ماله الخاص. وكان هؤلاء الفقهاء أول فوج من الأساتذة الرسميين

(٩٣) سامي محمد الصلاحيات، دور الوقف في مجال التعليم والثقافة في المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة،

دولة ماليزيا المسلمة نموذجاً، مرجع سابق، ص ٧ - ٨.

(٩٤) محمد عبد الله عنان، تاريخ الجامع الأزهر، ط ٢، القاهرة: مؤسسة الخانجي، ١٩٥٨م، ص ٤١.

(٩٥) سعيد إسماعيل علي، الأزهر على مسرح السياسة المصرية، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٤م،

الذين عينوا بالجامع الأزهر، وبهذا يكون الأزهر قد بدأ العهد الجديد كمعهد علمي للدراسة المنظمة^(٩٦).

ولم يقف النشاط العلمي في الأزهر عند حد العلوم الدينية، بل اطرده تقدمه، وتنوعت موضوعاته، وكثرت فنونه وعلومه، حتى أصبح جامعة بمعنى الكلمة، بل أصبح مقصداً للعلماء المتبحرين والفلاسفة الممتازين؛ فكان من علمائه رجال القانون الشرعي، وكان منهم المؤرخون، والفلكيون، والنحويون^(٩٧).

وقد أسهم الأزهر في العهد الفاطمي بنصيب كبير في الحركة العلمية حيث كانت تعقد فيه حلقات لدراسة الدين، واللغة والأدب، والنحو، والمنطق، والفلك. ولما قامت الدولة الأيوبية على أنقاض الدولة الفاطمية أهمل شأن الأزهر وشجع الأمويون علماء الأزهر على تركه والتدريس في المدارس التي أسسوها كما أبطلت صلاة الجمعة فيه. لكن عاد الأزهر للانتعاش في العهد المملوكي، وعادت إليه مكانته العلمية. وقد أصاب الأزهر في العهد العثماني ما أصاب مصر كلها وغيرها من أقطار العالم العربي من ركود فكري وحضاري؛ إذ إن العثمانيين عمدوا إلى نقل أمهات الكتب الفريدة في مختلف العلوم إلى الأستانة، لكن على الرغم من ذلك فقد ظلت للأزهر مكانته في علوم الدين واللغة^(٩٨).

فهو مسجد تقام في أبيهائه حلقات للدراسة، تحيط به من جهاته المتعددة غرف لسكن الطلاب تسمى بالأروقة، يسكنها طلاب من كل بلد، فرواق للشاميين، ورواق للمغاربة، ورواق للأتراك، ورواق للسودانيين، وهكذا. وقد ظل طلاب الأزهر

(٩٦) محمد عبد الله عنان، تاريخ الجامع الأزهر، مرجع سابق، ص ٤٣ - ٤٤.

(٩٧) سعيد إسماعيل علي، معاهد التعليم الإسلامي، مرجع سابق، ص ١١٦.

(٩٨) شوقي عطالله الجمل، الأزهر ودوره السياسي والحضاري في أفريقيا، القاهرة: الهيئة المصرية العامة

للكتاب، ١٩٨٨م، ص ١٣ - ١٦.

فترات كبيرة يأخذون راتباً شهرياً مع دراستهم المجانية من ريع الأوقاف التي أوقفت على طلاب العلم بالأزهر^(٩٩).

وقد كانت الأروقة تسمى بأسماء بلاد الطلبة الذين يدرسون فيه، مثل رواق المغاربة، حيث نشأ في الغالب في وقت مبكر منذ منتصف القرن الثامن الهجري، أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، وكان يقوم أساساً على أوقاف المغاربة، وقد دعت إلى إنشائه حاجة الأسر المغربية الكثيرة التي كانت تعيش في مصر وتتردد عليها إلى تخصيص جناح للطلبة والمشايخ الذين يهتمون بدراسة المذهب المالكي (وهو المذهب الشائع لدى أهل المغرب). وكان هذا الرواق من أكثر أروقة الأزهر نشاطاً، كما كان من أكثرها ثراءً، بسبب كثرة الأوقاف التي كانت موقوفة عليه من جانب التجار المغاربة المقيمين في مصر، وفي مكتبة هذا الرواق كان ابن خلدون يقضي معظم وقته. وقد اهتم الملك الأشرف قايتباي بتجديد الرواق سنة ٨٨١هـ/١٤٧٦م، وقد احتفظت الدرابزينات الخشبية التي تفصل الرواق عن صحن الأزهر بنقوشها الأولى^(١٠٠).

وقد قدم الوقف دعماً لجامعة الأزهر في محورين مهمين هما: دعم الأساتذة، والطلاب، بجانب دعم تطور العملية التعليمية^(١٠١). ومن أشهر الأوقاف على التعليم في الأزهر أوقاف الخبز، وهي الأوقاف التي خصصت أجزاء منها تحديداً لصالح شراء وتوزيع الخبز على طلاب الأزهر، ومثال ذلك وقفية للسيدة جميلة هانم ووالدتها،

(٩٩) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٣٣.

(١٠٠) عبد الهادي التازي، "توظيف الوقف لخدمة السياسة الخارجية في المغرب"، بحث منشور في كتاب

الوقف في العالم الإسلامي، دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٩٥م، ص ٨١-٨٢.

(١٠١) R. A., Khafagy, Beyond Politics: Roles of Islamic Endowments in Resisting Colonialism in Egypt

(1882- 1952), (op. cit.), p.21.

ووقفية محمد بيك حمدي رئيس عموم تلغرافات شرق السودان وزوجته السيدة عديلة الحبشية (وقف مشترك) اللذين خصصا جزء من ريعها لهذا الغرض^(١٠٢).

كذلك كان للنساء دور في الوقف على العملية التعليمية بالأزهر الشريف، حيث أوقف بعضهن لصالح علماء وأروقة الأزهر بشكل عام، وخصصت هذه الأوقاف لمساعدة الطلاب والعلماء الفقراء من كافة الأروقة والمذاهب سواء في مصاريف الدراسة أو نفقات الإعاشة. وقد بلغت أوقاف النساء لصالح الأزهر ٤٨ وقفية بنسبة ٢٩,٤٤٪ من إجمالي الأوقاف الموقوفة لصالح الأزهر، بنسبة قدرها ٤٧,٤٥٪ من إجمالي إيرادات الأزهر السنوية حسب ميزانية سنة ٤٠ - ١٩٤١م. ومن الأمثلة على هذه الأوقاف؛ وقفية جميلة هانم ابنة الخديوي إسماعيل ووالداتها لصالح الطلاب الفقراء، ووقفية السيدة هانم التي خصصت نصف ريع خمسة أفدنة ليصرف على طلبة العلم بالأزهر على الدوام. كما أوقفت نساء أخريات لصالح مذاهب أو أروقة معينة، مثل وقفية السيدتين فاطمة علي حسين ونفيسة عبد الغني اللتين خصصتا ربع ريعها "للفقراء والمساكين من طلبة العلم الشريف بالجامع الأزهر برواق الصعايدة، على شرط أن يراعى الأحوج فالأحوج بأمانة الله ورسوله، وفقراء دشنا (بلدة في صعيد مصر) من طلبة العلم مقدمون على غيرهم". كما خصصت السيدة حنفية السلحدار مبلغ خمسين جنيهاً من وقفيتها "يصرف سنوياً لفقراء طلبة العلم على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بالجامع الأزهر بعد التحري عنهم من مشيخته"^(١٠٣).

(١٠٢) ريهام أحمد خفاجي، "أوقاف النساء: نماذج لمشاركة المرأة في النهضة الحضارية"، دراسة للحالة المصرية

في النصف الأول من القرن العشرين، مرجع سابق، ص ٣١

(١٠٣) المرجع السابق، ص ٣١ - ٣٣.

(٣,٧,٢) دار الحكمة بالقاهرة كجامعة علمية

سميت أيضاً بدار العلم، وقد أنشأها الحاكم بأمر الله، وافتتحت في ١٠ جمادى الآخرة ٣٩٥هـ، بعد أن فرشت وزخرفت، وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم بها القوامون والمناولون والفراشون^(١٠٤).

وكانت دار الحكمة في ظاهرها جامعة حرة علنية يلتحق بها من يشاء، ويدرس ما شاء من مختلف العلوم والفنون. واستطاعت في ظل الرعاية الرسمية أن تنمو بسرعة، ولم يمض سوى قليل حتى ازدهرت وسار ذكرها في الآفاق، وهرع إليها الطلاب من سائر الأقطار، وتبوأ مركز الزعامة في الدراسات العلمية والفقهية الممتازة في هذا العصر. وكانت تجذب الأنظار بمجدتها وروعها وتصنيف علومها، كما اجتذبت بهذه الشهرة بجانب أساليبها العلمية الخاصة كثيراً من أعلام المشرق^(١٠٥).

ولبت دار الحكمة مدى قرن تنافس الأزهر في مهمته العلمية، وتبوأ مكان السبق والزعامة في كثير من الأحيان، بيد أن عصر ازدهارها لم يطل، فقد اضطربت شؤون الخلافة الفاطمية، ومعها اضطربت شؤون كثير من مرافق الدولة، التي كان منها دار الحكمة، فحدث فتور في نشاطها منذ منتصف القرن الخامس الهجري، وفقدت كثيراً من أهميتها أيام الخليفة المستنصر بالله، ومازال أمرها في انحلال حتى انتهى أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه بإبطالها وإغلاقها في أوائل القرن السادس الهجري أيام الخليفة الأمر بأحكام الله، ثم أعادها المأمون البطائحي وزير الأمر بأحكام الله سنة ٥١٧هـ على نمط جديد روعي فيه تخفيف صبغتها المنهجية، ولكنها في عودتها لم تكن

(١٠٤) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٦٥.

(١٠٥) محمد عبد الله عنان، تاريخ الجامع الأزهر، مرجع سابق، ص ٥٣ - ٥٥.

في نفس المكانة التي كانت عليها سابقاً، واستمرت حوالي نصف قرن حتى نهاية الدولة الفاطمية^(١٠٦).

(٣, ٧, ٣) جامع القرويين كجامعة علمية

تعد جامعة القرويين من أقدم جامعات العالم بعد الأزهر، حيث إن جامع القرويين لم يتحول إلى جامعة لتدريس العلوم إلا سنة ٥٣٨هـ، أما الأزهر فقد هيئ لتدريس الفقه والعلوم في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري^(١٠٧).

وسرعان ما أصبح هذا الجامع يجمع بين العبادة التي أسس من أجلها، وبين التعليم والتكوين العلمي، ليصبح دار فقه وعلم، ينشر المعرفة والفكر والثقافة ويحافظ على علوم القرآن والحديث واللغة وتراث الفكر الإسلامي، بل أصبح المغرب بفضل هذه الجامعة القلعة المحفوظة على العقيدة في صفائها واعتدالها. وأصبح كذلك ملتقى العلماء من داخل المغرب وخارجه وبخاصة علماء الشرق والأندلس. وكان العلماء يفتخرون بتكوينهم في هذه الجامعة العريقة، وبلقاء علمائها وفقهائها، وبذلك كانت على مدى قرون عديدة المؤسسة العلمية والفكرية التي تمد المغرب والشرق والأندلس وإفريقية بخيرة العلماء والقضاة ورجال الإدارة والسياسة والفكر، بل وبالمجاهدين الشرفاء الأحرار الذين حموا الثغور الإسلامية، وحافظوا على وحدة البلاد^(١٠٨).

ولم تقتصر رسالة التعليم في جامع القيروان على العلوم الدينية والشرعية، بل كانت العلوم اللغوية والعقلية حاضرة في حلقات الدرس؛ مما جعل الطلاب يقصدونه من المشرق والأندلس، فامتد إشعاعه الديني والثقافي والفكري على العالم الإسلامي

(١٠٦) المرجع السابق، ص ٥٨.

(١٠٧) محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر في ألف عام، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

(١٠٨) محمد الحجوي، الجوامع والمدارس والزوايا والخزانات التي ازدهرت بمال الوقف في المغرب، مرجع

سابق، ص ٩٦ - ٩٧.

والغربي^(١٠٩). فقد كان تفسير القرآن والحديث يلقتان بعد صلاة الفجر، والفقه والقضاء بعد طلوع الصبح، والنحو والبلاغة بعد صلاة الظهر، والنصوص الأدبية ودواوين الشعر والطب والهندسة بعد صلاة المغرب^(١١٠).

وقد قامت هذه الجامعة بهذا الدور الحضاري والتعليمي بتوفيق الله للواقفين على هذا الجامع من مال الوقف الخيري، بجانب الرعاية التي نالها الجامع من ملوك المغرب في مختلف العصور. وكانت العقارات المحبسة على هذه المؤسسة تنفق على الأساتذة والطلبة والقائمين على صيانة الجامعة، وتجهيزها وإنارتها والمحافظة على ممتلكاتها. وكانت تلك العقارات متنوعة من أرض زراعية مغروسة بأشجار النخيل والفاكهة، ومنازل للسكن، وفنادق، وحوانيت، وأفران، حتى قيل: "إن معظم أملاك مدينة فاس وضواحيها كان موقوفاً على الجامعة"^(١١١).

(٣, ٧, ٤) الجامعة المصرية - جامعة القاهرة حالياً

جاء في كتاب تاريخ جامعة القاهرة لمؤلفه الدكتور رءوف عباس، أن الشيخ محمد عبده كان معنياً بإقامة جامعة، ورأى أن إقامة الجامعة يجب أن تكون بجهود الأغنياء، وقد استطاع إقناع المنشاوي باشا بالفكرة، إلا أن وفاة المنشاوي ومن بعده محمد عبده وأدت الفكرة. ثم تحمس مصطفى كامل لها واستطاع جذب المستنيرين من أسرة محمد علي لدعم المشروع مالياً وسياسياً، كي يكونوا أسوة لغيرهم من الأغنياء، وبالفعل دعم الأمير حيدر فاضل دعوة

(١٠٩) محمد الحجوي، الوقف الخيري في المغرب قديماً وحديثاً وأثره الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، مرجع سابق، ص ٩٦.

(١١٠) محمد الحجوي، الجوامع والمدارس والزوايا والخزانات التي ازدهرت بمال الوقف في المغرب، مرجع سابق، ص ص ٩٧ - ٩٨.

(١١١) المرجع السابق، ص ص ٩٨ - ٩٩.

مصطفى كامل وتبعه بعض الأعيان في الاكتتاب للمشروع، ولكن سرعان ما فترت الهمم لتجاهل الخديوي للمشروع^(١١٢).

ثم اجتذبت فكرة إنشاء الجامعة انتباه عدد من كبار الملاك، كان على رأسهم مصطفى بك كامل الغمراوي، الذي اقترح إنشاء الجامعة في أكتوبر سنة ١٩٠٦م، وافتتح الاكتتاب لها بمبلغ ٥٠٠ جنيه. وعلى أثر ذلك انعقد اجتماع في منزل سعد زغلول واكتتب الحاضرون بمبلغ ٤٥٨٥ جنيهًا، ثم اجتمعت جمعية المكتتبين مرة أخرى في "ديوان عموم الأوقاف" يوم ٢٠/٥/١٩٠٨م برئاسة الأمير أحمد فؤاد وسميت "الجامعة المصرية"، وقررت لها الحكومة المصرية إعانة سنوية قدرها ٢٠٠٠ جنيه، كما قرر لها ديوان عموم الأوقاف إعانة سنوية قدرها ٥٠٠٠ جنيه بتوجيه من الخديوي عباس^(١١٣).

وقد كانت هذه الجامعة تعمل بالتوازي مع جامعة الأزهر، فبينما خصصت الأولى في ذلك الوقت للدراسات الإسلامية، كانت الثانية تقدم العلوم التطبيقية مثل الطب والهندسة^(١١٤). وقد لعب الوقف دوراً كبيراً في نشأة هذه الجامعة وفي قيامها بوظيفتها، فمن الأوقاف ما خصصت للبناء، ومنها ما خصصت لعملية التعليم،

(١١٢) جابر عصفور، "معنى الجامعة"، مجلة العربي العدد ٤٥١، الكويت: وزارة الإعلام، يونيو ١٩٩٦م، ص ٧٠.

(١١٣) إبراهيم البيومي غانم، الأوقاف والسياسة في مصر، ط ١، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨م، ص ٢٦٣-٢٦٤.

(١١٤) تجدر الإشارة إلى أن جامعة الأزهر في الوقت الحالي تدرس فيها العلوم الطبية مثل الطب والصيدلة وطب الأسنان، كما تدرس فيها العلوم الهندسية المتمثلة في كلية الهندسة، وذلك في كليات متخصصة بهذه العلوم تابعة للجامعة، وهذه الكليات تدرس العلوم الدينية الإسلامية بجانب هذه العلوم التطبيقية المتخصصة.

ومنها ما خصصت لإرسال طلاب متميزين لاستكمال دراستهم العليا في الجامعات الأجنبية^(١١٥).

وتعد وقفية الأميرة فاطمة ابنة إسماعيل من أهم الوقفيات التي ساهمت في نشأة الجامعة المصرية^(١١٦)، حيث أوقفت مساحة قدرها ٦٧٤ فداناً من الأطيان الزراعية بمديرية الدقهلية ليصرف ريعها على الجامعة، إضافة إلى ستة أفدنة ببولاق الدكرور تبرعت بها لبناء دار الجامعة - في مقرها الحالي - كما قدمت مجوهرات قيمتها ١٨ ألف جنيه (حسب أسعار سنة ١٩١٣ م) ليقام بها البناء. وقد عبرت وقفية الأميرة فاطمة عن الرغبة الوطنية في توفير التعليم العالي بالبلاد عن طريق "الجامعة المصرية"، وعن طريق "البعثات العلمية" إلى الخارج أيضاً، بشرط العودة والعمل في الجامعة المصرية، واشترطت أن يصرف ريع وقفيتها المذكورة سنوياً على النحو التالي: "في تعليم أولاد المسلمين العلوم والفنون والصناعات الراقية، النافعة للقطر المصري، الموجبة لترقي الأمة المصرية لدرجات الفلاح والنجاح، حتى تساوي الأمم الراقية من الأمم الأجنبية. وفي ثمن أدوات تعليم، وكتب، وورق، ونحو ذلك ..، وفي إرسال أربعة من حاملي شهادة البكالوريا بشرط أن يؤخذ الأول فالأول منهم من أولاد المسلمين للمدارس العالية بالبلاد الأجنبية، لتعليمهم العلوم والصناعات العالية، ودفع ما يلزم لهم من المأكل والمشرب والكسوة والسكن وغير ذلك ..، وكل من تمّ دراسته، واستحصل على الشهادة النهائية بالعلم الذي أرسل من أجله، وجب عليه أن يُعلّم بالجامعة المصرية مدة خمس سنوات بالمهنية التي تقرر لها الجامعة، ولا يسوغ له مجال

(١١٥) R. A., Khafagy, Beyond Politics: Roles of Islamic Endowments in Resisting Colonialism in Egypt (1882- 1952), (op. cit.), p.20.

(١١٦) فاطمة السباعي، أميرة في خدمة الشعب، القاهرة: مجلة الأهرام الاقتصادي، العدد ١٥٦٠، ١٩٩٨ م،

من الأحوال الامتناع عن إعطاء الدروس بالجامعة المدة المذكورة إلا إذا قام به مانع قهري .. أما إذا لم يكن به مانع .. وامتنع .. ، فيكون حينئذ ملزماً بدفع كافة ما صُرف عليه من وقت سفره ليوم امتناعه^(١١٧) ، على أنه من باب الاحتياط يجب على رئيس الجامعة وأعضائها أن يتحصلوا من كل واحد من التلامذة - قبل إرساله - على تعهد منه بخظه وإمضائه ، بأنه ملزوم قطعياً عند تمام دراسته أن يُعلم بالجامعة مدة خمس سنوات بالمهية التي تقدرها له الجامعة ، وهكذا عند إرسال كل تلميذ ...^(١١٨).

(٣، ٨) المؤسسات البحثية

من المعلوم أن الأوقاف قد أدت دوراً مشهوداً في دعم البحوث العلمية والعلماء والباحثين. وقد قامت مؤسسات هي أقرب إلى كليات الطب ملحقة بالبيمارستانات تخرج فيها الأفاضل من الأطباء المسلمين المشهود لهم بالكفاءة والقدرة والنبوغ ، والذين قدموا معارف استفادت منها الإنسانية في ماضيها وحاضرها ، وقامت على أساسها معظم النظريات الطبية الحديثة. نذكر أبحاث ابن سينا والفارابي والكندي ، وما زالت طرائقهم في الطب تتبع في أرقى مستشفيات العالم. كما نذكر أبحاث جابر بن حيان في الكيمياء ، التي قامت على أسسها نظريات علم الكيمياء الحديث. وابن خلدون عالم التاريخ ، الذي وضع أسس علم الاجتماع المعاصر. وغيرهم ممن أسهموا في الحضارة الإنسانية والمعاصرة ، بعد أن حرروا العلم من الخرافة ووضعوا أساسيات البحث العلمي الحديث^(١١٩).

(١١٧) مازال هذا العرف معمولاً به في الكثير من الجامعات العربية، وإن اختلفت المدة المقررة وفق أنظمة ولوائح كل جامعة.

(١١٨) إبراهيم البيومي غام، الأوقاف والسياسة في مصر، مرجع سابق، ص ٢٦٤ - ٢٦٦.

(١١٩) عبد الله محمد أحمد حريري، دور الوقف في دعم الجوانب التربوية والدينية والعلمية والثقافية، مكة

المكرمة: مؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، شعبان، ١٤٢٢ هـ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

ولاشك في أنه كان للوقف دور كبير في نهضة المدارس الطبية والبيمارستانات (كما سيأتي توضيحه) خاصة وأن هذه المستشفيات والكليات تعدُّ مراكز للبحوث النظرية والتطبيقية وخصوصاً فيما يتعلق بالطب والحكمة، حيث كان كبير الأطباء في المستشفى المنصوري يعقد دروساً في المستشفى ويناقش تلك الدروس مع زملائه وطلابه، وهذا دليل واضح على ذلك^(١٢٠). وبسبب الوقف على البحث العلمي توصل العلماء إلى كثير من الاختراعات والإبداعات في مجال الصيدلة، وعلم الأدوية، وتكنولوجيا استخراجها من النبات، وتطورت كذلك الطرق والأساليب والتقنيات التي تربط علم الكيمياء بعلم الأدوية^(١٢١).

(١٢٠) ناصر بن سعد الرشيد، تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها، ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية في مكة المكرمة في ١٨ — ١٩ شوال ١٤٢٠هـ، ص ٥٠.

(١٢١) حسن محمد الرفاعي، "الوقف على المؤسسات التعليمية (كلية التكنولوجيا نموذجاً)"، مجلة أوقاف، العدد ١٢، السنة السابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٧م، ص ٨٦.

الوقف والمنشآت الثقافية

امتد الدور الفعال للوقف إلى المباني الثقافية، التي تأتي المكتبات في مقدمتها، بجانب مباني المتاحف والفنون الجميلة، وقد جاء هذا الدور من منطلق خدمة الوقف للنواحي الثقافية سواء الثقافة العلمية أو الثقافة العامة، وهو ما يمكن أن يندرج تحت مبدأ نشر المعرفة بين أفراد المجتمع.

وقد حظيت المكتبات على امتداد التاريخ الإسلامي برعاية خاصة من قبل الواقفين، سواء عن طريق وقف المكتبات الخاصة بهم في حياتهم أو بعد موتهم، أو من خلال شراء الكتب ووقفها. فيذكر ابن العماد في الشذرات: "أن محمد بن ناصر بن علي البغدادي، محدث العراق، المتوفى سنة (٥٥٠هـ/١١٥٥م) أوقف كتبه قبل وفاته". كما ذكر ابن الجوزي: "أن عبد الله بن المبارك، المتوفى سنة (٥٠٩هـ) باع ملكاً له واشترى بثمنه كتاب الفنون لابن عقيل، وكتاب الفصول، ووقفهما على المسلمين"^(١).

قال ابن كثير في "البداية والنهاية" في حوادث سنة ٦٣١هـ، وهو يصف المدرسة المستنصرية "ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها وجودة الكتب الموقوفة بها"^(٢).

(١) ياسين بن ناصر الخطيب، أثر الوقف في نشر التعليم والثقافة، مرجع سابق، ص ٣٠٨.

(٢) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٣٩.

وتعد المكتبات الإسلامية من أهم المؤسسات الثقافية، وقد كان لها دور كبير في نشر المعرفة والثقافة بين المسلمين، وقد تعدى تأثيرها على المسلمين أنفسهم، حيث انتقلت آثارها إلى الغرب، وقد كتب كثير من الباحثين العرب والأجانب فصولاً ومقالات عن تلك المؤسسات الثقافية وأهميتها ودورها بشكل مجمل في حياة الأسلاف وتطور حياتهم العلمية والثقافية^(٣).

وقد تميز الوقف على المباني الثقافية بشمولية الدور الاجتماعي، فهو لم يقتصر على فئة الفقراء كما في بعض أنواع الأوقاف، بل كانت الكتب في المكتبات صدقة جارية يستفيد منها كل طلبة العلم على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية وقدراتهم المالية، بجانب ذلك فقد ساعدت عمارة المكتبات الموقوفة على التنمية الاجتماعية من حيث توفير الوظائف لأصحاب الحرف اليدوية وخاصة حرفتي النسخ والتجليد.

(١، ٤) المكتبات

تسمى المكتبات أيضاً خزائن الكتب. ويمكن القول بأن نشأة المكتبات كانت مع تأسيس المساجد والمدارس والزوايا، التي غالباً ما كانت تحتوي على مصاحف وألواح مكتوب عليها أحاديث الرسول ﷺ، ثم تطور الأمر تدريجياً حتى أصبحت تشمل شروح وتعليقات العلماء والشيوخ. وتعددت أنواع المكتبات ما بين مكتبات عامة يشرف عليها الخلفاء والأمراء والأغنياء وتلحق بالمساجد والمدارس وتكون لها أبنية خاصة تشمل الحجرات والغرف الخاصة وغرف الخدمات وديوان الموظفين، ومكتبات خاصة بالأفراد أو الهيئات الخاصة مثل مكتبة جمال الدين القفطي سنة ٦٤٦هـ التي جمعت من الكتب ما لا يوصف^(٤).

(٣) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، "موسوعة الوقف الميسرة للأطفال"، مجلة أوقاف، العدد ١٠، السنة السادسة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٦م، ص ١١١-١١٢.

(٤) سامي محمد الصلاحات، دور الوقف في مجال التعليم والثقافة في المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة، دولة ماليزيا المسلمة نموذجاً، مرجع سابق، ص ١١-١٢.

ويعتبر البعض أن أول مكتبة وقفية في الإسلام هي مكتبة دار العلم في الموصل، حيث وضعت جميع كتبها في متناول طلبة العلم، كما خصصت لهم الغرف اللازمة للبحث العلمي^(٥).

وانتشرت خزائن الكتب الوقفية في أرجاء العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري، وأصبحت تلك المكتبات مقصداً لطلاب العلم تعينهم على التزود بكل جديد، وتوفر لهم فرص مواكبة الأفكار والآراء المدونة لمؤلفين من أصقاع العالم الإسلامي^(٦). ويكفي للتدليل على كثرة المكتبات والكتب التي كانت بها، أننا لا نجد مدينة إسلامية تخلو من مكتبة أو مجموعة كتب موقوفة تعين أهل العلم على التزود بالمعرفة وتوفر لهم فرصة مواكبة الأفكار والآراء الجديدة والاطلاع عليها^(٧). وقد بلغ من انتشار المكتبات وتوفر الكتب في الأندلس، على سبيل المثال، أن أبا حيان النحوي كان يعيب على مشترى الكتب ويقول: "الله يرزقك عقلاً تعيش به، أنا أي كتاب أردته استعرتته من خزائن الأوقاف"^(٨). كما أن هناك دليلاً آخر على كثرة المكتبات وهو أن التتار عندما دخلوا بغداد، ألقوا بالكتب في نهر دجلة حتى فاض النهر بالكتب الملقاة فيه، فكان الفارس يعبر عليها من ضفة إلى ضفة، وظل ماء النهر أسود داكناً أشهراً طويلة من تغيره بمداد الكتب التي أغرقت فيه. كما قُدر ما أتلفه الصليبيون في طرابلس وحدها بثلاثة ملايين مجلد. كما أحرق الأسبان في يوم واحد في ميدان غرناطة ما قدره بعض المؤرخين بمليون كتاب^(٩).

(٥) فؤاد عبد الله العمر، إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٢٨.

(٦) يحيى محمود بن جنيد الساعاتي، الوقف والمجتمع نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٧) عبد الستار إبراهيم الهيتي، الجامعة الوقفية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٨) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، موسوعة الوقف الميسرة للأطفال، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٩) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٦٨.

وتنوع الوقف على المكتبات فشمل وقف مكتبات بأكملها، ووقف الكتب على المدارس والمساجد والمشافي والمراصد والربط والخانقاوات، كما كان هناك نوع من الوقف وهو وقف كتب عالم من العلماء بعد وفاته على أهل العلم أو على ورثته. واهتم واقفوا المكتبات المستقلة أو تلك التي تكون في مدارس أو مساجد بتوفير دخل مادي ثابت لها لصيانتها وترميمها، وتحمل التكاليف المادية للعاملين فيها، وعين بعضهم ريعاً يساعد على نماء المجموعة وازدهارها عبر السنين^(١٠).

وكانت معظم النفقات التي تنفق على المكتبات من الأوقاف التي تنشأ من أجلها خاصة، وهذه حال أكثر المكتبات العامة ومنها ما كان من عطايا الأمراء والأغنياء والعلماء الذين يؤسسون تلك المكتبات^(١١). هذا، ويمكن القول بأن سياسة الوقف على المكتبات العامة والخاصة لم تكن مقتصرة في أهدافها على مجرد إتاحة مصادر المعرفة لكل من يسعى إليها، وإنما كانت تتضمن في جوهرها الرغبة في المحافظة على أنماط ثقافية وسلوكية محددة، والرغبة كذلك في نشرها وإعادة إنتاجها وتوارثها عبر الأجيال المتلاحقة، وهو ما تكشف عنه شروط الواقفين في هذا المجال^(١٢).

وفي الوقت الذي كانت فيه الطباعة غير معروفة لبني الإنسان، فقد ساهم الوقف الإسلامي بدور فاعل في الحضارة العلمية الإسلامية، من خلال نشر الكتاب العربي الإسلامي على نطاق واسع، فقد كانت عملية استنساخ الكتب تجري على أيدي نسخاء يدويين، تخصصوا في هذا العمل في ديار الإسلام، غير أن الإنفاق عليهم، وعلى معيشتهم، واحتياجاتهم، أو على تدريبيهم، كان في الغالب مما يرد من الميسورين، ويعتمد على أموال الوقف التي خصصت لدور العلم وخزائن الكتب^(١٣).

(١٠) يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي، مرجع سابق، ص ٣٣.

(١١) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٦٥.

(١٢) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، موسوعة الوقف الميسرة للأطفال، مرجع سابق، ص ١١٣.

(١٣) ياسين بن ناصر الخطيب، أثر الوقف في نشر التعليم والثقافة، مرجع سابق، ص ٣٠٧-٣٠٨.

وتوضح دراسة الوقف على المكتبات، كما يشير أحد الباحثين، في دراسته عن الوقف على مدارس العصر المملوكي، إلى "مدى إدراك الواقفين في ذلك العصر لأهمية المكتبات، ولا سيما للطلبة في وقت لم تعرف فيه الطباعة الحديثة، وكانت الوسيلة الوحيدة للحصول على نسخة من كتاب هي إعادة نسخه بخط اليد، مما جعل الكتاب نادر الوجود، وإذا وجد فإنه يكون باهظ الثمن، ومن هنا تبدو أهمية الأوقاف في تيسير الحصول على الكتاب سواء للاطلاع أو النسخ أو المقابلة، وهذا ما يفسر أيضاً حرص الواقفين الشديد على هذه الكتب لضمان استمرار منفعتها، فضلاً عن أن ريع الأوقاف كان هو المصدر الرئيس للصرف على خزانات الكتب الملحقه بالمدارس وغيرها من المنشآت الدينية"^(١٤).

ومن خلال دراسة وقف الكتب والمكتبات عند المسلمين يمكن ملاحظة أن الوقف كان هو المحور الأساس الذي أسهم في إشاعة العلم، ووفر لطلابه أوعيته والأماكن التي يحفظ فيها، مما يعني أن هذا النمط من الوقف كان له أكبر الأثر في تقليص الأمية ورفع مستوى التعليم بتنوع مصادره، التي كانت تشمل فنون المعرفة المتداولة في ذلك العصر^(١٥)، مما انعكس بالإيجاب على حركة البحث العلمي، وعلى الثقافة العامة، وعلى أوجه الحياة كافة. فقد وصف الرحالة ابن جببر المكتبات في مصر وما كانت عليه فقال: "ومن مناقب هذا البلد ومفاخره أن الأماكن في هذه المكتبات قد خصصت لأهل العلم فيهم، فهم يعتبرون من أقطار نائية، فيلقى كل واحد منهم مأوى يأوي إليه وما لا يصلح أحواله به جميعاً"^(١٦). فلم تكن المكتبات أو الخزائن

(١٤) يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي، مرجع سابق، ص ٩٣.

(١٥) يحيى محمود بن جنيد الساعاتي، الوقف والمجتمع نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص ٥٠-٤٩.

(١٦) ياسر عبد الكريم الحوراني، تجربة الوقف في إطار عالمي، مرجع سابق، ص ١٨١.

الوقفية تيسر لطلاب العلم مصادر المعرفة فحسب، بل كانت تمد الغرباء والفقراء منهم بالمال والمأوى، فقد أنشأ أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصللي داراً أسماها دار العلم، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب علم لا يمنع أحد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب أعطاه ورقاً وورقاً (أي كتباً ونقوداً)، وكانت تفتح في كل يوم^(١٧).

ولقد أولى المسؤولون عن الإدارة الإسلامية، وكذلك مختلف أبناء الأمة، الاهتمام والرعاية بخزانات الكتب، في سبيل تيسير المعرفة، وقد أصبح أمر إنشاء المكتبات من الأمور الشائعة في المجتمع، حتى ليندر أن تخلو مدرسة أو مسجد جامع أو مستشفى أو غير ذلك من معاهد العلم دون أن تجد مكتبة عامرة بالكتب والمراجع المهمة. هذا بجانب الخزائن الخاصة التي كان يؤسسها الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار المسؤولين والعلماء والتي يكون الإنفاق عليها من حسابهم الخاص. وكان يقوم على هذه المكتبات مشرفون وخزنة وخدم للقيام بمختلف الأعمال اللازمة لإدارتها والإشراف عليها والإفادة من خدماتها المختلفة، وكان الكثير منها مزوداً بالورق والخبر في قاعات رتبت لتصبح مواضع للمطالعة، وفي أحيان أخرى للنسخ والتعليم^(١٨).

وكانت المكتبات على نوعين رئيسيين: عامة وخاصة. أما المكتبات العامة؛ فقد كان ينشئها الخلفاء والأمراء والعلماء والأغنياء، وكانت تشيّد لها أبنية خاصة، وأحياناً كانت تلحق بالمساجد والمدارس الكبرى. أما المكتبات الخاصة؛ فقد كانت تشتمل على حجرات متعددة تربط بينها أروقة فسيحة، وكانت الكتب توضع على رفوف مثبتة بالجدران تخصص كل غرفة لفرع من فروع العلم، فكان لكتب الفقه غرفة، ولكتب الطب غرفة، ولكتب الأدب غرفة، وهكذا، وكان فيها أروقة خاصة للمطالعين،

(١٧) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، موسوعة الوقف الميسرة للأطفال، مرجع سابق، ص ١١٢.

(١٨) ياسين بن ناصر الخطيب، أثر الوقف في نشر التعليم والثقافة، مرجع سابق، ص ٣٠٩.

وغرف خاصة للنسّاخ الذين ينسخون الكتب، وفيها غرف لحلقات الدراسة والنقاش العلمي بين رواد تلك المكتبات. وكانت جميعها تؤثث تأثيثاً فخماً ومريحاً، وكان في بعضها غرف طعام لروادها، ومكان لنوم الغرباء منهم. وكان للمكتبات العامة موظفون يرأسهم خازن المكتبة، وهو دائماً من أشهر علماء عصره، ومناولون يناولون الكتب للمطالعين، ومترجمون يترجمون الكتب من غير العربية إلى العربية، ونسّاخ يكتبون الكتب بخطوطهم الجميلة، ومجلدون يجلدون الكتب لتحفظ من التمزق والضياع، هذا بجانب الخدم وغيرهم ممن تقتضيهم حاجة المكتبات. وكان لكل مكتبة صغيرة أو كبيرة فهارس يتم الرجوع إليها لتسهيل استعمال الكتب، وهي مبوبة بحسب أبواب العلم، وبجانب هذا كله كانت توضع قائمة على كل دولا ب تحتوي أسماء الكتب الموجودة في الدولا ب، وكان من المعروف في نظام المكتبات أن الاستعارة الخارجية مسموحة في أغلبها لقاء ضمان عن الكتاب من عامة الناس، أما العلماء وذوي الفضل فلم يؤخذ منهم ضمان^(١٩).

أما الأبنية الخاصة بالمكتبات، فقد كانت تشتمل على حجرات متعددة تربط بينها أروقة فسيحة، حيث تخصص كل غرفة لفرع من فروع العلم، كما كانت بها أروقة خاصة بالمطالعين، بجانب غرف النسّاخ، وغرف لحلقات الدرس والنقاش العلمي الذي كان يدور بين رواد تلك المكتبات^(٢٠).

أما المكتبات التابعة للمساجد والمدارس والربط والخانقاوات، فكانت توضع في أبنية ملحقة بالجهات التي تتبعها، تضيق مساحتها أو تتسع حسب حجم المجموعة الأساسية، وكان بعضها يعرف بدار الكتب أو خزانة الكتب. وقد لا يتعدى حجم

(١٩) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٦٣ - ١٦٥.

(٢٠) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٨٠.

المكان غرفة صغيرة في مسجد أو مدرسة توضع فيها الكتب، وقد يصل الأمر إلى أن تكون المكتبة أو خزانة الكتب عبارة عن دولا ب واحد^(٢١).

وكان ترتيب المكتبات الموقوفة على درجة عالية من الدقة والنظام، بحيث يسهل استخدامها، وبصورة لا تقل عن النماذج المتبعة في العصر الحالي. فقد راعى الوزير أحمد بن الناقد الترتيب الذي كانت عليه كتب مكتبة المستنصرية، كما أشار ابن الجوزي إلى وجود فهارس للمكتبات فمن خلال اطلاعه على ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية وجد أنها ستة آلاف مجلد. وبشكل عام، يُعدُّ أمر وجود فهارس وتنظيم للمكتبات الموقوفة هو أمراً ضرورياً؛ وإلا فكيف بطالب علم يدخل مكتبة مثل مكتبة المدرسة الفاضلية التي كانت تضم مائة ألف مجلد ليبحث بين أرففها وخزائنها عن عنوان يحتاجه لدراسة أو بحث. وبشكل عام فقد كان تنظيم الكتب في المكتبة يتم حسب الموضوعات بحيث توضع كتب كل علم بجوار بعضها، ولكل مكتبة فهرس خاص بها ينم عن محتوياتها يستخدمه القاصد للتعرف على الكتب التي تضمها فيطلب ما يحتاج إليه^(٢٢).

(١، ١، ٤) مكتبة بيت الحكمة

يعد بيت الحكمة في بغداد، أول مكتبة عامة ذات شأن كبير في العالم الإسلامي، ولعله أول جمعية علمية يجتمع فيها العلماء للبحث والدرس، ولجأ إليها الطلاب، فكان مركزاً علمياً شمل علوم الطب والفلسفة والحكمة وغيرها^(٢٣). أنشأها هارون الرشيد، وبلغت ذروة مجدها في عصر المأمون. كانت أشبه بجامعة فيها كتب يجتمع فيها رجال يتفاوضون ويطالعون وينسخون، وكان فيها نسخ

(٢١) يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٢٢) المرجع السابق، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٢٣) محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، مرجع سابق، ص

ومترجمون يترجمون ما كان يحصل عليه الرشيد والمأمون في فتوحاتهم بأنقرة وعمورية وقبرص. ويحدثنا ابن النديم أن المأمون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد انتصر عليه المأمون في بعض المعارك، فجعل من شروط الصلح أن يسمح ملك الروم بترجمة ما في خزائنه من كتب بواسطة العلماء الذين يرسلهم المأمون، ففعل، وهذا أعظم ما روي في التاريخ عن حاكم منتصر لا يرى ثناً للنصر أغلى من كتب العلم ينقلها إلى أبناء أمته وبلاده^(٢٤).

(٤, ١, ٢) مكتبة المستنصر ابن الناصر

أنشأ المستنصر ابن الناصر (تولى الخلافة من ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) مكتبة عظيمة في قرطبة، وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها، جماعاً للكتب، بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله، وكان يبعث أموالاً كثيرة لشراء الكتب، حتى قيل إن ما حوته تلك المكتبة ما يقرب من ٤٠٠ ألف مجلد. وقد اقتدى به الكثيرون حتى بلغ عدد المكتبات التي أوقفت في قرطبة ما يقرب من سبعين مكتبة^(٢٥).

(٤, ١, ٣) دار العلم

كانت هذه الدار في بغداد عبارة عن مكتبة عامة قام بوقفها الوزير سابور بن أردشير عام ٣٨١ هـ، وجعل فيها كتباً كثيرة، ووقف عليها غلة كثيرة. وقال عنها ابن الجوزي "وابتاع داراً بين السورين في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وحمل إليها كتب العلم من كل فن وسماها دار العلم، وكان فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد، ووقف عليها الوقوف، وبقيت سبعين سنة"^(٢٦).

(٢٤) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٢٥) سعيد إسماعيل علي، معاهد التعليم الإسلامي، مرجع سابق، ص ٢١٠ - ٢١١.

(٢٦) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٨٧.

(٤, ١, ٤) مكتبة دار الحكمة

كانت هذه المكتبة في القاهرة، سنة ٣٩٥هـ، وقد جُمع فيها من الكتب ما لم يجتمع لأحد قط من الملوك، حتى كانت تضم أربعين خزانة، احتوت إحدى خزائنها على ١٨٠٠٠ كتاب من العلوم القديمة. وكان الدخول إليها مباحاً لجميع الناس، فممنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وكان فيها كل ما يحتاج إليه الناس من الخبر والأقلام والورق والمحابر^(٢٧).

وقال عنها المقرئ: "وكانت من عجائب الدنيا، ويقال أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري إلى غير ذلك، ويقال أنها كانت تشتمل على أكثر من ستمائة ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة..."^(٢٨).

ومن دون شك فقد كانت دار الحكمة مثلاً عظيماً عن المكتبات الموقوفة التي شيدت منذ بدء نظام الوقف على المكتبات، كما أنها أعطت ثماراً جناها أهل العلم من مختلف الطبقات، ولم يستغن عن استخدامها العلماء أو الطلاب وكافة أفراد المجتمع بسبب ما كان بها من وفرة وتنوع في الكتب^(٢٩).

(٤, ١, ٥) مكتبة الربع الرشدي

من مكتبات إيران الشهيرة، كانت مكتبة مجمع الربع الرشدي، وقد كانت من أهم منشآت الربع، وتعد من أكبر المكتبات في عصرها (٦٤٨ - ٧١٨هـ). وكانت تتألف من قسمين: قسم على يمين القبة، والآخر على يسارها. وكانت المكتبة تحتوي على الكتب في شتى فروع العلم والتواريخ والأشعار والحكايات وغيرها، وبلغات

(٢٧) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٦٥.

(٢٨) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٨٨.

(٢٩) يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي، مرجع سابق، ص ٤٤.

مختلفة كالفارسية والعربية والصينية والرومية، حيث جمعت في المكتبة الكتب الكثيرة من تلك البلاد، هذا بجانب ما كانت تحتويه المكتبة من المصاحف القيّمة والثمينة المكتوبة بالذهب والياقوت. وكان مفتاح المكتبة بيد الخازن، وكان ينبغي أن يوقع على فهرس الكتب التي كانت تضاف إليها كل من المتولي والناظر والمشرف، وكان يتم الاحتفاظ بالفهرس ويوضع تحت اختبار المراجعين في كل قسم من المكتبة. وكان يحق للطلبة أو المدرسين استعارة أي كتاب ومطالعة في صالة المطالعة، أو أخذه معهم، ولم يكن من حقهم إخراجهم من مجمع الربع دون ضمان^(٣٠).

(٦، ١، ٤) خزانة القرويين

تعد هذه الخزانة من أهم الخزانات في المغرب، لما كانت - ولا تزال - تتوفر فيها من مخطوطات نادرة، حبسها الملوك والعلماء عليها، لتوفير المادة العلمية للأساتذة والطلبة والباحثين وعامة المسلمين. وقد أسس هذه الخزانة السلطان أبو عنان المريني سنة ٦٥٠هـ. وفي نص وثيقة تأسيسها وجوب وقف كتبها على علماء المسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وقد جاء فيها: "جعل ذلك - نصره الله - وقفاً مؤبداً لجميع المسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، حضاً منه - أيده الله - على طلب العلم وإظهاره وارتقائه واشتهاره، وتسهيلاً لمن أراد القراءة والنسخ منها، والمطالعة والمقابلة، وليس لأحد أن يخرجها من أعلى المودع التي هي فيه، ولا يغفل المحافظة عليها والتنويه"^(٣١).

(٣٠) حسين اميداني، مجمع الربع الرشيدى في مدينة تبرز تجربة مؤسسية رائدة في الوقف، مرجع سابق، ص ٧٥-٧٦.

(٣١) محمد الحجوي، الجوامع والمدارس والزوايا والخزانات التي ازدهرت بمال الوقف في المغرب، مرجع سابق، ص ١٠٤-١٠٥.

(٤, ١, ٧) مكتبة المدرسة المحمودية

أسس هذه المدرسة محمود الأستاد سنة ٧٩٩هـ، بمدينة القاهرة، وبها مكتبة أوقف عليها مجموعة كبيرة من الكتب يقول عنها المقرئ "لا يعرف بديار مصر ولا الشام مثلها ... وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن". وأورد السخاوي نصاً يوحى بأنها كانت تضم في العشر الثاني من القرن التاسع الهجري "قراءة من أربعة آلاف مجلد" (٣٢).

(٤, ١, ٨) مكتبة المدرسة المستنصرية

كانت هذه المكتبة في المدرسة المستنصرية ببغداد، ٩٤٠هـ، حيث اعتنى الخليفة المستنصر - مؤسس هذه المدرسة - بتوفير مكتبة شاملة كبيرة في هذه المدرسة، وأنفق أموالاً طائلة لجمع أكبر قدر من الكتب فيها؛ مما أدى إلى وقوع أزمة في سوق الكتاب في عصره عبر عنها ابن النجار بقوله "وبيعت كتب العلم في أيامه بأعلى الأثمان لرغبته فيها، ولوقفها". وكانت هذه المكتبة على درجة عالية من الفخامة، فوصفت بأوصاف منها ما قاله ابن كثير "وقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها، وجودة الكتب الموقوفة بها"، كما قال عنها في موضع آخر "ووقف فيها كتب نفيسة ليس في الدنيا مثلها". كما يقال عنها إن ما نقل إليها يصل إلى مائة وستين حملاً من الكتب النفيسة (٣٣).

(٤, ١, ٩) دار العدة

أوقفها عبد الجبار بن أحمد بن موسى الفجيجي، بالمغرب، حيث "دشن خزانة بحمولة أربعين بعيراً كتباً، جاء بمعظمها من فاس وتلمسان ومصر وبنيف مجموعها على خمسة آلاف مجلد، وهو رقم ليس بالهين، ولكنه أيضاً ليس بالخيال بل على العكس يبدو خاسئاً ذليلاً أمام تلك الأبهة التي أضفاها الرحالون عليها، وأحاديثهم ترشح بالإكبار والإعزاز يخال معها المرء أن الخزانة تضمنت عشرات الآلاف من الكتب. وإننا

(٣٢) المرجع السابق، ص ٨٨.

(٣٣) يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي، مرجع سابق، ص ٨٢.

لنجد أيضاً في إطلاق اسم "دار العدة" إمعاناً في المبالغة بالكثرة والعدد، والعدة أيضاً إظهار للمبالغة في "الاعتداد والتعويل"^(٣٤).

(٤, ١, ١٠) مكتبة أبي عمر ميمون الصنهاجي

اهتم المرابطون ومن بعدهم الموحدون في الأندلس بالحركة الفكرية، فشجعوا العلم والعلماء، وهَيَّؤوا الظروف المناسبة لذلك، من إقامة مراكز لصناعة الورق وتشجيع حركة النسخ. وقد توفر في الأندلس العديد من المكتبات الخاصة والعامة. فمن المكتبات الخاصة كانت مكتبة أبي عمر ميمون بن ياسين الصنهاجي اللمتوني، أحد كبار قادة المرابطين وعظماء رجالها، وهو الذي عرف بعلمه وعنايته الفائقة بجمع الكتب في كل صنف من أصناف العلوم. وكذا مكتبة المنصور بن محمد بن الحاج داود بن عمر الصنهاجي والي مدينة بلنسية، وكان محباً للعلم ولوعاً بجمع مصنفات ضرورية، حتى إنه جمع ما أعجز أهل زمانه فوصل عدد الكتب لديه إلى ٥٠٠ مجلد^(٣٥).

(٤, ١, ١١) مكتبة طرابلس

كثرت المكتبات ببلاد الشام أيضاً، وكان من أهمها مكتبة بني عمار بطرابلس، وهي من المكتبات التي لعبت دوراً حضارياً مهماً في التاريخ الإسلامي، بناها وأوقفها بنو عمار في طرابلس بالشام، وكانت آية في السعة والضخامة؛ إذ كان عدد النساخين فيها قد بلغ ١٨٠ ناسخاً، يتناوبون العمل ليل نهار، بحيث لا ينقطع نسخ فيها، ويقال إنها حوت مليون كتاب على أرجح الأقوال. وكان بنو عمار يحرصون على أن يزودوها بكل نادر وبكل جديد من الكتب، ووظفوا أخصائيين وتجاراً ليحبوا البلاد ويحرزوا

(٣٤) يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي، مرجع سابق، ص ٥٠-

(٣٥) زرهوني نور الدين، الطب والخدمات الطبية في الأندلس، خلال القرن السادس الهجري - الثاني عشر

لهم الكتب المفيدة من البلدان النائية والأقطار الأجنبية. استفاد منها المعري وذكرها في بعض كتبه، واختلف في مقدار ما كان فيها، وأصح الأقوال أنها كانت تحوي مليون كتاب^(٣٦).

(٤، ١، ١٢) مكتبة شيخ الإسلام حكمة عارف

أوقف هذه المكتبة شيخ الإسلام حكمة عارف الحسيني عام ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٢م، بالمدينة المنورة، وقد بلغ عدد الكتب التي أوقفها على هذه المكتبة ستة آلاف كتاب، بجانب ستة عشر مصحفاً، وكتبه النفيسة التي يصل عددها إلى خمسة آلاف كتاب. وقد شيد عارف حكمة مبنى خاصاً لهذه المكتبة، يضم قاعة عليها قبة فيها زخارف فنية بديعة، بجانب غرف أخرى وفناء وسكن للقيم عليها. ويشير محمد العيد الخطراوي إلى أن شيخ الإسلام عارف حكمة قد أنفق أموالاً كثيرة من أجل اقتناء الكتب التي أوقفها على مكتبته "حتى تجمعت له من أقطار الأرض المختلفة أنفس الكتب وأجملها خطأ وأعلاها شأنًا وأغلاها قيمة، وقد كتب بيده على صفحة عنوان أحد المخطوطات أنه دفع مبلغ أربعمائة جنيه عثمانى ذهبي لشرائه"^(٣٧).

(٤، ٢) المكتبات الطبية

كان من أهم مشتملات البيمارستانات وكذا المدارس الطبية مكتبة عامرة بالكتب الطبية التي كانت تقرأها الأطباء والطلاب^(٣٨)، بمختلف المسائل الطبية وآراء العلماء فيها.

(٣٦) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٦٦.

(٣٧) يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي، مرجع سابق، ص ٥٢-٥٥.

(٣٨) حيث كان الطب يدرس في البيمارستانات في كثير من الأحيان، بجانب المدارس الطبية الخاصة، كما سبق وأن أوضحنا.

وكانت هناك أوقافاً خاصة للإنفاق على تأليف الكتب في الطب والصيدلة، وقد تمكن العلماء بذلك من كتابة أو إكمال العديد من الكتب في العلوم الطبية، وكانت تلك الكتب تعد من أهم مصادر المعرفة في الطب لعدة قرون في أوروبا^(٣٩). وقد قامت الأوقاف بتمويل مؤلفات طبية مشهورة على المستوى العالمي وتدرس في جامعات مرموقة، مثل كتاب الكليات في الطب لابن رشد، والحاوي في الطب للرازي، والقانون لابن سينا^(٤٠).

(٤,٣) المتاحف

من الأمور التي ساعدت على تحقيق علاقة وثيقة بين الوقف والآثار سعة أفق المسلمين الأوائل في فهمهم لفلسفة الفكرة التي نبع منها نظام الوقف، وهى فكرة الصدقة الجارية. وهم لم يقصروا هذه الفكرة على مجرد إعطاء إحسانات نقدية أو عينية للفقراء وذوي الخصاصة، وإنما انطلقوا بها إلى كافة ميادين الخدمات والمرافق العامة، وحولوها إلى مؤسسات نافعة منها المتاحف الإسلامية. هذا بجانب الإشراف المباشر من بعض الجهات القائمة على شئون الأوقاف على الآثار والمتاحف^(٤١).

(٤,٣,١) متاحف الآثار المفتوحة بشوارع المدن الإسلامية

مثلت المباني التاريخية المتراحة على جوانب الطرق وفي مناطق متفرقة من المدينة الإسلامية متحفاً مفتوحاً، ودليلاً واضحاً على ثراء الطابع المعماري

(٣٩) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، الأوقاف والرعاية الصحية، مرجع سابق، ص ١٤٢.

(٤٠) ياسر عبد الكريم الحوراني، تجربة الوقف في إطار عالمي، مرجع سابق، ص ١٨١.

(٤١) ففي مصر، وعلى سبيل المثال، تم تأسيس هيئات رسمية متخصصة لحماية الآثار في القرن العشرين، حيث نص القانون رقم (٨) بشأن "حماية آثار العصر العربي" والذي صدر عام ١٩١٨م: "وتكون وزارة الأوقاف هي المسؤولة عن تسجيل تلك الآثار والإشراف عليها وصيانتها"، وقد استمر إشراف وزارة الأوقاف على قطاع الآثار إلى عام ١٩٣٦م.

العام للمدينة التراثية، لما تمتاز به هذه المباني من خصوصية معمارية خاصة في الهيئة الخارجية التي تتميز بشكل ذي طابع خاص وتفاصيل معمارية خاصة، بجانب التصميم المعماري للمباني من الداخل الذي توافق بشكل تام مع الظروف والوظائف التي كانت تؤديها تلك المباني؛ سواء أكانت مباني تعليمية، أم مكاتب، أم مباني سكنية، أم بيمارستانات، أم وكالات، أم أسبلة، .. أم غيرها.

وبهذا فقد كانت المناطق التاريخية في المدن الإسلامية عبارة من متاحف مفتوحة ومزارات سياحية تجذب الأنظار وتأخذ العقول إلى الماضي العريق، وتسمو بالروح والتحدي فوق عاتيات الزمن. فكل حجر ينطق بالتاريخ وكل مئذنة تشهد لمن صعد عليها رافعاً صوت الحق، وكل قلعة أو برج أو سور يقف مؤكداً التحدي للأعداء الذين أرادوا أن ينالوا منها ومن ساكنيها، ولعل الدليل الأكبر على ذلك أن المشاهد لهذا المتحف المفتوح يضنيه السير في شوارع مدينة القاهرة القديمة بينما هو لا يمل من قراءة التاريخ ولا من المتعة البصرية الممتزجة بعبق الماضي العتيق.

ولاشك في أنه قد كان للوقف الدور الكبير، في بقاء هذه المنشآت شامخة معبرة عن حضارة المسلمين، تلك الحضارة التي بقيت حية راسخة رغم ما مر عليها من سنوات وتاريخ طويل. ولعل هذا ما دفع المستشرق الفرنسي لأن يكتب في كتابه عن القاهرة: "إن حضارة المسلمين حضارة حية دائماً، لا تموت أبداً، لأنها حضارة قامت فوق الأرض، فهي ليست في المدن التي تندثر ويدفنها التراب ثم تقوم فوقها مدن أخرى ثانية وثالثة، إنها حضارة بقيت دائماً عالية شامخة تعانق السماء"^(٤٢).

(٤٢) أنور الياسين، "كنوز القاهرة .. مدينة الألف سنة والألف مئذنة"، مجلة العربي، العدد ٤٧٦، وزارة

الإعلام، الكويت، يوليو ١٩٩٨م، ص ٤٢.

وبالرغم من أن الأوقاف لم يكن لها دور مباشر في إنشاء هذا المتحف المفتوح، إلا أن الأوقاف التي أوقفت على المباني المختلفة والمتنوعة وحافظت عليها من خلال الصيانة الدورية وعمارتها المستمرة والمحافظة على ديمومتها، جعلت هذه المباني تقف في شوارع المدن القديمة، ليتعرف المشاهد الخارجي والمستخدم الداخلي لها، على مدى عظم التاريخ الذي تعبر عنه هذه المباني ممثلة بذلك تاريخاً مكتوباً يحكي تاريخ فترات ازدهار الحضارة الإسلامية في بقاع مختلفة من البلاد الإسلامية.

(٢, ٣, ٤) رباط الآثار النبوية الشريفة بالفسطاط

عمر الصاحب بهاء الدين ابن حنا رباط الآثار النبوية الشريفة بظاهر قبلي الفسطاط واشترى الآثار الشريفة وهي: ميل من نحاس، وملقط من حديد، وقطعة من العنزة، وقطعة من القصعة بجملة مال وأثبتها بالاستفاضة، وجعلها بالرباط للزيارة^(٤٣).

(٣, ٣, ٤) متحف الفن الإسلامي بالقاهرة

نظراً لوفرة عناصر الفنون الجميلة والمقتنيات النادرة التي وجدت بالمنشآت الوقفية فقد بدأ التفكير في إنشاء "متحف للفن الإسلامي" في مصر لوضعها فيه، وعرضها على الجمهور من خلاله، وذلك منذ عام ١٨٩٢م. وفي عام ١٨٩٩م طلبت "لجنة حفظ الآثار العربية" من الحكومة المصرية آنذاك أن تقوم بوقف بعض الأعيان الأميرية الحرة على "ذمة الأنتكخانة العربية"، ولكن اللجنة المالية - التي كان يسيرها

(٤٣) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج ٣، مرجع سابق، ص ٣٩١ - ٣٩٢.

صندوق الدين الأجنبي آنذاك - رفضت فكرة الوقف ، واكتفت بتخصيص ريع الأطنان للغرض المقصود تخصيصاً إدارياً فقط^(٤٤).

وتكشف "وثائق لجنة الآثار العربية" - بما فيها وثائق تأسيس متحف الفن الإسلامي بباب الخلق بالقاهرة - عن عزم اللجنة آنذاك للعناية بتلك الآثار التي حفظتها المؤسسات الوقفية على مر العصور السالفة، من أجل إعادة توظيفها لتكون "من وسائل الرقي في الصناعة الشرقية، والمحافظة على خصوصية التراث، ولجذب السائحين، على حد ما عبر عنه قانون "تعيين قومسيون للآثار التاريخية بمصر"^(٤٥).

والزائر لمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة اليوم يجد كثيراً من مقتنياته عبارة عن آثار وقفية من الثريات، ومنابر المساجد، والسيوف، والمشغولات الذهبية، والمصاحف، والدروع، وغير ذلك من التحف النادرة التي تم جمعها من مصادر مختلفة، كان من أهمها المؤسسات والمباني الوقفية القديمة، إلى جانب بعض الوقفيات الأثرية التي خصصها الأمير يوسف كمال، والتي وقفها تبعاً من سنة ١٩١٣م إلى سنة ١٩٢٧م، واشتملت وقفياته على مجموعات نادرة من المقتنيات الأثرية من نفائس التحف ذات القيمة العالية في فنها وجمالها الذي لا يقدر بثمن، وقد حرص الواقف على تسجيل القطع الأثرية التي وقفها قطعة قطعة، مع وصف تفصيلي لكل منها، وذكر منشأ صناعتها، وتاريخ صنعها وثنائها الذي قدرت به (في سنة وقفها)، وهي تشمل مجموعات من الأطباق والصحون، والأباريق، والثريات، والخناجر، والسيوف، والمشغولات الفضية والذهبية، واللوحات الفنية، وكلها ذات نقوش وزخارف ورسوم آية في الجمال، وتنتمي إلى بلدان متعددة من الصين شرقاً إلى تركيا

(٤٤) إبراهيم البيومي غانم، الأوقاف والسياسة في مصر، مرجع سابق، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٤٥) إبراهيم البيومي غانم، دور الأوقاف في خدمة الآثار والفنون الجميلة، مرجع سابق.

شمالاً، ومراكش غرباً، والسودان جنوباً، ويرجع تاريخها إلى عصور مختلفة منها القديم، ومنها الوسيط، ومنها الحديث. وقد بلغ عدد القطع التي وقفها ٤٩٥ قطعة، وأمر بنقلها بعد أن وقفها إلى "دار الآثار العربية الإسلامية المصرية" بجهة باب الخلق، لينتفع برؤيتها ومشاهدتها الصانع والمخترعون، وغيرهم من الهيئة الاجتماعية تعلماً واستفادة ومشاهدة، ويصرف ريعها - من الرسوم التي يدفعها الزائرون - للفقراء والمساكين على الدوام^(٤٦). واشترط الأمير في حجة وقفه على المتحف الإسلامي أنه "ليس للنظر على هذا الوقف ولا لأي قاض شرعي، ولا لأحد غيرهم حق مطلق في بيع الأشياء الأثرية الموقوفة، ولا أي منها، ولا هبته، ولا استبداله، ولا تغييره، بل تبقى وفقاً لمفوضاً على وجه ما ذكر"^(٤٧).

وإضافة إلى ما سبق فقد قام الأمير يوسف كمال في سنة ١٩٢٥ م بوقف مجموعات أخرى من القطع الأثرية "صناعة الصين" ومجموعات من الأقمشة القبطية التي يرجع تاريخها إلى القرنين السابع والثامن للميلاد، ومجموعات من "اللوحات الفنية" والكتب والمراجع الخاصة بالفنون الجميلة والعمارة، وبعض الصور المجسمة، وجعلها وقفاً ليستفيد منها المشاهدون وطلاب العلم والمبدعون بدون مقابل، وقد وضعها في ضيعة الوقف ونقلها إلى المتحف تحصيماً لها، وضماناً لبقائها وعدم ضياعها، ولا يزال معظمها موجوداً حتى اليوم^(٤٨).

وأخيراً، تجدر الإشارة إلى أن دور الوقف في خدمة الآثار والفنون الجميلة لم يقتصر على قطاع العمارة الدينية، وإنما أسهم أيضاً في تكوين الثروة الأثرية والفنية

(٤٦) إبراهيم البيومي غانم، الأوقاف والسياسة في مصر، مرجع سابق، ص ٢٨٧.

(٤٧) إبراهيم البيومي غانم، دور الأوقاف في خدمة الآثار والفنون الجميلة، مرجع سابق.

(٤٨) المرجع السابق.

لقطاعي "العمارة العسكرية" و"العمارة المدنية" من أسوار، وقلاع، وأربطة، وبیمارستانات، ومدارس، وخانات، وحمامات، وقصور، ومنازل، وأروقة، ورباع. كذلك حجج الأوقاف المحفوظة بكميات كبيرة في الأرشیفات والخزائن الحكومية (ويبلغ عدد الحجج المحفوظة في أرشیف وزارة الأوقاف المصرية حوالي ١٢٠ ألف وثيقة)، وهي في حد ذاتها قيمة جمالية بما تحتوى عليه من زخارف كتابية، وخطوط تراثية، وتوقيعات، وأختام، ورنوك^(٤٩).

(٤٩) المرجع السابق.

الوقف والمنشآت الطبية

تطورت المنشآت الطبية في العصور الإسلامية تطوراً كبيراً، وصلت معه إلى حد إمكانية القول بأن العرب المسلمين كانوا أول من وضع اللبنة الأولى لهذا النوع من المباني، بصورتها المعاصرة، سواء كانت مستشفيات أو صيدليات أو حتى مدارس طبية وغيرها، ليس فقط في مجال الوظائف التي كانت تؤديها تلك المنشآت وشموليتها لعلاج كافة الأمراض والحالات الصحية المختلفة، بل أيضاً بالتخطيط العمراني والأنماط المعمارية التي كانت تبني عليها هذه المباني بعناصرها ومكوناتها المختلفة.

وعن التطور الكبير الذي كانت عليه المباني الطبية في المدينة الإسلامية، في الوقت الذي كانت تعيش فيه أوروبا في ظلام العصور الوسطى، يقول الدكتور ماكس: "إن المستشفيات العربية ونظم الصحة في البلاد الإسلامية الغابرة لتلقي علينا الآن درساً قاسياً مرّاً لا نقدره حق قدره إلا بعد القيام بمقارنة بسيطة مع مستشفيات أوروبا في ذلك الزمن نفسه"^(١). إن أهم ما ركزت عليه المنشآت الطبية في العصور الإسلامية هو الإنسان عن طريق خدمة مختلف جوانبه وتحقيق احتياجاته الصحية، بل إن الأمر لم يقتصر على خدمة الإنسان، بل بعض هذه المباني خدم الحيوانات أيضاً.

(١) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٥٥.

إن من عجائب الوقف أنه لم يتوقف على الإنسان فقط، بل امتد إلى الحيوان والطير. حيث يذكر صاحب كتاب فاس عاصمة الأدارسة: "أن أوقاف مدينة فاس وحدها بلغت الذروة في الحضارة الإنسانية والرحمة والذوق الرفيع، حيث لم تكتف الأوقاف برعاية الإنسان وحده بل تجاوزت الإنسان إلى كل ذي كبد حري من طير وحيوان..."^(٢)، ولم تكن فاس وحدها صاحبة هذه الميزة، فقد كانت هذه السمة مميزة للوقف في كل بقاع الخلافة الإسلامية. ومن جوانب الاهتمام بالحيوان فيما يختص بالنواحي الصحية، توفير مبانٍ تعالج فيها الحيوانات المريضة.

لاشك في أن اهتمام الإسلام بالإنسان وصحته، باعتبار ذلك من الضرورات الخمس، كان من أهم الأسباب التي ساعدت في الرقي الطبي في المدينة الإسلامية، إلا أن الوقف كان له الدور الأكبر في تشييد هذه المباني والمحافظة عليها لأداء وظيفتها، وكان ذلك مما كان يوقفه الواقفون من أوقاف تدر غللاً وأرباحاً للصرف على المنشآت الطبية، بما فيها تشييدها وعمارتها واحتياجاتها من الأدوية ورواتب العاملين فيها من أطباء وممرضين وغيرهم.

(١، ٥) البيمارستانات

كان لفظ البيمارستان (بفتح الراء وسكون السين) يطلق على مبنى المستشفى، وهي كلمة فارسية مركبة من كلمتين، (بيمار) وتعني مريضاً أو عليلأ أو مصابأ، وستان بمعنى مكان أو دار، فهي إذاً دار المرضى^(٣). كما كانت تسمى في بعض الأحيان المارستان^(٤).

(٢) خديجة مفيد، "المرأة والوقف - التجربة المغربية"، مجلة أوقاف، العدد ١٠، السنة السادسة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٦م، ص ١٦٣.

(٣) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط٢، بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨١م، ص ٤.

(٤) أما عن ارتباط اسم المارستان بمأوى الجائنين، فيمكن القول بأن البيمارستانات كانت في البداية وإلى زمن طويل مستشفيات عامة، تعالج فيها جميع الأمراض والعلل من باطنية وجراحية وعينية وعقلية، إلى أن=

قل إن البيمارستانات نشأت في جندياسبور - مدينة بخوزستان ويقال لها الخور- قبل الإسلام بثلاثة قرون، حيث كانت طائفة الأطباء النسطوريين تدير بيمارستاناً أقاموه هناك بعد أن هربوا من اضطهاد الرومان الشرقيين لهم^(٥). وكان العرب قبل الإسلام يستمدون أطباءهم من خريجي هذا البيمارستان. فقد استطب النبي ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده أطباء تخرجوا من جندياسبور كالحارث بن كلدة وابنه النضر بن الحارث بن كلدة^(٦).

ويعتبر المؤرخون المسلمون نواة هذه البيمارستانات في الإسلام تلك الخيمة التي أمر النبي ﷺ بإقامتها في غزوة الخندق، والتي كانت رفيدة الأسلمية تداوي الجرحى فيها^(٧). بينما أنشئت أول دار لمداواة المرضى في الإسلام سنة ٨٨هـ / ٧٠٦م، حيث بناها الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموي، وجعل فيها الأطباء وتكفل بالنفقات الجارية والمعيشية عن طريق الأوقاف التي أوقفت عليها^(٨)، وكان هذا البيمارستان للمجذومين والعميان^(٩). ومما لا شك فيه أن البيمارستانات الإسلامية كانت في بدايتها بسيطة، ولكنها بمرور الأيام توسعت وأخذت شكلها وتكوينها المعماري المتكامل، بعد

=أصابتها الكوارث، ودار بها الزمن وحلّ بها البوار وهجرها الأطباء والمرضى فأفقرت إلا من المجانين حيث لا مكان لهم سواها، فصارت كلمة مارستان إذا سمعت لا تعني إلا مأوى المجانين(عن: محمد مطيع الحافظ، البيمارستان النوري بحلب ووقفيته، مرجع سابق، ص ١٦٢).

(٥) حسين، محمد كامل، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، (د.ت)، ص ٢٢٧.

(٦) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص ٦٢-٦٣.

(٧) محمود الحاج قاسم محمد، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٨) فؤاد عبد الله العمر، إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٩) محمد كامل حسين، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، مرجع سابق، ص ٢٢٧.

أن أدخل عليها الكثير من الإضافات والتحسينات، واستمرت البيمارستانات في التطور حتى بلغت في زمن العباسيين ذروتها، وأصبح لها مميزات لا تختلف بها عن مستشفيات العصر الحديث^(١٠).

وقد تنوعت مباني المستشفيات بين أنماط معمارية عدة؛ وفقاً لموقعها، وأحجامها المختلفة، والتخصص في الوظيفة. فكان منها المتقلة التي تكون مع الجيوش في الغزوات، ومنها الثابتة وهي التي كانت تمتلئ بها المدن الإسلامية، حيث لم تخل بلدة كبيرة كانت أو صغيرة من مستشفى، ومنها مستشفيات خاصة للمساجين ومنها محطات أو مراكز أسعافية تكون بالقرب من الجوامع والأماكن العامة التي يزدحم بها الناس، ومنها المستشفيات العامة التي تفتح أبوابها لكافة أفراد المجتمع ولمعالجة كافة الأمراض، كما أن منها المتخصصة التي كانت تُعنى بمعالجة مرض معين كأمراض العيون أو الأمراض العقلية أو الجذام أو العناية بالعجزة وغيرها^(١١).

ومما يمكن قوله إن أغلب البيمارستانات الإسلامية كانت تبنى في أحسن الأماكن موقعاً؛ على الربوات، أو جوانب الأنهار، وكانت قاعات البيمارستانات فسيحة حسنة البناء والماء فيها جارياً^(١٢).

وكان الخلفاء والملوك والسلاطين يتبارون في إقامة البيمارستانات في مباني ذات عمارة ممتازة، وقد بلغ بعضها مبلغاً كبيراً من اتساع المساحة، كما كانت قاعاتها فسيحة حسنة الزخرفة، كما ألحقت مباني البيمارستانات في كثير من الأحيان بمؤسسات كالمساجد والمدارس^(١٣).

(١٠) محمود الحاج قاسم محمد، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(١١) عبد الله بن سليمان الباحث، الوقف والتنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(١٢) محمود الحاج قاسم محمد، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(١٣) محمد كامل حسين، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، مرجع سابق، ص ٢٢٨.

وكان بالبيمارستان خزانة شراب، وهي جزء مهم من مرافق البيمارستان، يقوم عليها الصيادلة، ولهم رئيس وهو "شيخ صيادلة البيمارستان"، وقد أطلق أيضاً على الصيدلية اسم "الشرايخانة" (أي بيت الشراب)، وكان بها دائماً العديد من الأدوية والأشربة والعطريات والمعاجين وغيرها من أصناف شتى، كما كانت تضم من الآنية الصينية والآثار والأدوات والأواني النفيسة^(١٤).

"إن أمر إنشاء المستشفيات التعليمية وكليات الطب والإيقاف عليها وعلى الصيدليات لم يقتصر على الخلفاء والسلاطين، بل شمل الأثرياء ورجال الطب أنفسهم الذين أسسوا مستشفيات مرموقة ودرسوا فيها طلبتهم، مثل سنان بن ثابت، والرازي، وغيرهم مثل شهيد العلماء الطبيب الذي استطاع أن يشفي ابنة أحد الأمراء فمنحه ثقله ذهباً بعد أن شفيت ابنته، فما كان من الطبيب إلا أن تبرع بهذا الذهب فأوقفه في سبيل إنشاء مستشفى تعليمي، كما أن ابن النفيس أحد أشهر الأطباء العرب في زمانه، وهو الذي اكتشف الدورة الدموية فلقب بابن سينا الثاني، وكان يعمل في المستشفى المنصوري، بنى داراً مجاورة أوقفها على المستشفى وكان يدرس بها الطلبة ولما لم يكن متزوجاً فقد أوقف مع هذه الدار وما حوته من كتبه الطبية والعلمية وكل ما يملك على داره العلمية هذه وعلى المستشفى المنصوري هذا"^(١٥). كما حول القطيعي — أحد أطباء مصر المشهورين — أحد دوره إلى ما يشبه البيمارستان يأوي إليه المرضى من الفقراء، فيعالجهم ويقدم لهم الأغذية والأدوية، ويقوم بخدمتهم مجاناً، وكان ينفق أكثر دخله في هذا السبيل^(١٦).

(١٤) المرجع السابق، ص ٢٣٠.

(١٥) عبد الله بن سليمان الباحث، الوقف والتنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص ١٥٨.

(١٦) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، الأوقاف والرعاية الصحية، مرجع سابق، ص ١٢٩.

ومع تنوع المستشفيات كانت كثرتها أيضاً؛ ففي قرطبة بالأندلس وحدها كان هناك ٥٠ مستشفى أوقفها الخلفاء والأمراء. كما رأى ابن جبير سنة ٦١٤ هـ أن في بغداد حياً كبيراً مخصص فقط للطب ولمشافة الناس^(١٧).

وتدل الوثائق الوقفية على أن المستشفيات سواء أكانت عامة أم خاصة، كانت تقوم على نظام دقيق من حيث الإدارة والإشراف الطبي ووسائل العلاج، حيث كان لكل بیمارستان رئيس للأطباء يسمى ساعور بیمارستان، ولكل قسم من أقسامه رئيس. فكان فيه رئيس للأمراض الباطنية، ورئيس للجراحين ورئيس للكحالين (أطباء العيون) وللبیمارستان فراشون من الرجال والنساء ويقوم الممرضون على خدمة المرضى. كما كان هناك رئيس يدير بیمارستان بكافة فروعه ويسمى ناظر بیمارستان وكان هذا المنصب من المناصب المهمة في الدولة، فكان الناظر عادة واحداً من الأمراء أو القادة أو أحد عظماء الدولة، ولناظر بیمارستان الأمر المطلق في الإدارة، وتحت يده ناظر الوقف، الذي كان يقدم لنظار بیمارستان ميزانية الواردات والمصروفات ويبت فيها ناظر بیمارستان فيما يراه لصالح المستشفى وراحة المرضى. أما تفتيش بیمارستان فكان يقوم به صاحب الحسبة أو المحتسب الذي كان له الحق في أن يدخل بیمارستان ويتفقد أحوال المرضى ودرجة العناية بهم، والطعام الذي يقدم لهم ونظافتهم وسهر الخدم عليهم واعتناء الأطباء بهم وصحة معالجتهم، وكان له معاينة المقصر منهم؛ فإن كان طبيباً أو صيدلياً منع من ممارسة المهنة، وإن كان من بقية منتسبي بیمارستان فله حق طرد المخالف منهم^(١٨).

(١٧) سامي محمد الصلاحيات، دور الوقف في مجال التعليم والثقافة في المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة، دولة ماليزيا المسلمة نموذجاً، مرجع سابق، ص ١٠.

(١٨) محمود الحاج قاسم محمد، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، مرجع سابق، ص ص

كما اتبع الأطباء العرب نظام المرور على المرضى لتفقد أحوالهم، كما يحدث الآن في مستشفيات العصر الحاضر، فكان رئيس الأطباء يمر بالمرضى ومعه مشاركوه، وكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير يتم تنفيذه بسرعة. وإذا دعا الحال كان الأطباء والمتخصصون يدعون من قسم آخر غير القسم الذي يقيم به المريض للاستشارة^(١٩).

(١، ١، ٥) بيمارستان أحمد بن طولون

أنشأ أحمد بن طولون البيمارستان المسمى باسمه بالفسطاط سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢م، وقد سبقه في مصر بيمارستان في عصر ولاية الأمويين في دار أبي زبيد بزقاق القناديل بالفسطاط، ثم أنشئ بيمارستان المعافر سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م. ويبدو أن هذين البيمارستانين كانا من الصغر وقلة الأهمية بحيث أن بعض المؤرخين اعتبروا بيمارستان أحمد بن طولون أول بيمارستان أنشئ في مصر^(٢٠).

وقد أنفق أحمد بن طولون على هذا البيمارستان ستين ألف دينار، وحبس عليه دار الديوان، ودوره في الأساكفة والقيسارية وسوق الرقيق، وعمل حمامين للمارستان أحدهما للرجال والآخر للنساء، وشرط إذا جيء بالعليل أن تنزع ثيابه ونفقته وتحفظ عند أمين المارستان ثم يلبس ثياباً ويفرش له ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ^(٢١). قال القضاعي: "ولم يكن قبله بيمارستان بمصر، وشرط ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك"^(٢٢). كما قال عنه السيوطي: "وقد جعل ابن

(١٩) محمد كامل حسين، الموجز في تاريخ الطب والصيدالة عند العرب، مرجع سابق، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٢٠) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، الأوقاف والرعاية الصحية، مرجع سابق، ص ١٢٧.

(٢١) يحيى محمود بن جنيد الساعاتي، الوقف والمجتمع نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص

ص ٥١ - ٥٢.

(٢٢) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٣، مرجع سابق، ص ٣٩٢.

طولون في مؤخرة المسجد (يعني مسجد أحمد بن طولون) دار شفاء، ألحق بها صيدلية، أعد فيها من الأدوية، وأنواع الشراب، ما يلزم لإسعاف من يحدث له حادث من المصلين، خصوصاً يوم الجمعة، ورتب لهذه الصيدلية خدماً، وعين لها طبيباً، وألزمه بالتواجد يوم الجمعة استعداداً للطوارئ، وقد أصبحت هذه الدار فيما بعد مثابة للطلبة، الذين يتلقون بها دروساً في الطب والعلاج، ويتردد عليها الأطباء، حيث ألقت مباحثهم الطبية على أطباء الغرب ضوءاً كبيراً^(٢٣).

وبلغ من عناية أحمد بن طولون بهذا اليمارستان أنه كان يتفقد بنفسه يوماً في كل أسبوع، كان في الغالب يوم الجمعة، فيطوف على خزائن الأدوية، ويتفقد أعمال الأطباء، ويشرف على سائر المرضى، ويعمل على مواساتهم، وإدخال السرور عليهم، بما في ذلك المحبوسين من المجانين، حتى غافله في يوم أحدهم ورماء برمانه كادت تقضي عليه، فلم يعاود اليمارستان بعد ذلك^(٢٤).

(٢، ١، ٥) اليمارستان العضدي

أنشأه عضد الدولة بن بويه في الجانب الغربي من بغداد، وافتتح في صفر من سنة ٣٧٢هـ، ورتب فيه الأطباء والخدم والوكلاء والخُزّان، ونقل إليه من الأدوية والأشربة والعقاقير شيئاً كثيراً ومن كل ما يحتاج إليه. وقال عنه ابن القفطي: "لما عمّر عضد الدولة اليمارستان ببغداد جمع إليه الأطباء من كل موضع فاجتمع فيه أربعة وعشرون طبيباً وابن مندويه الأصفهاني واحد منهم، وفي سنة ٤٠٨هـ توفي الحاجب الكبير الشباسي أبو نصر مولى شرف الدولة بن بهاء الدولة، ولقبه بهاء الدولة بن بويه بالسعيد، وكان كثير الصدقة والأوقاف على وجوه القربان، فمن ذلك أنه وقف

(٢٣) ياسين بن ناصر الخطيب، أثر الوقف في نشر التعليم والثقافة، مرجع سابق، ص ٢٩٨.

(٢٤) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، الأوقاف والرعاية الصحية، مرجع سابق، ص ١٢٧.

ضياعاً على المارستان وكانت تغل شيئاً كثيراً من الزرع والشمار والخراج". كما قال العيني: "استهلت سنة ٤٤٩ هـ والخليفة القائم بأمر الله والسلطان طغرل بك، في هذا الوقت نظر عميد الملك في المارستان العضدي وكان قد خلا من دواء وشراب وكان المرضى على وجه الأرض ... وكان أبو الحسن بن المهدي ويعرف بابن العريق قد عرف أن يهودياً يعرف بالهاروني استولى عليه وأكل أوقافه، فاستخلصها من المتغلبين عليها وشرع في العمارة وخلص المارستان من أيدي الطامعين فهاب المتغلبين بخمسة آلاف طابق وقيل بعشرة آلاف، وكان على بابه سوق فيه مائة دكان قد دثرت فأعادها وجمع فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير التي يعز وجودها شيئاً كثيراً، وأقام الفُرْش واللحف للمرضى، والأرايح الطبية والأسرة والثلج والمستخدمين والأطباء والفراشين. وكان فيه ثمانية وعشرون طبيباً ونساء طباحات وبوابون وحراس، والحمّام، والبستان إلى جانبه فيه أنواع الثمار والبقول والسفن على مائه تنقل الضعفاء والفقراء، والأطباء يتناوبونهم بكرة وعشية ويبيتون عندهم بالنوبة"^(٢٥).

(٥, ١, ٣) البيمارستان النوري الكبير بدمشق

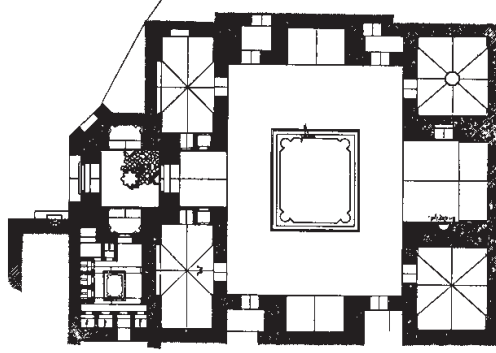
أنشأه السلطان الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن الملك الأتابك زنكي التركي السلجوقي، سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م، في دمشق، وقد استمر يقوم بدوره حتى سنة ١٣١٧ هـ^(٢٦). كان المسقط الأفقي للمبنى، (الشكل رقم ٥, ١)، مربع الشكل تقريباً، به أربعة إيوانات، تحيط بفناء به بحيرة مياه، أحدها مدخل للمبنى، وواحد للصلاة، والإيوانات الأخران عبارة عن قاعتين للصلاة، ويجاور الإيوانات أربع غرف مغلقة كانت تستخدم كغرف استشارات طبية، ولم يكن به إقامة للمرضى^(٢٧).

(٢٥) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٨٧ - ١٩٠.

(٢٦) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٤٨.

(٢٧) J. D. Hoag, *Islamic Architecture*, (op. cit.), p.173

وكان حين بنائه من أحسن ما بني من المستشفيات في البلاد كلها، وقد اشترط نور الدين في وقفه أنه على الفقراء والمساكين، وإذا اضطر الأغنياء إلى الأدوية التي فيه فيسمح لهم بها، وكان الشراب والدواء فيه مباحاً لكل مريض يقصده^(٢٨).



الشكل رقم (١، ٥). اليمارستان النوري بدمشق^(٢٩).

وقد وصف هذا اليمارستان ابن جبير في رحلته إلى الشام فقال: "دخلت دمشق عام ٥٨٠ هـ وبها مارستان: قديم وحديث، والحديث أحفلهما وأكبرهما، والأطباء ييكرن إليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى ويأمرن بإعداد ما يصلحهم من الدواء والغذاء، واهتم به الملك العادل وعيّن فيه أبا المجد بن أبي الحكم الباهلي، وجعل أمر الطب مفوضاً إليه"^(٣٠)، كما قال عنه في موضع آخر إنه "مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام، وله قوم بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون إليها من الأدوية والأغذية وغير ذلك". ويضيف ابن كثير أن نور الدين زنكي وقف هذا اليمارستان على الفقراء دون الأغنياء، اللهم إلا إذا لم يجد الأغنياء دواء

(٢٨) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٤٩.

(٢٩) Ibid, p.214.

(٣٠) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، الأوقاف والرعاية الصحية، مرجع سابق، ص ١٣٤.

لعلهم إلا في هذا اليمارستان^(٣١). وكان نور الدين قد أوقف على هذا اليمارستان جملة كتب من الكتب الطبية، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه (أي أبي المجد)، ثم تجري بينهم مباحث طبية، ويقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات^(٣٢).

ولبيان حال هذا اليمارستان في العصور المتأخرة، وما كان عليه من الأهمية والمكانة ننقل ما جاء في قول المحبي في صدره: "إن حسن باشا بن عبد الله الأمين المعروف بشوريزة حسن، أحد صدور دمشق وأعيانها المتوفى سنة ١٠٢٧هـ، ولي وقف اليمارستان الكبير النوري فأقام شعائره بعد أن كانت اضمحلت وعمّر أوقافه وأتى فيه من حسن التنمية بما لا مزيد عليه". كما أخبر العالم الجليل الأستاذ محمد كرد علي بك وهو من أعلام دمشق: "أن اليمارستان الكبير النوري ظل عامراً يعالج فيه المرضى إلى سنة ١٣١٧هـ / ١٨٩٩ م، وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن العشرين حتى قامت بلدية دمشق في عهد ولاية حسين ناظم باشا والي سوريا سابقاً بإنشاء مستشفى للغرباء في الجانب الغربي من تكية السلطان سليمان، المطلة على المرج الأخضر، وجمعت له الإعانات بأساليب مختلفة، من واردات البلدية وأوقاف اليمارستان النوري لتنفق عليه، وسمي المستشفى الحميدي نسبة إلى السلطان العثماني عبد الحميد الذي بني المستشفى الجديد في عهده"^(٣٣).

(٥، ١، ٤) اليمارستان النوري بحلب

أوقفه الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن الملك الأتابك زنكي التركي السلجوقي، وكان ملكاً محباً للعمران، ترك في دمشق وحلب وحماة والموصل والمدينة

(٣١) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٩٨.

(٣٢) أحمد عيسى، تاريخ اليمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٤ - ١٥.

(٣٣) المرجع السابق، ص ٢١٣.

المنورة وغيرها، من الآثار ما لم يتركه أحد قبله، فقد عمّر المساجد والمدارس ودور الشفاء للمرضى والعميان والمجانين^(٣٤).

وهناك قصة تروى عن اختيار مكان هذا اليمارستان، تكشف لنا عن الاهتمام باختيار مواقع المباني الصحية وهي المستشفيات خاصة. حيث قال كامل البالي الحلبي الشهير بالغزي: "اليمارستان النوري: هو لصيق البهرامية من جنوبها الشرقي، بناء نور الدين محمود بن زنكي، وقد تقدم إلى الأطباء أن يختاروا من حلب أصح بقعة هواء، فذبجوا خروفاً وقطعوه أربعة أرباع، وعلّقوها بأربعة أرباع المدينة ليلاً، فلما أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة ما علّق منها في هذا الربع فبنوا اليمارستان فيه"^(٣٥).

وقد جاء في نص وقفية هذا اليمارستان الأوقاف التي أوقفها السلطان، وهي توضح مدى الكثرة التي كانت عليها ليقوم اليمارستان بوظائفه على الوجه الذي أراده له الواقف^(٣٦).

(٥, ١, ٥) ييمارستان الموصل

قال ابن كثير، في سنة ٥٧٢هـ بنى الأمير مجاهد الدين قايماز نائب قلعة الموصل بالعراق جامعاً حسناً (الجامع المجاهدي) ورباطاً ومدرسة ومارستاناً متجاورات بظاهر مدينة الموصل على دجلة. وأوقف عليه الأوقاف. وفي سنة ٥٨٠هـ زار الموصل ابن جبير فذكر أن أحد أمراء بلدة الموصل وكان يعرف بمجاهد الدين بنى جامعاً على شط دجلة وأمامه مارستان حفيّل، وحوالي سنة ٧٢٨هـ دخل الرحالة ابن بطوطة مدينة الموصل فوجد بها مارستاناً أمام مسجدتها الجامع^(٣٧).

(٣٤) محمد مطيع الحافظ، اليمارستان النوري بحلب ووقفه، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(٣٥) المرجع السابق، ص ١٦٤.

(٣٦) المرجع السابق، ص ١٧٠ - ١٧١.

(٣٧) المرجع السابق، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

(٥, ١, ٦) بیمارستان عكا

في سنة ٥٨٣هـ، بعد أن فتح السلطان صلاح الدين بيت المقدس، وأنقذه من أيدي الصليبيين، انصرف إلى دمشق واجتاز في طريقه إلى عكا، ولما وصل إليها نزل بقلعتها ووكّل بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش، ووقف دار الإشتبار نصفين على الفقراء والفقهاء، وجعل دار الأسقف مارستاناً ووقف على ذلك كله أوقافاً مدرة، وولى نظر ذلك لقاضيه جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب^(٣٨).

(٥, ١, ٧) بیمارستان غزة

لما توفي السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وتولى الملك الصالح إسماعيل، رسم للأمير علم الدين سنجر الجاولي الفقيه الشافعي بناية غزة فحضر إليها، وأقام بها مدة شرع في أثنائها في عمارة الجامع بغزة، وعمر حماماً هائلاً ومدرسة للشافعية، وعمر خاناً للسبيل، وبنى بغزة مارستاناً ووقف عليه عن الملك الناصر أوقافاً جليلة، وجعل النظر فيها لنواب غزة^(٣٩).

(٥, ١, ٨) مجمع الربع الرشدي في إيران

أسسه وأوقفه رشيد الدين فضل الله الهمداني^(٤٠) (٦٤٨ - ٧١٨هـ)، في مدينة تبريز بإيران، وكان الربع عبارة عن مجموعة من المنشآت التي شملت المركز الطبي وهو عبارة عن مستشفى، وكلية للطب، ودار الضيافة، والخانقاة، والروضة، ودار المساكين^(٤١).

(٣٨) أحمد عيسى، تاريخ بیمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

(٣٩) المرجع السابق، ص ٢٤٧.

(٤٠) رشيد الدين فضل الله الهمداني هو الطبيب والمؤرخ والوزير الإسلامي المعروف، عاش في مدينة تبريز بإيران، في زمن دمر فيه المغول المؤسسات الاجتماعية في إيران وسائر بلاد الشرق الإسلامي، فكان أحد الذين حملوا على عاتقهم حفظ تراث السابقين وإعادة العمر، وله وقفيات كثيرة على مبان ومنشآت عظيمة في مدينة تبريز (حسين اميدياني، مجمع الربع الرشدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسية رائدة في الوقف، مرجع سابق، ص ٥٠).

(٤١) حسين اميدياني، مجمع الربع الرشدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسية رائدة في الوقف، مرجع سابق، ص ٥٠ - ٥٤.

وكان الأطباء ، وكما هو مدون في وثيقة الوقف ، يتناوبون في الدوام ليقى المستشفى مفتوحاً طوال اليوم مع وجود طالب في الطب وصيدلي بشكل مناوبة ، وقد كتب رشيد الدين إلى ابنه سعد الدين يقول : "خمسون طبيباً حاذقاً استقدمناهم من أفضل بلاد الهند ومصر والصين والشام وباقي البلدان ، وأمرناهم بالتردد المتناوب في دار الشفاء ، ووضعنا أمام كل طبيب عشرة من المتعلمين والطلبة المتفوقين ليعلموهم هذا العلم الشريف ، وقد بنينا للكحالين (أطباء العيون) والجراحين ، والمجبرين (أطباء العظام) الموجودين في دار الشفاء المنشغلين بوظائفهم مستوصفاً قرب بستان رشيد آباد أطلقنا عليه اسم (معالجة المعالجين)"^(٤٢).

وكان على الطبيب أن يعالج كافة سكان الربع الرشيدي القاطنين أو المسافرين والعمال ، وقرر الواقف أن يقدم الدواء مجاناً يومي الاثنين والخميس لجيران الربع الرشيدي من أولاد الواقف والغلمان الذين أطلقهم والفلاحين والمزارعين في أوقاف الربع الرشيدي ، وإذا ما تدهورت صحة أحد المسافرين ، فإن على المتولي أن يحدد مكان استراحته ؛ ليتولى الطبيب معالجته ، ومن ثم مواصلة سفره^(٤٣).

ورغم أن تكلفة الأدوية في المجمع الرشيدي كانت باهظة ، حيث كان يتم جمعها من مناطق مختلفة ، إلا أن العلاج في الربع كان بالجان تماماً ، فلم تكن تؤخذ الأجرة لا من المقيمين ولا المسافرين ولا حتى باقي المرضى^(٤٤).

(٥, ١, ٩) بيمارستان المدينة المنورة

جده الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي ، أثناء رحلته إلى المدينة لتجديد عمارة المسجد النبوي بها ، وكان ذلك في سنة ٦٦٣هـ^(٤٥).

(٤٢) المرجع السابق، ص ٦٧.

(٤٣) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، الأوقاف والرعاية الصحية، مرجع سابق، ص ١٤٣.

(٤٤) حسين اميدياني، مجمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسية رائدة في الوقف، مرجع سابق، ص ٧٤.

(٤٥) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٦٥.

(٥, ١, ١٠) بيمارستان قلاوون بالقاهرة

كان يعرف أيضاً بالمستشفى المنصوري الكبير، (الشكل رقم ٥, ٢)، وكان داراً لبعض الأمراء، فحولها الملك المنصور سيف الدين قلاوون إلى بيمارستان عام ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م، وتمت عمارته في أحد عشر شهراً وأيام، وكان ذلك في عام ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، فركب السلطان إلى البيمارستان، وجلس به ومعه الأمراء والقضاة والعلماء، واستدعى قدحاً من الشراب فشربه، وقال: "وقد وقفت هذا على مثلي فمن دوني"، فكان وقفه على الملك والمملوك، والجندي والأمير، والكبير والصغير، والحر والعبد الذكور والإناث^(٤٦).

وأوقف عليه السلطان من الأملاك بديار مصر القياس والرباع والخوانيت والحمامات والفنادق والأحكار وغير ذلك، والضياع بالشام، ما يقارب ألف ألف درهم في كل سنة، وألحق به مسجد ومدرسة ومكتب للأيتام، ورتب مصاريف كل واحد منها. ووكّل الأمير عز الدين أيك الأفرم الصالحي أمير جنّدار في وقف ما عينه من المواضع وترتيب أرباب الوظائف وغيرهم، وجعل النظر فيه أيام حياته ثم من بعده لأولاده، ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعي. وكان من الأوقاف التي أوقفها على البيمارستان قيسارية الصبّانة بالفسطاط، وفندق الملك السعيد بالفسطاط، وحمام السباط، وقيسارية المحلي، وقيسارية الضيافة، وقيسارية الفاضل، وسوق القفيصات (جمع قفص)، وسوق الكتّيبين^(٤٧).

(٤٦) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٢١.

(٤٧) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص ٨٤ - ٨٦، ١٢٣ - ١٢٤.

وكان هذا المستشفى آية من آيات الدنيا في التنظيم والترتيب، جعل الدخول إليه والانتفاع منه مباحاً لجميع الناس من ذكر وأنثى وحر وعبد وملك ورعية، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة، ودراهم لنفقاته حتى لا يضطر للعمل الشاق فور خروجه، ومن مات جُهِز وكُفّن ودُفِن. وكان في المستشفى أماكن لكل طائفة من المرضى تختص بهم، كما رتب فيه مكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء دروس الطب على الطلبة. ومن أروع مما كان في نص وقفية المستشفى على أن يقدم طعام كل مريض بزبدية خاصة به من غير أن يستعملها مريض آخر، ووجوب تغطيتها وإيصالها إلى المريض بهذا الشكل^(٤٨)، وذلك زيادة في الحيلة، واتباعاً لأساليب صحية، أصبحت بمرور الزمن، ونتيجة للعمل بشروط الواقف، من التقاليد الصحية المتعارف عليها^(٤٩).



الشكل رقم (٥،٢). المسقط الأفقي لمجموعة قلاوون ومنها اليممارستان^(٥٠).

(٤٨) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٤٩) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، الأوقاف والرعاية الصحية، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٥٠) مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، أسس التصميم المعماري والتخطيط الحضري في العصور

الإسلامية المختلفة، مرجع سابق، ص ٩٥.

وكان اليمارستان مقسماً إلى قسمين؛ أحدهما للذكور، والآخر للإناث. وكل قسم مقسم إلى قاعات حسب أنواع الأمراض، ولكل قسم ما بين طبيب أو ثلاثة بحسب اتساع القسم وعدد المرضى، وله رئيس يتولى الإشراف عليه. كما كان يحتوي على الخدمات اللازمة من إضاءة وماء، وترتيب الفراشين. كما راعى الوقف جو الصيف في مصر، فاشتراط صرف مراوح من الخوص يستخدمها المرضى للتخفيف من حرارة الصيف^(٥١).

كما كان اليمارستان فسيحاً، حيث كانت مساحة الدار التي بني عليها اليمارستان عشرة آلاف وستمائة ذراع^(٥٢). ومما يدل على سعته أن بعض أطباء العيون أخبر أنه كان يعالج فيه كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقلين الخارجين أربعة آلاف نفس^(٥٣)، ورغم ما يبدو عليه هذا الرقم من مبالغة إلا أنه يعطينا صورة واضحة عن مدى أهمية هذا اليمارستان، ومدى الاستفادة منه من مختلف فئات الشعب^(٥٤)، في ذلك الوقت المبكر من تشييد المستشفيات بهذا الشكل المتكامل.

وقد بلغ هذا اليمارستان أرقى ما وصلت إليه أحوال اليمارستانات في الدولة الإسلامية، كما تشهد آثاره الباقية على ما كان عليه من روعة الزخرفة والبناء^(٥٥)، (الشكل رقم ٥.٣).

(٥١) المرجع السابق، ص ١٣١-١٣٢.

(٥٢) أحمد عيسى، تاريخ اليمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص ٨٥.

(٥٣) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٥٠.

(٥٤) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ١٦٩.

(٥٥) محمد كامل حسين، الموجز في تاريخ الطب والصيالة عند العرب، مرجع سابق، ص ٢٣١.



الشكل رقم (٥,٣). واجهة مجموعة قلاوون^(٥٦).

وجاء في وصف البيمارستان في نص الوثيقة "البيمارستان المبارك المنصوري المستجد إنشاؤه، والبديع بناؤه، المعدوم في الآفاق مثاله، والمشهور في الأقطار حسن وصفه، وجماله، لقد أعجز همم الملوك الأول، وحوى كل وصف جميل واكمل، وحدث عنه العيان والخبر، ودل على علو الهمة فيه، كالسيف دل على التأثير بالأثر"^(٥٧).

وكتب عن عمارته المؤرخ المهندس العالم مكس هرتزبك - كبير مهندسي لجنة حفظ الآثار العربية - سنة ١٩١٠م: "المارستان المنصوري هو من أهم عمائر الفن

(٥٦) Hillenbrand, R., *Islamic Architecture, Form, function and meaning*, Edinburgh University Press, (٥٦)

Edinburgh, 2000, p. 194

(٥٧) الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ابن حبيب، تحقيق: محمد محمد أمين، *تذكرة التنبيه في أيام المنصور*

وبنيه، الجزء الأول، المرجع السابق، ص ٣٠١-٣٠٢.

العربي في مصر"^(٥٨). كما وصفه ابن بطوطة بقوله: "وأما المارستان الذي بين القصر عند تربة الملك المنصور قلاوون، فيعجز الواصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، يذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم"^(٥٩). أما الرحالة ابن جبير فقد وصفه بقوله: "وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً وعين قِيماً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكّنه من استعمال الأشربة على اختلاف أنواعها. ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكُسي. وبين يدي ذلك القيم خَدَمَةٌ يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم. وبإزاء هذا الموضع موضع مُقتطع للنساء المرضى. ولهن أيضاً من يكفلهن"^(٦٠). كما جاء عنه في "مسالك الأبصار": "وهو الجليل المقدار، الجليل الآثار، الجميل الإيثار، العظيم بنائه، وكثرة أوقافه، وسعة إنفاقه، وتنوع الأطباء والكحّالين والجراحية فيه"^(٦١). كما وصفه أيضاً بريس دافن فقال "أن قاعات المرضى كانت تدفأ بإحراق البخور أو تبرد بالماروح الكبيرة، وكانت أرض القاعات تغطى بأغصان شجر الحناء أو شجر الرمان أو الشجيرات العطرية"^(٦٢).

كما حدد الواقف مواعيد وجود الأطباء بكل دقة، فاشتراط ضرورة وجود الأطباء الكحّالين (أطباء العيون) صباح كل يوم؛ حتى لا يأتي مريض للعلاج ويرد. كما توضح وثيقة الوقف نقطتين غاية في الأهمية: الأولى، ضرورة مراجعة الطبيب الكحّال (طبيب العيون) للطبيب الطبائعي (طبيب الأمراض الباطنية)؛ للنظر سوياً في

(٥٨) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٥٩) ابن بطوطة، تحفة النظر في غرائب الأمصار، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٦٠) ابن جبير، رحلة ابن جبير والمسماة تذكرة بالأنخبار عن اتفاقات الأسفار، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٦١) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج ٣، مرجع سابق، ص ٤١٨.

(٦٢) محمد كامل حسين، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

علاج المريض الذي قد يرجع مرض عينيه إلى أسباب باطنية، ويبين لنا ذلك التعاون بين الأطباء في ذلك الوقت في فروع الطب المختلفة، وهو ما يقابل أحدث وسائل العلاج وتشخيص الأمراض في العصر الحديث. والنقطة الأخرى، حرص الواقف على ضرورة وجود الأطباء ليلاً بالبيمارستان مجتمعين أو متناوبين، مما يدل على مدى اهتمام الواقف بالرعاية الصحية، وضرورة الاحتياط لمواجهة الحالات الطارئة والحوادث المفاجئة، فضلاً عما قد يحدث من أزمات لمرضى البيمارستان ليلاً^(٦٣).

ولم يقتصر دور البيمارستان على المرضى القادمين إليه فقط، بل شمل ذلك أيضاً المرضى الفقراء في بيوتهم، فقد نص السلطان قلاوون في وقفية البيمارستان على أن: "من كان مريضاً في بيته، وهو فقير، كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاج إليه من حاصل هذا البيمارستان من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها، مع عدم التضيق في الصرف على من هو مقيم به، فإن مات بين أهله صرف إليه الناظر في يومه تجهيزه وتغسيله وتكفينه وحمله إلى مدفنه ومواراته في قبره ما يليق بين أهله"^(٦٤)، حتى أنه قد وصل عدد هؤلاء الذين كانوا يعالجون في بيوتهم في وقت من الأوقات ما يزيد عن مئتين غير من كانوا مقيمين بالبيمارستان^(٦٥).

وقد كان لعمارة البيمارستان مباشرون منفردون بها، من شراء الأصناف واستعمال الصباغ ومرة الأوقاف وغير ذلك مما يدخل في وظيفتهم، وهم يحالون بأثمان الأصناف على الصندوق كما يفعل في الإدارة، وينقل عليهم من الصندوق من المال ما يصرفونه لأرباب الأجر خاصة ويكتبون في كل شهر عمل استحقاق بثمان

(٦٣) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، الأوقاف والرعاية الصحية، مرجع سابق، ص ١٣٢-١٣٣.

(٦٤) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، الأوقاف والرعاية الصحية، مرجع سابق، ص ١٣٣.

(٦٥) عيسى، أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص ٨٨.

الأصناف وأرباب الأجر ويخصمونه بما أحالوا به على الصندوق وما وصل إليهم من المال ، ويسوقونه إلى فائض أو متأخر ، ويرفع كل طائفة من هؤلاء المباشرين حساباتهم اليومية والشهرية والسنوية إلى الناظر والمستوفي في هذا ما يتعلق بالبيمارستان^(٦٦).

وقد استمر من جاء بعد الملك الناصر في عمارة البيمارستان ؛ ففي عهد الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون في سنة ٧٢٦هـ ، تم الشروع في إصلاح البيمارستان والقبّة والمدرسة ، فتم إخلاء القاعات من المرضى بعد شفائهم ، وأصلحت الجدران وجدد البياض والأدهان ونحت ظاهر القبّة والمدرسة والمئذنة بالأزاميل ، وكان جملة ما صرف على هذه العمارة ما يقرب من ستين ألف دينار^(٦٧). ولكن مع مرور الزمن ، وبسبب فساد إدارة وقفه في متابعة مصادره المالية واستنزافها في أمور شخصية تراجع مستواه وتدهور وضعه ، حتى تولاه الأمير صرغتمش سنة ٧٥٥هـ ، فنزل إليه وتفقد أحوال المرضى فيه فساء ما هم عليه من إهمال فطلب من القاضي يوسف بن أبي بكر الإشراف عليه فوافق ، فعمّرت الأوقاف فزاد ريع الوقف في الشهر نحو أربعين ألف درهم ، وعمّر المستشفى ، وانصلحت أحوال المرضى^(٦٨). وفي سنة ١١٩٠هـ / ١٧٧٦م جدد الأمير عبد الرحمن كتحدا البيمارستان ، وهدم أعلى القبّة الكبيرة المنصورية ، والقبّة التي كانت بأعلى الفسحة من خارج ، ولم يعد عمارتها بل سقف قبة المدفن فقط ، وترك الأخرى مكشوفة ، ورتب له أرزاقاً وأخبازاً زيادة على البقايا القديمة^(٦٩).

(٦٦) المرجع السابق، ص ٨٩.

(٦٧) المرجع السابق، ص ٩٣ - ٩٤.

(٦٨) يحيى محمود بن جنيد الساعقي، *والجتمتع نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي*، مرجع سابق، ص ص

٥٤ - ٥٥.

(٦٩) أحمد عيسى، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٥, ١, ١١) بيمارستان غرناطة

اهتم المرابطون، ومن بعدهم الموحدون ببناء البيمارستانات، وما يؤكد ذلك ما ذكره الونشريسي على الخلاف الذي وقع بين أهل قرطبة، حول مشاركة مرضى المقاطعات الأندلسية مرضى قرطبة في الأحباس التي خصصت لمرضى قرطبة، حيث أفتى ابن الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامي الفاسي المعروف بابن القطان، بمشاركة الوافدين من المرضى إلى قرطبة في هذه الأحباس^(٧٠).

فقد بنى أمير المسلمين بالأندلس محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن يوسف بن نصر، الذي تولى الملك بعد وفاة أبيه سنة ٧٥٥هـ، بيمارستان غرناطة، وهو ما يسمى بالبيمارستان الأعظم. وذكره مارشيه فقال: "... لكنه في مظهره أبسط من معاصره بيمارستان قلاوون، ففي وجهته بعض النوافذ، وفيها أقواس مزدوجة، وفي الوسط باب وأعتاب يعلوهما كتابة تشبه أشعة الفلك، ويدخل من الباب إلى ردهة مربعة الزوايا مستطيلة وفي وسطها حوض فيه أسدان جاثيان يشبهان مثليهما في قصر الحمراء وينبع منهما الماء، وحول الردهة أربعة أروقة يفتح فيها أبواب طويلة ذات انحناء على شكل حذاء الفرس، وفي الزوايا سلالم يدخل منها إلى الطابق الأول"^(٧١).

(٥, ١, ١٢) بيمارستان مكة المكرمة

من الأوقاف على المباني الطبية في مكة المكرمة، البيمارستان بالجانب الشمالي من المسجد الحرام، وقفه المستنصر العباسي، وتاريخ وقفه سنة ٦٢٨هـ، ثم عمره

(٧٠) زرهوني نور الدين، الطب والخدمات الطبية في الأندلس، خلال القرن السادس الهجري - الثاني عشر

الميلادي، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٧١) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٨٨-٢٨٩.

السيد حسن بن عجلان عمارة حسنة ، وأحدث فيها ما يحصل به النفع مثل الإيوانان وصهريج وغير ذلك ، بعد أن استأجره مائة عام من القاضي الشافعي ، ووقف ما عمره وما يستحقه من متعته على الضعفاء والمجانين في صفر سنة ٨١٦ هـ^(٧٢).

(٥, ١, ١٣) البيمارستان المؤيدي

أنشئ هذا البيمارستان بالقاهرة ، (الشكل رقم ٥, ٤) ، وقال المقرئ عن هذا البيمارستان : "هذا المارستان فوق الصوة تجاه طبلخاناه قلعة الجبل حيث كانت مدرسة الأشرف شعبان ابن حسين التي هدمها الناصر فرج بن برقوق وبابه هو حيث كان باب المدرسة إلا أنه ضيق عما أنشأه الملك المؤيد شيخ في مدة أولها جمادى الآخرة سنة ٨٢١ هـ وآخرها رجب سنة ٨٢٣ هـ ونزل فيه المرضى في نصف شعبان وعملت مصارفه من جملة أوقاف الجامع المؤيدي المجاور لباب زويلة ، فلما مات المؤيد في ثامن المحرم سنة ٨٢٤ هـ تعطل ثم سكنه طائفة من العجم المستجدين في ربيع الأول منها. وصار منزلاً للرسل الواردين من البلاد إلى السلطان ثم عمل فيه منبراً ورتب له خطيباً وإماماً ومؤذناً وبواباً وقومة وأقيمت به الجمعة في شهر ربيع الآخر سنة ٩٢٥ هـ فاستمر جامعاً تصرف معالم (رواتب) أبواب وظائفه المذكورين من وقف الجامع المؤيدي". ولما أنشأ الملك المؤيد شيخ الجامع العامر الرحب بباب زويلة وأنشأ خانقاة للصوفية والبيمارستان للمرضى والصهاريج للسقاية ، أوقف على ذلك كله أوقافاً جملة من عقار وطن ، ومما جاء فيما يخص البيمارستان في حجة الوقف ما يلي : "... ومن هذه الأوقاف الكبيرة العظيمة يرتب طبيباً طبائعيّاً وكحالاً وجرائحياً و... الخ ولكل منهم ثلاثون نصفاً في الشهر وجعل النظر عليه لنفسه ثم للأرشد فالأرشد من ذريته الذكور خاصة لكن بالاشتراك مع من يكون داوداراً كبيراً ومع كاتب السر مجتمعين غير

(٧٢) تقي الدين أبو الطيب أحمد بن علي الحسيني الفاسي، تحقيق مصطفى محمد حسين، الزهور المقتطفة من

تاريخ مكة المشرفة، ط ١، مرجع سابق، ص ١٢٧.

منفردين ، فإن تعذر لذريته كان النظر للداودار وكاتب السر معاً ويصرف لكل منهما خمسمائة نصف شهرياً وإن تعذر فلحاكم المسلمين بالديار المصرية^(٧٣).

(٥, ١, ١٤) بيمارستان مراکش

أنشأه أمير المؤمنين المنصور أبو يوسف من ملوك الموحدين بالمغرب ، حيث اختار ساحة فسيحة في مراکش بأعدل موضع فيها ، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه ، وأمر أن يغرس فيه من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات ، وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسط إحداها رخام أبيض ، ثم أمر له من الفُرُش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره ما لا يوصف ، وأقام فيه الصيدلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، وأعد فيه للمريض ثياباً ليلاً ونهاراً للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فإذا نقه المريض ، فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش فيه ريثما يشتغل ، وإن كان غنياً دفع إليه ماله ، وكان يزوره كل جمعة ويعود المرضى ويسأل عن أحوالهم وعن معاملة الأطباء والمرضين لهم^(٧٤).



الشكل رقم (٥, ٤). بقايا البيمارستان المؤيدي بالقاهرة^(٧٥).

(٧٣) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٧٢ - ١٧٧

(٧٤) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٧٥) عن موقع آثار مصر الإسلامية (<http://www.cim.gov.eg>).

(١٥, ١, ٥) بیمارستان العزّافین

أقام حمودة باشا المرادي هذا بیمارستان بتونس، وحبس عليه أوقافاً للقيام بلوازم المرضى من طبيب وخدمة ودواء وطعام وكسوة وفراش، وكان يؤوي حوالي ٣٨ مريضاً^(٧٦).

(٥, ٢) بیمارستانات كمراكز تعليم طبية

أدرك المسلمون أن علم الطب باعتباره من العلوم التجريبية، لا يمكن دراسته بعيداً عن المرضى، كما أدركوا أن المستشفيات خير مكان لهذه الدراسة لقرب الطلاب من الحالات المرضية، ولتوفر العلاجات المتنوعة فيها. وكان اختيارهم هذه المستشفيات وجعلهم إياها كليات لتدريس الطب الإكلينيكي (العملي) من أعظم الأعمال التي ساهمت في تقدم العلوم الطبية الحديثة. يقول ماكس مايرهوف: "ولدينا معلومات وثيقة لأربعة وثلاثين معهداً من هذه المعاهد على الأقل كانت منتشرة في أنحاء العالم الإسلامي من بلاد فارس حتى مراكش ومن شمال سوريا حتى مصر"^(٧٧).

تقول العلامة الألمانية سيجريد هونكه في كتاب "شمس العرب تسطع على الغرب": "كانت المستشفيات الكبيرة بمثابة مدارس عالية للطب. وكان الطلاب يتلقون فيها علومهم، ويتعلمون كل ما قاله أبو قراط وجالينوس وما جاء به أساتذتهم العرب الكبار أنفسهم. وكانوا يستمعون إلى كل هذا أيضاً في أحد الجوامع وفي مدارس خاصة طبية كان يديرها أطباء معروفون. واتباع العرب في تدريس الطب طريقة علمية تقضي

(٧٦) أحمد قاسم، الوقف في تونس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مرجع سابق، ص ٣٣ - ٣٤.

(٧٧) محمود الحاج قاسم محمد، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، مرجع سابق، ص ١٢٣.

على طلاب العلم في الطب أن يدخلوا مع المرضى في احتكاك دائم مثمر^(٧٨). فيقابلوا ما قد تلقونه نظرياً بما يشاهدونه بأعينهم. وهكذا تخرجت طبقة من الأطباء الذين لم يشهد العالم لهم في ذلك الوقت مثيلاً إلا في عصرنا الحديث^(٧٩).

وكمثال على ذلك يحدثنا ابن أبي أصيبعة كيف تلقى الدروس على يد أساتذته في البيمارستان النوري، فيقول: "كنت بعدما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم، أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعابن كيفية استدلاله على الأمراض، وجملته ما يصف للمرضى، وما يكتب لهم من أبحاث، وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداوماتها ... وكان معه - أي مهذب الدين - في البيمارستان لمعالجة المرضى الحكيم عمران، وهو من أعيان الأطباء وأكابرهم في المداواة والتصرف في أنواع العلاج، فتتضاعف الفوائد المقتبسة من اجتماعهما، وما كان يجري بينهما من الكلام في الأمراض ومداوماتها، وما كانا يصفان للمرضى"^(٨٠).

وفي مجال الوقف على تعليم الطب، كان هناك الوقف على مدرس الطب وعلى الطلبة، ومن الأمثلة على ذلك وقفية حسام الدين لاجين التي نصت على ترتيب مدرس للطب بالجامع الطولوني، والوقف على هذا المدرس وعشرة طلبة يشتغلون بالطب، فجاء في الوثيقة "... أن رجلاً عارفاً بطب الأبدان، مشهور المعرفة للأمراض والأدوية وهو القاضي الأجل الصدر الريس العالم الفاضل شرف الدين محمد بن المرحوم شهاب الدين أحمد بن أبي الحوافر، الطبيب السلطاني، يجلس

(٧٨) وهو الآن من الطرق المتعارف عليها في تعليم الطب في البلاد الإسلامية وحتى الغربية.

(٧٩) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، الأوقاف والرعاية الصحية، مرجع سابق، ص ١٣٨.

(٨٠) المرجع السابق، ص ١٤٠.

بالجامع المذكور لإقرار الطب وتعليمه ، ويرتب له من الطلبة عشرة يشتغلون بالطب ويلزمهم المدرس بحفظ ما يجب حفظه في الطب وعرضه وتصحيحه ، ويوضح لهم مشكله ...^(٨١).

وكانت دورة التعليم في الطب ، في دار شفاء الربيع الرشيدي ، على سبيل المثال ، خمس سنوات ، وإذا تبين للأستاذ بعدها أن الطالب بات قادراً على علاج المرضى وحده ، يمنحه ما يسمى إجازة لممارسة مهنة الطب. وكان لكل طبيب ممارس خمسة عشر من الطلبة المتعلمين في علوم الطب. ويبدو أن عدد الطلبة كانوا في هذا الصرح الطبي العلمي حوالي خمسمائة طالب^(٨٢).

وهناك بعض المعدلات التي تشير إلى عدد الطلاب الذين يتلقون العلم عن طبيب واحد كان لا يتجاوز الخمسين طالباً^(٨٣).

(٥,٣) البيمارستانات المتنقلة

أول ما عرفت المراكز الصحية المتنقلة في الإسلام في حياة النبي ﷺ ، في غزوة الخندق ، حيث ضربت خيمة للجرحى ، فلما أصيب سعد بن معاذ ﷺ في أكحله ، قال رسول الله ﷺ : اجعلوه في خيمة رفيدة ، حتى أعوده من قريب ، وهو أول مستشفى حربي متنقل في الإسلام. ثم توسع فيه الخلفاء والملوك بعد ذلك ، حتى أصبح المستشفى المتنقل مجهزاً بجميع ما يحتاجه المرضى ؛ من علاج وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة ، وكان ينقل من قرية إلى قرية في الأماكن التي لم يكن فيها

(٨١) المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٨٢) المرجع السابق، ص ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٨٣) المرجع السابق، ص ١٤٠.

مستشفيات ثابتة. كتب الوزير عيسى بن علي الجراح إلى سنان بن ثابت، وكان يتولى النظر في مستشفيات بغداد وغيرها: "فكرت فيمن بالسواد - أي القرى - من أهله، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء، فتقدم بإيفاد متطبين (أي أطباء) وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون السواد، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم، ويعالجون من فيه، ثم ينتقلون إلى غيره" (٨٤).

وقد أسهم الوقف بدور فاعل في بناء المراكز الصحية المتنقلة لخدمة المرضى في المناطق البعيدة عن مراكز الحضارات والمدن (٨٥).

كما كان هناك نوع آخر من البيمارستانات المتنقلة يسمى بيمارستانات السبيل، حيث كانت ترافق قوافل الحجاج أو التجار، فكانت تجهز بمواد الإسعافات والأدوية، وتحمل في صناديق خاصة، وبرفقة طبيب وممرضين يعالجون من في القافلة، أو من تسير بهم القافلة في الطريق. وأول من قام بهذا العمل هو معاوية بن أبي سفيان أيام خلافته (٨٦).

ومن الأمثلة على البيمارستانات المتنقلة التي كان يستعملها السلاطين في تنقلاتهم وحروبهم، ما ذكره ابن خلكان وابن القفطي حين قالوا: "إن أبا الحكم المغربي عبد الله بن المظفر ابن عبد الله المرسى نزيل دمشق، كان طبيب البيمارستان الذي كان يحمله أربعون حملاً (أي جملاً)، المستصحب في معسكر السلطان حين خيم. وكان القاضي السديد أبو الوفا يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر المعروف بابن

(٨٤) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٨٥) فؤاد عبد الله العمر، إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٨٦) محمود الحاج قاسم محمد، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، مرجع سابق، ص ١١٤.

المرحّم الذي صار قاضي القضاة ببغداد في أيام الإمام المقتفي فاصداً وطيباً في هذا المارستان المحمول المذكور. وكان أبو الحكم يشاركه^(٨٧).

(٥, ٤) مباني الطب الوقائي

امتد دور الوقف إلى إنشاء مباني الطب الوقائي ولم يقتصر على الطب العلاجي فقط. ومن الأمثلة على ذلك ما فعله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث خصص خدمات طبية معينة للمجذومين، ومنعهم من الاختلاط بالناس، وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال، وقد شمل ذلك المسلمين وغيرهم ومن رعايا الدولة الإسلامية. أيضاً ما فعله الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ هـ، عندما أمر ببناء مستشفى خاص للعناية بالمجذومين ورعايتهم، وقد أمرهم بعدم الخروج منه، وأجرى عليهم الأرزاق^(٨٨).

(٥, ٥) المستشفيات البيطرية

لم تقتصر الأوقاف على المباني الصحية على علاج الإنسان فقط، ولكنها شملت الحيوان أيضاً، فكان الوقف على الحيوانات للمحافظة على الثروة الحيوانية التي اعتمدت عليها حياة المسلمين في حلهم وترحالهم، وفي أيام حروبهم وسلمهم، كما إن هذا الوقف يعبر عن لمسة إنسانية رحيمة حض عليها الإسلام^(٨٩). "ففي مستشفيات الجيش المتنقلة التي كانت تعالج الجيش الإسلامي، وجدت بجانبها وحدات

(٨٧) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٤.

(٨٨) عبد الله بن سليمان الباحث، الوقف والتنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص ١٥٩.

(٨٩) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، الأوقاف والرعاية الصحية، مرجع سابق، ص ١٢٦.

لمعالجة الحيوانات بأقسام متخصصة وملحقة بها ، ومجهزة بالأطباء البيطرة ومعاونيهم ، إذ كان المحسنون والورعون من المسلمين يوقفون عليها قربة لله تعالى^(٩٠). كما أوقفت مؤسسات للحيوانات المريضة^(٩١).

(٩٠) عبد الله بن سليمان الباحث، الوقف والتنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص ١٥٩.

(٩١) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١١٣.

الوقف والمنشآت الأخرى

يشتمل هذا الفصل على باقي أنواع المنشآت الوظيفية التي ازدهرت عمارتها بفعل الوقف ؛ ومن أهمها المباني السكنية ، ومؤسسات الرعاية الاجتماعية ، والمنشآت التجارية ، والصناعية ، والعسكرية.

ومن خلال الدراسة نجد أنه وكما كان للوقف دوره المؤثر والفاعل في ازدهار عمران المباني الدينية والتعليمية والثقافية والطبية ، فقد لعب نفس الدور في ازدهار عمران باقي أنواع المباني والمنشآت التي ارتبطت بوظائف أخرى تؤديها في المدينة الإسلامية ، وذلك من خلال المساهمة في كثرة عمران هذه النوعية من المنشآت أو المساهمة في استمرار أدائها لوظيفتها من خلال الصرف على عمارتها وصيانتها وعلى القائمين عليها سواء كان الناظر أو المتولي أو الموظفين فيها. أضف إلى ذلك ظهور الدور الاجتماعي والاقتصادي والعسكري للوقف من خلال النهضة العمرانية لأنواع المنشآت التي خدمت هذه الأغراض.

(١، ٦) المباني السكنية

يعد توفير المسكن من الحاجات الضرورية للإنسان ، فهو يأتي في المرتبة الثالثة بعد المأكل والملبس. وقد عبر الإنسان منذ نزوله إلى الأرض عن هذه الرغبة عندما اتجه

في بادئ الأمر إلى الكهوف والمغارات في الجبال كي يتخذها مأوى له ، قبل أن يتمكن من تشييد الكوخ الذي يعد أول منشأة معمارية شيدها الإنسان في التاريخ. ومع تطور الحضارات نجد أنه كان للمباني السكنية النصيب الأكبر منها ، وعلى هذا الحال كانت عمارة المنشآت السكنية في المدينة الإسلامية ، فلا شك في ازدهار العمران السكني وتمدد أحياء المدينة وقطاعاتها المختلفة بفعل التطور العمراني للمباني السكنية ، سواء كانت المساكن الخاصة أو المؤجرة ، أو الخانات ومباني الفنادق ودور الضيافة أو مساكن الطلاب ، أو حتى المساكن التي كانت تشيد من أجل سكنى الفقراء ، والتي كان للوقف فيها جميعاً دوره الفاعل والمؤثر.

(١، ١، ٦) المساكن والدور الخاصة

مما سبق بيانه في الفصل الأول من أنه قد أجزى في الفقه الإسلامي الوقف الذري أو الأهلي ، كما أجزى الوقف على النفس ، بأن يقف الشخص على نفسه وذريته من بعده. فقد اتجه الواقفون نحو وقف مساكنهم الخاصة على أنفسهم وذرياتهم من بعدهم. وقد أخذ وقف المساكن والدور الخاصة نهجين ، فمن المساكن ما أوقفه الواقف على نفسه وذريته من بعده ، ومنهم من أوقف الدور على مباني أخرى موقوفة مثل المساجد والمدارس والبيمارستانات والمكتبات.

ومن الأمثلة على المساكن الخاصة الموقوفة ، قصر بشتاك وهو من أعظم مباني القاهرة في ذلك الوقت ، وكان في وقف السلطان الملك الناصر حسن بن محمد قلاوون ، وقصر الحجازية ، وهو من جملة أوقاف كانت موقوفة على المدرسة الحجازية^(١). ومن الأمثلة أيضاً ، على هذا النوع من الأوقاف كان منزل جمال الدين الذهبي الذي أنشئ سنة ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م ، (الشكل رقم ٦، ١). وقد ذكرت وثيقة المنزل ، أن ملكية المنزل لفاطمة خاتون ابنة جمال الدين الذهبي شاه بندر التجار بمصر ، وهي التي أوقفت هذا المنزل على نفسها "أبداً ما عاشت ودائماً ما بقيت ، ثم

(١) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٣٤٦.

على عتقائها ذكوراً وإناثاً وأولادهم، وأولاد أولادهم ونسلهم وعقبهم بعد ذلك" (٢). ويعد المنزل من أهم آثار العمارة الإسلامية في مصر لما احتواه من فن معماري، وتنسيق فراغي، وجماليات تشكيلية في كافة عناصر المنزل. ورغم عدم انتظام قطعة الأرض المبني عليها المنزل، إلا أن المصمم نجح في وضع التنظيمات الفراغية حول الفناء الداخلي المكشوف، ومن خلال مدخلين للمنزل، حيث نظمت العناصر الخاصة بأهل المنزل وتلك التي كانت عامة للضيوف (٣).

أما عن المساكن والدور التي كانت توقف على مباني موقوفة فهي كثيرة، وكان يستفاد من ريعها في الصرف على الوقف، ومن ذلك ما أوقفه أحمد بن طولون على البيمارستان الذي شيده بالفسطاط، فقد أوقف عليه دار الديوان ودوره في الأساكفة، بجانب القيسارية وسوق الرقيق (٤).



الفناء الداخلي (٦)



الطابق الأرضي (٥)

الشكل رقم (١، ٦). منزل جمال الدين الذهبي بالقاهرة.

(٢) رفعت موسى محمد، الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٣) J. D., Hoag, *Islamic Architecture*, (op. cit.), pp. 178, 183.

(٤) فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، عصر الولاة، مرجع سابق، ص ٥١٠.

(٥) J. D., Hoag, *Islamic Architecture*, (op. cit.), p. 181.

(٦) Ibid, p. 180.

(٢، ١، ٦) الخانات ودور الضيافة والفنادق

شملت الأوقاف في عصور الدولة الإسلامية الخانات^(٧) والفنادق ودور الضيافة، وقد كانت تبنى للمسافرين والمحتاجين، كما أنشئت الموائل والخانات لإيواء المسافرين من فقرائهم أو تجّارهم في حلهم وترحالهم من منطقة لأخرى، كل ذلك مجاناً اعتماداً على ما أوقف من وقوف على مثل هذه الخدمات. ومن النماذج التاريخية الفاعلة بيوت للحجاج في مكة ينزلون فيها حين يفدون إلى بيت الله الحرام، وقد كثرت هذه البيوت حتى عمت أرض مكة كلها، مما دفع بعض العلماء للإفتاء ببطلان إجارة بيوت مكة في أيام الحج، لأنها كانت كلها موقوفة على الحجاج. كما بنى الخليفة معاوية بن أبي سفيان داراً بمكة يقال لها دار المراحل، كان بناها للمنفعة العامة، ولكي يتم طبخ الطعام للحجاج والصائمين في رمضان والفقراء^(٨).

كما بنيت الخانات في الأصل على الطريق للمسافرين يستخدمها المسافر مع وسيلة انتقاله للاستراحة والمبيت، أي أنها تمثل ما يعرف باسم الموتيل. وقد أقيمت هذه المباني على هيئة قلاع أو حصون نظراً لوقوعها خارج المدن وتعرضها لغارات اللصوص^(٩). وهناك فروق جوهرية بين الخانات والوكالات؛ فالوكالات كانت تقام وسط المدن، وتقدم خدماتها بأجر بوصفها أماكن تجارية، بينما خانات القوافل كانت مبنية في طريق الصحراء أو بين المدن بوصفها محطاً لتوقف القوافل، وهي تقدم خدماتها بلا مقابل، غير أن الفروق بين هذين النوعين من المباني التجارية لا يتوقف

(٧) كلمة خان كلمة فارسية بمعنى فندق.

(٨) عبد الله بن سليمان بن عبد العزيز الباعث، الوقف والتنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص ١٤٨ -

١٤٩.

(٩) صالح لمي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق، ص ٧٢.

عند هذا الحد، بل يتعداه إلى اختلافات كبيرة في تصميم البناء وفي زخرفته^(١١). ولأن مباني الخانات كانت تقدم خدماتها بالمجان، فلا عجب في أن تكثر الأوقاف عليها. وكانت أغلب الخانات تدار بأموال الوقف، وكانت تستخدم في سكنى الغرباء والطلاب خاصة، وتقابل المسجد أو المدرسة في بعض الأحيان. فقد أوقف تاجر ميسور اسمه دعلج السجستاني سنة ٣٥١هـ، خاناً لطلبة العلم الشافعية استمر حتى ٥٢١هـ/١٢٧م، وكان يقيم في الخان ما بين ١٠ - ٢٠ طالباً^(١٢).

"وينسب إلى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز أنه أمر بعمارة الخانات على طريق الحاج في خراسان شرق الدولة الإسلامية، حيث كتب إلى سليمان بن أبي السري أن اعمل الخانات في بلادك، فمن مر بك من المسلمين فأقروهم يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم فمن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً فأقروه بما يصل إلى بلده"^(١٣).

كما أوقفت السيدة أم قاسم المرادية في المغرب ثروتها لبناء محطات التزود بالزاد والماء والاستراحة للحجاج ولدوابهم، حيث وجد أنه في كل بلد من مدينة آسفي إلى مكة المكرمة دار من طبقتين؛ طابق لاستراحة الحجاج وتزويدهم بالأكل والدواء، وطابق للدواب لأكلها واستراحتها ودوائها كما يتم استبدال الدواب وتعويض ما مات منها. وقد تم تشييد هذه الفنادق على بعد كل ٥٠ كيلومتراً عبر الطريق التالي: المغرب (آسفي - فاء - وجدة)، الجزائر (عبر تلمسان - وهران العاصمة قسطنطينية)، تونس

(١٠) عماد جعفر ساجواني، "تأثير المنهج الإسلامي على الطابع والشخصية في تخطيط المدينة"، أبحاث الحفلة الدراسية الرابعة، "المنهج الإسلامي في التصميم المعماري والحضري"، جدة: منظمة المدن والعواصم العربية ١٩٩١م، ص ٤٣.

(١١) سامي محمد الصلاحيات، دور الوقف في مجال التعليم والثقافة في المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة، دولة ماليزيا المسلمة نموذجاً، مرجع سابق، ص ٣.

(١٢) عبد الله بن سليمان بن عبد العزيز البحوث، الوقف والتنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص ١٤٨.

(القيروان)، ليبيا (طرابلس - بنغازي)، مصر (الإسكندرية - الفسطاط - العريش)، فلسطين (غزة - القدس)، سوريا (اليرموك)، الجزيرة العربية (المدينة المنورة - مكة المكرمة)^(١٣).

وأوضح نموذج على الخانات من الأناضول هو خان سلطان بقرب آق سراي الذي بناه السلطان علاء الدين كيقيباذ الأول عام (١٢٢٩ - ١٢٣٠ م). ويتألف من صحن خارجي وبه حظيرة للدواب، ومن حانوت حداد يعنى بالركائب، وفي الداخل قاعة تقي المجتمعين زمهرير البرد، أما مدخل البوابتين الخارجية والداخلية فقد نقش نقشاً بديعاً مرصعاً بالرخام. وتشهد الفخامة التي يلاحظها الزائر للمبنى كله داخله وخارجه بسخاء منشئ الخان^(١٤).

وهناك وثيقة وقف أحد الخانات مسجلة باسم الأمير السلجوقي قازاتاي في أنطاليا عام ١٢٥١ م، وتنص على تقديم الطعام وتيسير المبيت للمسافرين بلا أجر، ومنحهم ما يحتاجون إليه من خدمات أخرى مثل إصلاح أحذيتهم والعناية بدوابهم، بل وتقديم هدايا من السكر في أيام الأعياد. وقد كان بالخان مستشفى وحمام ومسجد، وعدد كبير من الموظفين لخدمة هذه المرافق، كما كانت به هيئة دائمة من البنائين المكلفين بإصلاح المبنى وصيانته والسهر على خدمة المسافرين^(١٥).

كما أوقف عارف حكمت مجموعة من الأوقاف على مكتبته في المدينة المنورة، وكان من بينها خان، وورد في نص وثيقة الوقف "ووقفت الخان الذي اشتمل على أربع غرف وواحد إسطلب كبير وواحد دكان البقالة، وواحد دكان الحلالة"^(١٦).

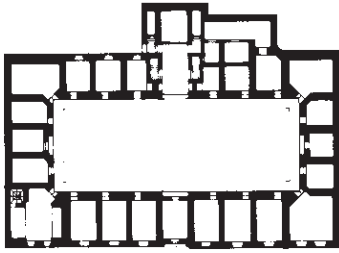
(١٣) حديجة مفيد، المرأة والوقف - التجربة المغربية، مرجع سابق، ص ١٦٦.

(١٤) عماد جعفر ساجواني، تأثير المنهج الإسلامي على الطابع والشخصية في تخطيط المدينة، مرجع سابق، ص ٤٢.

(١٥) المرجع السابق، ص ٤٢.

(١٦) يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي، مرجع سابق، ص ٥٤.

وأوقف الميراج خان المرجان على مدرسته المسماة بنفس الاسم في مدينة بغداد، (الشكل رقم ٦.٢)، والخان مبني من الطوب، ويحتوي على صالة كبيرة وذات ارتفاع عالٍ ١٤م ومغطاة بالقبوات، تطل عليها الغرف من الجانبين ومضاءة بالإضاءة الطبيعية من فرق المنسوب في الحوائط الجانبية، وتعد إضاءة هذا الخان بهذا الشكل من المميزات الفريدة في العمارة الإسلامية^(١٧).



مسقط أفقي للخان



منظور داخلي في الخان

الشكل رقم (٦،٢)، خان المرجان، بغداد^(١٨).

وقد ذكر المقرئزي أنه في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي كان بالقاهرة أحد عشر خاناً^(١٩). وكان من أشهرها خان الزراكشة الذي يعد من الخانات المهمة في مدينة القاهرة، ومازال جزء كبير منه باقياً إلى الآن، وقد تمت عمارته الآن بعد عملية الترميم التي تمت له في العصر الحديث. وهناك خلاف حول منشئ الخان، هل هو من أوقاف الغوري أم من عهد قايتباي؟ وتطل واجهة المبنى على شارع الأزهر، (الشكل رقم ٦.٣)، ومن الخلف تكية أبو الذهب، ومن أحد جوانبه جامع أبو الذهب، ومساكن حديثة من الجانب الآخر^(٢٠).

G. Michell, Architecture of the Islamic World, (op. cit.), p.248 (١٧)

. Ibid, p.248 (١٨)

(١٩) صالح لمعي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٢٠) وزارة الثقافة، خان الزراكشة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ١٥.

كما اشتمل مجمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز بإيران على دار للضيافة أوقفها رشيد الدين فضل الله الهمداني، وقد أعدت هذه الدار لاستقبال موظفي الربع الرشيدي والمسافرين والضيوف، وتشتمل على مبنى ضخيم من طابقين؛ الجانب الأيمن مصمم على شكل غرف لسكان المجمع الرشيدي مثل المدرسين، والمعلمين، والموظفين، والخدم، وخاصة طلبة العلوم المختلفة، وكان يقدم لهم وجبة واحدة على الأقل كل يوم وهي وجبة الإفطار^(٢١).



الشكل رقم (٦,٣). واجهة خان الزراكشة (بعد الترميم)^(٢٢).

(٦,١,٣) مساكن الفقراء

إذا كان الأغنياء يوقفون منازلهم على أنفسهم وعلى ذريتهم من بعدهم، ومنهم من أوقف الدار لتؤجر ويستفاد من ريعها في الصرف على أوقاف أخرى؛ فإنه

(٢١) حسين اميدياني، مجمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسية رائدة في الوقف، مرجع سابق، ص

ص ٥٥ - ٥٦.

(٢٢) وزارة الثقافة، خان الزراكشة، مرجع سابق، ص ١٥.

كانت هناك أوقاف سكنية خاصة بالفقراء مباشرة، فقد كان من الأوقاف بيوتاً خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر داراً^(٢٣).

كما أوقف رشيد الدين فضل الله الهمداني في مدينة تبريز داراً للمساكين كانت تصل ما بين المجمع الرشيدي والمدينة الرشيدية، وكانت تستقبل فقراء المسلمين، وتقديم لهم الطعام، وكان يصل عدد الوجبات في الوجبة الواحدة إلى مئة وجبة^(٢٤).

(٤، ١، ٦) الربوع

الربوع عبارة عن مساكن تبنى بغرض وقفها وتؤجر ويستفاد من أجرتها في أوقاف أخرى، وهي تمثل في حد ذاتها وعاءاً استثمارياً للوقف. والربع الواحد عبارة عن مجموعة من المساكن تجمع حول صحن، ويكون له في الغالب مدخل واحد وسلم واحد، ويصل ارتفاعه إلى أربعة أو خمسة طوابق، ويتم الوصول إلى المساكن عن طريق طريقة تدور حول الصحن، بينما توجد مجموعة من الحوانيت بالجهة المطلّة على الشارع^(٢٥). وكانت بعض الربوع تتكون من مجموعة من الحجرات، تسكن عائلة واحدة في حجرة منها أو أكثر^(٢٦).

لم يكن هذا النوع من المساكن له فوائد مباشرة للواقفين، حيث كان الواقف يقيم هذه المساكن ويؤجرها ويستفيد من دخلها لصالح العين التي تخدم الوقف، سواء كانت مستشفى أو مدرسة أو غير ذلك.

(٢٣) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٢٤) حسين اميدباي، مجمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسية رائدة في الوقف، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٢٥) صالح لمي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٢٦) فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، الجزء الأول عصر الولاة، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

وقد دلت وثيقة وقف السلطان فرج بن برقوق على نمط آخر من مباني الربع، بمدينة القاهرة، حيث إنه ألحق بمسجده ربعاً خصص ريعه للصرف على المسجد. والربع عبارة عن عمارة سكنية مكونة من أربعة طوابق، بالطابق الأرضي محلات تجارية، والطوابق الثلاثة العليا تحتوي كل منها على ثلاثة مساكن منفصلة تطل على الطريق، ويخدم عليها من الجهة الأخرى طرقة بنهايتها دورة مياه، ويخدم على المبنى سلم واحد، والفتحات المطلّة على الشارع مغطاة بالمشربيات^(٢٧). ووقف عارف حكمت على مكتبته بالمدينة المنورة، مجموعة من المنازل في نفس المدينة؛ منها دار في مواجهة التاجوري كانت مؤجرة بمائة ريال، وأخرى بباب، ودار في زقاق الطيار، ودار في حوش التكرانة وأخرى في زقاق القشاش وقد هدمتا^(٢٨).

(٦, ١, ٥) مساكن الطلبة

لم توجد مدرسة موقوفة إلا وكان يوجد فيها أو بجوارها بيتاً خاصاً للطلاب المغتربين^(٢٩)، ويجري عليهم ما يحتاجون إليه من غذاء، مما ساعد على طلب العلم. وقد استرعت هذه الظاهرة نظر الرحالة ابن جبير حيث كتب يقول: "إن هذه الظاهرة ملموسة على نطاق واسع في بلاد المشرق عامة، وفي مصر خاصة، وأن هؤلاء الغرباء كانوا موضع رعاية الحكام الذين وقفوا الأوقاف الواسعة على المرافق التي خصصوها لهم"^(٣٠).

(٢٧) صالح لمي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٢٨) يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي، مرجع سابق، ص ٥٤.

(٢٩) لعل هذا ما جعل هناك خلط ما بين المدرسة والخانقا (محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في

مصر ٦٤١-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٢٥٣).

(٣٠) عبد الله بن سليمان الباحث، الوقف والتنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص ١٥٠.

فقد اشتهرت المدارس المملوكية، بشكل خاص، بجودة مساكنها وتنافس الطلاب على سكنها، ومن الأمثلة على ذلك المدرسة الظاهرية التي أنشأها الظاهر بيبرس بالقاهرة عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م، وكان "للناس في سكنها رغبة عظيمة ويتنافسون فيها تنافساً يرتفعون فيه إلى الحكام"، وكذلك كانت المدرسة الصاحبية التي أسسها الوزير صاحب بهاء الدين بن حنا عام ٦٥٤هـ / ١٢٥٥م، فكان يتنافس طلبة العلم على النزول بها ويتشاحنون في سكنى بيوتها حتى أنه كان يسكن البيت الواحد من بيوتها اثنان وثلاثة من طلبة العلم^(٣١).

كما بلغ الحد بالاهتمام بمساكن الطلاب أن أنشئت في بعض المدن الإسلامية مدناً جامعية، كما في الأندلس حيث أنشئت مدينة طلمكة الجامعية قرب مدريد^(٣٢). ومما تجدر الإشارة إليه أنه لم يكن بالضرورة أن تشتمل المدرسة على مساكن لجميع الطلبة المقررين، بمعنى أنه ليس هناك علاقة عددية بين عدد الطلبة المقررين بها وبين ما تشتمل عليه من وحدات سكنية. ولم يكن كل الطلبة يسكنون في المدرسة، فممنهم من كان يسكن بها ومنهم من كان يسكن خارجها، وقد كان لشروط الواقف دورها في تحديد العدد الذي يسكن بالداخل أو بالخارج، ففي وثيقة السلطان حسن ما يشير إلى أن نصف الطلبة كانوا يسكنون بمدرسته، والنصف الآخر كان يتردد عليها^(٣٣). وقد كانت إقامة الطلاب في المدارس يساعد على عمارتها بالعبادات والتعلم طوال الأوقات، ولعل هذه الظاهرة هي التي استرعت انتباه ابن ظهيرة — أحد علماء

(٣١) محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، مرجع سابق،

ص ١٣٧.

(٣٢) محمود الحاج قاسم محمد، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، مرجع سابق، ص ١٢٩.

(٣٣) محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، مرجع سابق،

ص ١٣٧.

القرن التاسع للهجرة - فقال عنها في مصر والقاهرة "وغالبا مدارسها والله الحمد معمورة بعبادة الله تعالى من إقامة الصلوات والأذكار وقراءة القرآن والحديث والاشتغال بالعلوم الشرعية وغيرها آناء الليل وأطراف النهار"^(٣٤).

(٦، ٢) مؤسسات الرعاية الاجتماعية

لم يتوقف دور الوقف عند المساهمة في ازدهار المدينة الإسلامية، وازدهار عمرانها بالمباني والمنشآت المتنوعة، سواء المنشآت الموقوفة، ذات الوظيفة المقصودة من الوقف مثل المساجد والمدارس والبيمارستان وغيرها، أو تلك التي كانت توقف على المؤسسات الموقوفة، مثل الوكالات والحمامات وغيرها، بل تعدى الوقف هذا الدور إلى نوع آخر من المؤسسات في المدينة الإسلامية، انطلاقاً من الهدف الاجتماعي للوقف، وهي المؤسسات الاجتماعية التي كانت تقام من أجل تقديم الرعاية الاجتماعية سواء لغير القادرين من الفقراء أو العاجزين والمسنين.

ولم يتوقف الوقف عند الرعاية الإنسانية، بل امتدت مظلة الأوقاف لتشمل الحيوانات أيضاً، حيث سجل الوقف الإسلامي سابقة لم يكن لها مثيل في المجتمعات التي ظهر فيها الوقف سواء التي سبقت الإسلام أو التي كانت معاصرة له، من حيث اهتمام الوقف بالحيوانات، فقد وجدت المؤسسات التي أوقفت من أجل رعاية الحيوانات^(٣٥).

(٣٤) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٢٥٤.

(٣٥) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق.

(١، ٢، ٦) التكايا

أنشئت التكية بدلاً من الخانقاة في العهد العثماني، وهي تختلف من ناحية المسقط وتجميع المكونات ونوع العناصر اختلافاً جذرياً عن الخانقاة. فالتكية مسقطها عبارة عن حوش به حديقة وفسقية، ويحيط بالحوش من الجهات الأربع ممر مسقوف، بقباب كروية صغيرة، يفتح على الصحن بعقود محمولة على أعمدة، وينتظم حول الممر غرف الدراويش المعقودة بالقباب الدائرية ومسجد صغير، ويلحق بالتكية سبيل. وتوضع دورات المياه في منسوب منخفض تحت منسوب المبنى. وقد جرت العادة على دفن الدراويش فيها بحوش ملحق بالمبنى^(٣٦).

وقد اقتصت التكايا في الغالب برعاية من لا عائل لهم، والذين لا يقدرّون على الكسب من العجزة وكبار السن، والأرامل من النساء اللاتي لا يستطعن الكسب، إلى جانب الغرباء والمسافرين الذين لا يجدون مأوى لهم في البلاد التي يمرون بها^(٣٧).

وكان يقدم في التكية وجبات مجانية منتظمة (رغيف من الخبز وصحن من الشورية مع قطعة من اللحم) مرتين في اليوم، وكانت تقام في المدن، سواء للمحتاجين فيها أو الوافدين عليها. ومع توسع الدولة العثمانية فقد انتشرت التكايا في مختلف البقاع، والتي كانت من الإسهامات التي نشرها العثمانيون في المناطق الجديدة التي دخلت في إطار دولتهم. ويجدر القول بأن السلطان سليم الأول الذي فتح بلاد الشام كان أول من أنشأ خلال إقامته في دمشق (١٥١٧ - ١٥١٨م) تكية بقيت تقدم خدماتها ووجباتها المجانية طيلة الحكم العثماني. وبعد ربع قرن، أي في سنة ١٥٥٤م،

(٣٦) صالح لمي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق، ص ٢٦-٢٧.

(٣٧) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٩٦.

أنشأ السلطان سليمان القانوني التكية الثانية إلى الغرب من دمشق (المتحف الحربي الآن)، وهي التي بقيت تقوم بدورها طيلة الحكم العثماني. وإذا أخذنا بعين الاعتبار هاتين المنشأتين اللتين كانتا تقدمان آلاف الوجبات يومياً في مكان مناسب، يحفظ كرامة المحتاجين في مدينة كان لا يتجاوز عدد سكانها المائة ألف، لأدركنا مدى أهمية مثل هذه المنشأة في الحياة الاجتماعية^(٣٨)، في المدينة الإسلامية في عصورها المزدهرة بفعل الوقف.

وقد كثرت التكايا في مختلف المدن الإسلامية، ومن التكايا ما كان مخصصاً لإسكان طلبة العلم، مثل تكية محمد بك أبو الذهب، وتكية الكلشنى بالقاهرة، وكانتا مخصصتين لإسكان بعض طلبة العلم الغرباء الذين يدرسون بالأزهر الشريف. ومن التكايا ما كان مخصصاً لإقامة قاصدي الحج، ومن أشهر الأمثلة على ذلك تكيّتا مكة المكرمة والمدينة المنورة، اللتان أنشأهما محمد علي وأوقفهما، وأوقف عليهما قريتين كاملتين بمصر بلغت مساحتهما ٢٨٧٧ فدانا ليصرف ريعها على هاتين التكيّتين^(٣٩). كما كان من التكايا ما هو مخصص لإسكان الصوفية، ففي القاهرة كانت تكية القصر العيني، وجاء عنها في الجبرتي "أن هذه التكية كانت تعرف بتكية البكتاشية لأنها كانت موقوفة على طائفة من الأعجام المعروفين بالبكتاشية، وكان فيها قبتان مفروشتان بالرخام بإحدهما سبيل، وبها مساكن علوية لسكنى الصوفية"^(٤٠).

كما بنى خسرو بك في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي في سراييفو تكية كانت تقدم الوجبات المجانية^(٤١).

(٣٨) محمد الأرناؤوط، الوقف في الدولة العثمانية قراءة معاصرة، مرجع سابق، ص ٥٣.

(٣٩) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٩٦-

١٩٧.

(٤٠) علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ج ٦، مرجع سابق، ص ١٦٢-١٦٣.

(٤١) محمد الأرناؤوط، وقفية مدرسة الغازي خسرو بك في سراييفو، مرجع سابق، ص ١١١-١١٢.

(٢, ٢, ٦) الأربطة

تنوعت وظيفة الرباط^(٤٢) تنوعاً شديداً، ومن خلال البحث وجدنا اختلافاً في هذه الوظيفة من بلد لأخرى، ومن حقبة زمنية لأخرى؛ مما أوجد صعوبة لدينا لتصنيف الربط تحت نوع محدد من المباني ذات الوظيفة العسكرية أو التعليمية أو الدينية أو الاجتماعية. وأخيراً رأينا وضعه ضمن مؤسسات الرعاية الاجتماعية لغالبية هذه الوظيفة على الأربطة بعد استقرار الحالة السياسية للدولة الإسلامية.

وقد كان الرباط، في بادئ الأمر، هو المكان الذي يأوي إليه الجند ويقيمون فيه لحراسة ثغور البلاد الإسلامية من الأعداء. ولم تقتصر المراقبة على المجاهدين، بل شملت العلماء والفقهاء والأطباء وغيرهم. وبمرور الزمن ومع إقبال الناس على المراقبة، أضافت تلك الربط إلى وظيفتها العسكرية، وظيفة التدريس والتأليف من قبل العلماء والفقهاء والمرايطين فيها. ونتيجة لاهتمام المسلمين بالربط فقد كثرت الأوقاف عليها، وشهدت ازدهاراً واسعاً خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين. وحين استقرت أحوال البلاد الإسلامية، تغيرت وظيفة الربط الأساسية، لتكون دور علم وتعليم. كما أصبحت بيوتاً للتقشف والعبادة، وكان المرابطون يعملون ويعيشون فيها ويقدمون خدماتهم مجاناً، وبالمقابل تنفق الدولة عليهم كمجموعة، ويتبرع المحسنون لهم بالأراضي والإقطاعات، ويجبسون لهم الأوقاف^{(٤٣)(٤٤)}. كما تحول

(٤٢) الرباط: تجمع على الرُّبَط، والأربطة، والرباطات.

(٤٣) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٤٤) محمد بن عبد الرحمن الحصين، دور الوقف في تأسيس المدارس والأربطة والمحافظة عليها في المدينة المنورة،

مرجع سابق، ص ٦١.

بعضها إلى أماكن لإقامة الزوار والحجاج، وإلى ملاجئ للأيتام والمعوزين^(٤٥)، وإلى أماكن لإقامة المتصوفة، يقول المقرئ في تعريف الرباط "بيت الصوفية ومنزلهم، ولكل قوم دار والرباط دارهم وقد شابها أهل الصفة في ذلك، فالقوم في الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد، وعزم واحد وأحوال متناسبة"^(٤٦).

ومما يدل على تنوع وظيفة الرباط، ما جاء في نص وثيقة وقف الناصر محمد بن قلاوون، من أن الرباط يكون لسكنى الصوفية أو غيرهم، حيث نصت الوثيقة على أن "الرباط بناحية سماسم المشتمل على ستين بيتاً، وجعله رباطاً مأوى الفقراء الواردين إليه، والرباطان الباقيان المشتمل كل منهما على أحد وعشرين بيتاً فإنه جعل ذلك رباطين برسم سكنى الفقراء الصوفية المقيمين بهذا المكان المذكور على الدوام والاستمرار"، ووضح من هذا النص أن كلمة الرباط أطلقت على المجموعات السكنية الثلاث بهذه المنطقة لأنها جميعاً تستعمل للمرابطة بمعنى الإقامة، ولكن اختلفت نوعية المقيمين بالرباط الأول عن المقيمين بالرباطين الآخرين، فالأول للعابرين ووصفهم بالفقراء دون أن يحدد ما إذا كانوا صوفية أم لا^(٤٧).

ولم يكن الرجال وحدهم هم المقبلون على إنشاء الربط، فقد اهتمت الكثيرات من النساء بإنشاء هذا النوع من المباني، حيث وجد في العصر المملوكي أربطة للرجال وأربطة للسيدات تلتحق بها السيدات، وكانت أربطة النساء أقرب ما يكون من

(٤٥) عبد الكريم إبراهيم، الأوقاف الإسلامية في فلسطين (المحددات العامة والأصول التاريخية)، مرجع سابق،

ص ٢١١.

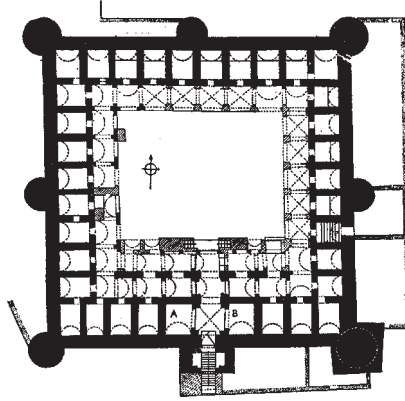
(٤٦) محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، مرجع سابق، ص

ص ١٨٢-١٨٣.

(٤٧) المرجع السابق، ص ١٨٣-١٨٤.

مؤسسات الرعاية الاجتماعية في العصر الحالي، خاصة وأن الملتحقات بها عادة يكن من الأرامل وممن أقعدهن العوز والحاجة^(٤٨).

ويعد رباط سوسة الذي أنشأه الأغالبه عام ٢٠٦هـ، في تونس من أشهر الأربطة، (الشكل رقم ٦،٤)، ويتكون من ٣٣ غرفة في الدور الأرضي يتراوح عرضها ما بين ٢،١٨ و ٢،٩٠ متر، وتفتح على فناء مستطيل الشكل يحيط به رواق من جميع الجهات ويكون مزدوجاً في الضلع الجنوبي، كما يحيط بالغرف سور مربع مدعم بأبراج أسطوانية في زواياه ومنتصف أضلاعه، ويقع مدخل الرباط الوحيد في منتصف الضلع الجنوبي بارزاً عن الحائط، وتقع منارته الأسطوانية في الركن الجنوبي الشرقي باتجاه القبلة، وترتكز على قاعدة مربعة^(٤٩).



الشكل رقم (٦،٤). رباط سوسة بتونس^(٥٠).

(٤٨) محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، مرجع سابق، ص

١٨٧.

(٤٩) محمد بن عبد الرحمن الحصين، دور الوقف في تأسيس المدارس والأربطة والحفاظ عليها في المدينة المنورة،

مرجع سابق، ص ٦١-٦٢.

(٥٠) صالح لمعي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق.

وكانت الأربطة في مكة المكرمة كثيرة، منها رباط ربيع، يقول عنه ابن بطوطة: "وهو من أحسن الرباطات بمكة، بداخلها بئر لا يماثلها بئر بمكة، وسكانه الصالحون. وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط.. وأهل الطائف يأتونه بالفواكه"^(٥١). ومنها رباط السدرة وكان موقوفاً في سنة ٤٠٠هـ. ومنها رباط المراغي إلى جانبه ويعرف بالكيلاني وتاريخ وقفه سنة ٥٧٥هـ. ومنها رباط الأمير إقبال الشرايبي المستنصري العباسي تحت منارة باب بني شيبه وتاريخ عمارته سنة ٦٤١هـ. ومنها رباط الشريف حسن بن عجلان صاحب مكة، وهو الذي أنشأ عمارته، ووقفه سنة ٨٠٣هـ، وله عليه أوقاف بمكة ومنى والوادي. ومنها رباط بأول زقاق أجياد الصغير قبالة باب المسجد الحرام، أمر بإنشائه وزير مصر تقي الدين عبد الوهاب بن أبي شاعر، ومات قبل تمام عمارته، فأمر الأمير فخر الدين بن أبي الفرج باستكمال عمارته، فعمر من ذلك جانب كبير، ومات هو الآخر قبل تمام عمارته سنة ٨٢١هـ، والفقراء به ساكنون. ومنها رباط السلطان شاه شجاع، صاحب بلاد فارس، وقف سنة ٧٧١هـ، وينسب للشيخ غياث الدين الأبرهوقي لتوليته لأمره وعمارته^(٥٢).

ومن أشهر الأربطة في مصر؛ رباط الحجازية، وهو الذي أنشأته السيدة فوز جارية علي بن أحمد الجرجاني الوزير بجوار مسجدتها في القاهرة عام ٤١٥هـ، وأوقفته على أم الخير الحجازية، والتي كانت واعظة زمانها، كما كانت تعتني بتثقيف المقيمات بهذا الرباط^(٥٣). كما كان هناك رباط البغدادية، وهو الذي قال عنه المقرئ:

(٥١) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، مرجع سابق، ص ١٧٢.

(٥٢) تقي الدين أبو الطيب أحمد بن علي الحسيني الفاسي، الزهور المتقطعة من تاريخ مكة المشرفة، تحقيق:

مصطفى محمد حسين، ط ١، مرجع سابق، ص ١٢٢-١٢٧.

(٥٣) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٧٧-

"هذا الرباط بداخل الدرب الأصفر تجاه خانقاة بيبرس ، وهذا الرباط بنته الست الجليلة تذكاري باي خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس في سنة أربع وثمانين وستمئة للشيخة الصالحة زينب المعروفة ببنت البغدادية فأنزلتها به ومعها النساء الخيرات ، كما أمرت بالصرف عليهن"^(٥٤).

وكثرت الأربطة في بلاد الشام ، وكان منها الرباط البياني ، والرباط التكريتي ، ورباط صفية ، ورباط زهرة ، ورباط طمان ، ورباط جاروخ ، ورباط الغرس خليل ، ورباط المهراني ، ورباط البخاري ، ورباط السفلاطوني ، ورباط الفلكي ، ورباط بنت السلار ، ورباط عذراء خاتون ، ورباط بدر الدين عمر ، ورباط الحبشية ، ورباط أسد الدين شيركوه ، ورباط القصاعين ، ورباط بنت الدفين ، ورباط بنت عز الدين ، والرباط الدواداري ، والرباط الفقاعي^(٥٥).

كما تنوعت الأربطة في المدينة المنورة من حيث المواقع والحجم (عدد الغرف) ، وقد احتوى سجل خاص ضمن سجلات محكمة المدينة المنورة على ذكر ٨٢ رباطاً مع ذكر عدد غرفها وأسماء من سكنوها في الفترة من ١٢٠٥ - ١٢٢٩ هـ ، وكانت سعة هذه الأربطة تتفاوت من ثلاث غرف إلى ٦٠ غرفة. ومن هذه الأربطة على سبيل المثال ؛ رباط عزت باشا ، أنشأه عزت باشا ابن هلوب باشا عام ١٣٢١ هـ ، على الأرض التي اشتراها من عبد الله فكري أفندي بمحلة المنشية ، ويعد هذا الرباط من أكبر أربطة المدينة مساحة حيث تبلغ مساحة أرضه ما يقارب من ٥٢٠٠ م^٢ ، ويشتمل الرباط على ٤٠ غرفة ومسجد به دار لتعليم الصبيان ومطبخ ومغسل ، وقد اشترط الواقف

(٥٤) علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ج ٦ ، مرجع سابق، ص ٣٠.

(٥٥) عبد القادر بن محمد النعمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، مرجع سابق، ص ١٥٠-

تخصيص ست حجرات مستشفى منها ثلاثة لعشرة من مرضى المهاجرين من المسلمين وحجرة لسكنى طبيب وأجزاء (ممرض أو صيدلي) وحجرة لخدمة المرضى والسادسة مخزن للعقاقير الطبية، كما تخصص الحجرات الباقية لسكنى المهاجرين لمن ليس له صنعة ولا حرفة من صلحاء مهاجري أهل الهند، والصين، وما وراء النهر، والأترک، وأهل الشام وأن يرجح في السكن العالم وطالبوا العلم. ومنها رباط العجم وأنشأ جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني، ووقفه على فقراء العجم، وجعل له فيه مشهداً دفن فيه عام ٥٥٥هـ، واحتوى الرباط على جزء من دار عثمان بن عفان رضي الله عنه مقابل باب جبريل عليه السلام. ومنها رباط ياقوت المارداني وأنشأ ياقوت المظفر المنصور المارداني عام ٧٠٦هـ / ١٣٠٦م، أثناء حكم السلطان محمد بن قلاوون بحارة الأغوات في آخر الطريق الموصل إلى البقيع، ووقف الرباط على الفقراء والمساكين والغرباء الرجال دون النساء، ويتصف الرباط بواجهة صغيرة تطل على الشارع، وبها المدخل الذي ينعطف مؤدياً إلى فناء مستطيل تحيط به الغرف ويتكون من دورين. ومنها رباط مظهر وأنشأ محمد مظهر الفاروقي النقشبندي عام ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م، ويطلق عليه مدرسة وتكية الشيخ مظهر، والظاهر أنه رباط خصص للأحمديين، ويقع الرباط في نهاية زقاق المواليد، ويتكون من ثلاثة طوابق يضم كل منها ٣٠ غرفة ودورات المياه، ومكتبة تقع في الطابق الثاني. ومنها رباط إسماعيل بن جعفر، ويقع بجوار مشهد إسماعيل بن جعفر الصادق غرب البقيع ملاصقاً للسور من الداخل ويسمى برباط المشهد ورباط كرباجة، وسكن فيه العياشي بعد وصوله المدينة ووصفه بأنه أفسح الأمكنة، وبه أماكن للوضوء وبثران^(٥٦).

(٥٦) الحصين، محمد بن عبد الرحمن، دور الوقف في تأسيس المدارس والأربطة والمحافظة عليها في المدينة

المنورة، مرجع سابق، ص ٨٨، ٩٤ - ٩٧

(٦، ٢، ٣) ملاجئ الأيتام

الملجأ، باعتباره مؤسسة للرعاية الاجتماعية، هو شكل متطور لمبنى الرباط^(٥٧). وتوضح حجج الأوقاف الخاصة ببعض الملاجئ الكثير من الشروط التي وضعها الواقف لتنظيم أعمال الرعاية لنزلاء الملجأ، سواء أكان اليتامى من الرجال أم النساء، بما في ذلك مقادير الأطعمة التي تقدم لهم، وما يحصل عليه كل نزيل من إعانة مالية شهرياً، بجانب ملابس للصيف وأخرى للشتاء^(٥٨).

ومن النماذج الحديثة في بيروت بلبنان "الميثم الإسلامي"، وقد تم تأسيسه عام ١٣٤١هـ/١٩٢٢م، وبدأ بإسداء العون والمؤازرة للأرامل وأطفالهن في مبنى مستأجر في محلة برج أبي حيدر. وبخروج العثمانيين تم وضع اليتامى المسلمين في محلة برج أبي حيدر المشرفة على بيروت القديمة، وسمي المبنى "ملجأ الأيتام الإسلامي". إلا أنه في سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، قامت فرنسا إبان الاحتلال بهدم هذا المبنى، فهب الأهالي لجمع التبرعات والأوقاف لبناء مبنى جديد، وبالفعل تم ذلك وافتتح المبنى الجديد عام ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م. وقام أهل الخير بالوقف على هذا الملجأ، ومن أهم الوقفيات في هذا الصدد، وقفية المرحومة فاطمة الشخبي التي أوقفتها على الأيتام الموجودين في هذا الملجأ، على أن يكون ريعها في حال انقراض الملجأ إلى الأيتام الموجودين تحت سلطة "جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت"، ثم من بعد ذلك لتعليم أولاد المسلمين الفقراء في بيروت، وبلغت قيمة قسم من وقفيتها سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٣م، ألف ليرة سورية^(٥٩).

(٥٧) الصالح، محمد بن أحمد بن صالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص

(٥٨) المرجع السابق، ص ١٩٦.

(٥٩) حنان إبراهيم قرقوتي، "تطور تنظيم الوقف في لبنان (نموذج رعاية اليتامى في مدينة بيروت)"، مجلة أوقاف، العدد ١٢، السنة السابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٧م، ص ص ١١٣-

(٦, ٢, ٤) دور المسنين

كانت هذه الدور تقام بغرض إيواء كبار السن الذين لا عائل لهم. ومن النماذج على ذلك أن إسماعيل رفعت أوقف عام ١٨٦٧ م لصالح ملجأ باب الخلق بالقاهرة الذي كان مخصصاً "لإنزال وإسكان عشرين امرأة من النساء والعجائز الفقيرات المسلمات والعاجزات عن الكسب الخاليات من الأزواج"^(٦٠).

(٦, ٢, ٥) مباني المعاقين

وقفت أموال لإمداد المقعدين والعميان بمن يقودهم ويخدمهم. وأول من جمعهم في دور خاصة للعناية بأمرهم هو الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦ هـ)، وأعطى لكل أعمى قائداً يعينه في تنقله ويشرف على العناية بأمره وخصص لكل مقعد خادماً يكون في خدمته^(٦١). وفي ذلك يقول أحد الباحثين: "ونشأت أوقاف .. للمقعدين والعميان يتوفر لهم فيها السكن والغذاء والكساء". روى الرحالة الفرنسيان الأخوان (جان وجيرون تارو) في رحلتهم إلى مراكش أن فيها ملجأ لا يوجد مثله في الدنيا بأسرها وهو بناء يكاد يكون بلدة وله ساحة لا يكاد الطرف يأتي على آخرها وفي هذا الملجأ ستة آلاف أعمى ينامون ويأكلون ويشربون ويقراءون، ولهم أنظمة وقوانين وهيئة وإدارة^(٦٢).

(٦, ٢, ٦) مؤسسات الحليب والسكر

كانت هناك مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر، وقد كان من مبررات صلاح الدين أنه جعل في أحد أبواب القلعة في دمشق ميزاباً يسيل منه الحليب، وميزاباً

(٦٠) ربهام أحمد خفاجي، أوقاف النساء: نماذج لمشاركة المرأة في النهضة الحضارية، دراسة للحالة المصرية في

النصف الأول من القرن العشرين، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٦١) محمود الحاج قاسم محمد، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، مرجع سابق، ص ١١٦.

(٦٢) عبد الله بن سليمان الباحث، الوقف والتنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص ١٥٣.

آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي إليه الأمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن ما يحتاجونه من الحليب والسكر^(٦٣).

(٦,٢,٧) مؤسسات الزبادي

تعد مؤسسات الزبادي من أطرف المؤسسات الخيرية التي وجدت في المدينة الإسلامية، حيث إنه كان يحدث كسر للزبادي أثناء حمل الأولاد لها وهم في طريقهم إلى البيت، فيأتون إلى هذه المؤسسة ليأخذوا زبادي جديدة بدلاً من المكسورة^(٦٤). ولا شك فيما كان لهذه النوعية من المؤسسات الاجتماعية من الدور في رفع الحرج عن الأولاد وعن الخدم الذين يكسرون الزبادي.

(٦,٢,٨) خزانات الكسوة

ظهر هذا النوع من الأوقاف لدعم الفقراء بتوفير الكسوة في فصلي الشتاء والصيف، ومن تلك الخزانات كانت الخزانة التي أنشأها المعز لدين الله الفاطمي في قصره بالقاهرة. وقد قال عنها ابن أبي طي "وعمل يعني المعز لدين الله داراً وسماها دار الكسوة كان يفصل فيها من جميع أنواع الثياب والبز ويكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء والصيف وكانت لأولاد الناس ونسائهم كذلك، وجعل ذلك رسماً يتوارثونه في الأعقاب وكتب بذلك كتباً وسمى هذا الموضع خزانة الكسوة"^(٦٥).

(٦,٢,٩) مباني السجون

لأن مؤسسات السجون هي مؤسسات رعاية اجتماعية في المقام الأول، تهدف إلى تهذيب السلوك وتقويم الاعوجاج في أفعال المساجين، فقد التفت الوقف إلى هذه

(٦٣) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٢٧.

(٦٤) المرجع السابق، ص ١٢٧.

(٦٥) المقرزي، الخطط المقرزية، المجلد الثاني (١)، لبنان: دار إحياء العلوم، ١٩٥٩م، ص ٢٥٤.

المؤسسات ، فكانت هناك المؤسسات الوقفية لتحسين أحوال المساجين ، ورفع مستواهم وإمدادهم بالغذاء اللازم^(٦٦) ، فقد كان في تونس ، على سبيل المثال ، حبس "على المسجونين بحبس الخليفة داخل القسبة من تونس. وحبست فاطمة عثمانة على سجناء القسبة أموالاً تصرف على طعامهم في رمضان"^(٦٧).

ولم يتوقف دور الوقف على توفير الطعام للمساجين فقط ، بل امتد كذلك إلى الاهتمام بتوفير الرعاية الصحية للمسجونين من المرضى. وقد لاحظ ، علي بن عيسى الجراح ، وزير الخليفة المقتدر بالله العباسي في القرن الثالث الهجري ، ضرورة ذلك فكتب إلى سنان بن ثابت ، رئيس أطباء بغداد حينئذ ، فقال : "فكرت - مد الله في عمرك - في أمر من في الحبوس وأنهم لا يخلون - مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم - أن تنالهم الأمراض وهم معوقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونهم من الأطباء فيما يعرض لهم ، فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم وتحمل إليهم الأدوية والأشربة ويطوفون في سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى"^(٦٨).

(١٠، ٢، ٦) مؤسسات الرعاية الاجتماعية للحيوان

نجد في الأوقاف القديمة أوقافاً لرعي الحيوانات المسنة العاجزة. ومنها أرض المرج الأخضر في دمشق ، فإنها وقفت للخيول العاجزة التي يأبى أصحابها الإنفاق عليها لعدم الانتفاع بها ، فترعى في هذه الأرض حتى تموت. ومن أوقاف دمشق وقف للقطط تأكل منه وترعى وتنام ، حتى لقد كان يجتمع في دارها المخصصة لها مئات القطط الفارحة السمينة التي يقدم لها الطعام كل يوم وهي مقيمة لا تتحرك إلا للرياضة والنزهة^(٦٩).

(٦٦) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٦٩.

(٦٧) أحمد قاسم، الوقف في تونس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مرجع سابق، ص ٤١-٤٢.

(٦٨) محمود الحاج قاسم محمد، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، مرجع سابق، ص ص

١١٢-١١٣.

(٦٩) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١١٣.

كما كانت هناك أوقاف في المسجد الأموي تقدم الطعام للقطط ، وقد ظهرت صورة هذا العمل في أعمال الفسيفساء بالجامع ، حيث وجدت الصور التي تعيد للأذهان تقديم الطعام للقطط عن طريق الوقف^(٧٠).

(٦,٣) المنشآت التجارية

تمثلت المباني التجارية التي ساهم الوقف في ازدهارها وزيادة عمراتها في الوكالات ، والأسواق ، والقيساريات ، والمحلات التجارية. وكانت المباني التجارية تقام من أجل أغراض الوقف وليس الموقوفين ، حيث يقوم الواقف بوقف الحان أو الوكالة من أجل أن يصرف ريعها على العين الموقوفة سواء كانت مسجداً أو مدرسة أو مكتبة أو بيمارستاناً وغيرها ، لذا فإن ازدهار هذا النوع من عمران المدينة الإسلامية ، قد لعب فيه الوقف دوراً غير مباشر. لقد ساهمت المنشآت التجارية الموقوفة في جذب التجار ، وتسهيل حركتهم بين المدن الإسلامية المختلفة ، وكذلك بينها وبين مختلف البقاع العالمية ، كما ساهمت المباني السكنية التي كان يسكنها التجار مثل الوكالات ، والحنانات ، والفنادق في تطور حركة التجارة عموماً في المدينة الإسلامية.

(٦,٣,١) الوكالات

وجدت الوكالات داخل المدينة بالقرب من المنطقة التجارية ، وكانت مخصصة لإقامة التجار القادمين من البلاد المجاورة^(٧١). وبالطبع كانت الوكالة ذات وظائف متعددة ، فقد شملت التجارة والسكن. ولأن السكن كان مخصصاً للتجار بمعنى أن وظيفة السكن كانت تابعة للوظيفة التجارية ؛ فقد رأينا تصنيف الوكالات ضمن المباني التجارية التي لعب الوقف فيها دوراً كبيراً.

G.,Michell, *Architecture of the Islamic World, its History and Social Meaning*, (op. cit.), p. 45(٧٠)

(٧١) صالح لمعي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق، ص ٧٣.

ويتكون مبنى الوكالة من طابق أرضي يشتمل على حوانيت مطلة على الشارع، وحواصل عبارة عن غرف معقودة بقبب دائرية تفتح هذه الحواصل على ممر مسقوف يفتح بدوره على الصحن بعقود محمولة على أكتاف ضخمة، ويلحق بالمبنى مسجد صغير، وفي بعض الأحيان سبيل. ويكون السكن في غرف منفصلة أو مساكن من عدة طوابق، كما هو الحال في أغلب وكالات العصر المملوكي الجركسي. ويقيم التاجر بالسكن حتى يبيع تجارته^(٧٢).

ومن أشهر الوكالات بمدينة القاهرة كانت وكالة الغوري، وقد بنيت في الفترة من ٩٠٩-٩١٠هـ / ١٥٠٤-١٥٠٥ م، وتتكون من طابق أرضي به الحوانيت. ويتكون السكن من ثلاثة طوابق يتم الاتصال بينها عن طريق سلم داخلي يتغير موقعه بين كل طابق وآخر، كذلك يوجد فراغ رأسي يربط بين الأدوار الثلاثة، وتطل النوافذ على الصحن، وكلها مغطاة بالمشربيات من الخشب الخرط، الشكل رقم (٦،٥).

كما كانت بالقاهرة وكالة جمال الدين الذهبي، وهي مما أوقفه جمال الدين الذهبي من جملة أوقافه (الوكالة، ومطبخ السكر، والربع، والقاعة) للصرف من ريعها على السبيل وتعليم القراءة لأيتام المسلمين، وقراءة القرآن^(٧٣).



الشكل رقم (٦،٥). الفناء الداخلي لوكالة الغوري بالقاهرة^(٧٤).

(٧٢) المرجع السابق، ص ٢٦

(٧٣) محمد، رفعت موسى، الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية، مرجع سابق، ص ٩٩

(٧٤) <http://www.islamonline.net/arabic/arts/2001/01/article1.shtml>

وتتكون الوكالة من قسمين ؛ قسم خاص بالتجارة وسكن التجار ، وقسم ثان خاص بالسبيل والكتّاب. ولهما واجهتان رئيستان ؛ الواجهة الجنوبية الشرقية أهمهما نظراً لوجود مدخل الوكالة بها ، وتطل على شارع المقاصيص ، والواجهة الثانية هي الواجهة الجنوبية الغربية وتشرف على حارة العدوية ، أما الواجهتان الأخريان للوكالة فهما الواجهة الشمالية الشرقية وهي ملاصقة لعقار ، والواجهة الشمالية الغربية وهي ملاصقة لوكالة عثمان كتخدا^(٧٥).

(٢, ٣, ٦) الأسواق والحوانيت

كلمة سوق هي الكلمة المرادفة للكلمة الفارسية بازار ، أما حانوت فتعني دكان. وكانت الأسواق تحتوي على حوانيت يتراوح عرض الحانوت بين اثنين وثلاثة أمتار. وقد كانت منطقة قصبة مدينة القاهرة (الشارع الأعظم وما يجاوره)، على سبيل المثال ، بها حوالي اثنا عشر ألف حانوت وجدت في القرن الخامس عشر الميلادي. وكان من جملة الأسواق ؛ سوق السلاح ، وسوق الصناديق (حيث تباع الصناديق)، وسوق الكعكيين، وسوق الخراطين، وسوق العطارين، وسوق القزازين، ... إلخ^(٧٦). ذكر الإصطخري: "أن عمرو بن الليث الصقّال بنى في بزرنج (بلدة في إيران) سوق عمرو ووقفه على المسجد الجامع والبيمارستان والمسجد الحرام ، وغلة هذا السوق في كل يوم نحو ألف درهم ، وكانت أسواق مدينة بزرنج غاية في العمارة^(٧٧). وكان من جملة الأوقاف التي أوقفها عارف حكمت على مكتبته بالمدينة المنورة ، كما جاء في نص وثيقة الوقف "... ووقفت أبنية ثمانية مع أبواب دكاكين ذات

(٧٥) المرجع السابق، ص ١١٨.

(٧٦) صالح لمي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق، ص ٧٤ - ٧٥.

(٧٧) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٦٨.

قرب ومنها واحد دكان للخضروات وواحد دكان القصاب ، وواحد دكان البقالة وواحد دكان العطارة ، وأربعة أخرى" (٧٨).

وقد كان من جملة أوقاف السلطان قلاوون على بيمارستان قلاوون مجموعة كبيرة من الحوانيت ، ذكرت في وثيقة الوقف "وخان سرور والسقطين وغير ذلك ، يشتمل على حوانيت كل منها يغلق عليه زوج أبواب وبعضها بدراريب ولكل منها منابل دائرة يعلوها شرفة ، في الحد القبلي منها سبعة عشر حانوتاً ومقعدان ، وفي الحد البحري منها ستة حوانيت كل منها بصدرة باب بغير باب عليه ، اثنان منها بدائرها رفوف ، ويجاورهما ستة حوانيت أيضاً يغلق على كل منها زوج أبواب ، وبالقيسارية المذكورة طريقان يتوصل من كل منهما إليها بغير باب عليهما ، ومقعدان في الحد البحري ، وفي الحد الشرقي ثلاثة حوانيت تعلوها شرفة ومنابل دائرة يغلق على كل منها زوج أبواب ، وفي الحد الغربي تسع حوانيت كل منها يغلق عليه زوج أبواب وبه شرفة ومنبل دائر ، وعدة الحوانيت التي بباطن القيسارية المذكورة اثنان وعشرين حانوتاً ... " (٧٩).

كما أوقف خسرو بك ثلاث وقفيات كبيرة تضمنت منشآت عديدة ومتنوعة ، كان منها ٦٠ دكاناً ، ومطحنة كبيرة بعشرة أحجار في قرية فيتا تشيشته و ١٥٠ خلية نخل في قلعة دوبور ؛ وقد كان لهذه المنشآت دورها في تطور سراييفو وتحولها من بلدة أو قسبة إلى مدينة بالمفهوم العثماني ، وكان ذلك في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي (٨٠).

(٧٨) يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي، مرجع سابق، ص ٥٤.

(٧٩) الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ابن حبيب، تحقيق: محمد محمد أمين، تذكرة التنبيه في أيام المنصور

وبنيه، ج ١، مرجع سابق، ص ٣٤٢-٣٤٣.

(٨٠) محمد الأرناؤوط، وقفية مدرسة الغازي خسرو بك في سراييفو، مرجع سابق، ص ١١٠-١١٢.

(٦,٣,٣) القيساريات

اشتقت كلمة قيسارية من كلمة قيصري (سوق القيصر)، وتختلف القيسارية عن السوق، فهي عبارة عن مبنى به عدة ممرات مسقوفة توجد حول صحن كبير ويكون له عدة مداخل متقابلة. وتحتوي القيسارية على محلات للبيع ومخازن وورش. ويغلب في كثير منها وجود غرف سكنية في الطابق العلوي، وغالباً ما شغلها أصحاب المحلات بالطابق الأرضي^(٨١). وقد ذكر المقرئزي أنه في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي كان بالقاهرة سبع وثلاثون قيسارية^(٨٢).

(٦,٤) المنشآت الصناعية

لم يغفل الواقفون عن إجراء الأوقاف على المنشآت ذات النشاط الصناعي، باعتبار الصناعة من العناصر والمكونات المهمة في المدينة، وقد ساهمت الأوقاف في أن تكون الصناعة أحد العناصر المهمة في اقتصاد المدينة الإسلامية، لما حققه الوقف من خلال المنشآت الصناعية الموقوفة من ازدهار لبعض الحرف وتطورها.

(٦,٤,١) صناعة المعدات الحربية

كان هناك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله، يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجونه إليه من سلاح وذخيرة وطعام وشراب، وكان لها أثر كبير في صد غزوات الروم أيام العباسيين، وصد غزوات الغربيين في الحروب الصليبية عن بلاد الشام ومصر. كما كانت توقف بها الخيول والسيوف والنبال وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله، وقد كان لذلك أثر كبير في رواج الصناعة الحربية وقيام مصانع كبيرة لها في

(٨١) صالح لمعي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٨٢) المرجع السابق، ص ٧٥.

البلاد الإسلامية، حتى كان الغربيون في الحروب الصليبية، يفتدون إلى البلاد الإسلامية — أيام الهدنة — ليشتروا من السلاح، وكان العلماء يفتون بتحريم بيعه للأعداء^(٨٣).

ولما ضعفت الخلافة الإسلامية توجه الواقفون بحس جديد نحو سد ثغرة القوة الحربية للخلافة، من خلال وقف الأوقاف على التعليم العسكري للدفاع عن حدود الخلافة والذود عن أقاليمها. ومن الوقفيات المهمة في هذا المجال وقفية الأميرة فاطمة ابنة إسماعيل، حيث إنها خصصت أربعين سهماً من ريع وقفيتها الهائلة — التي تعد إحدى أكبر الوقفيات في تاريخ مصر الحديثة — لدعم التعليم العسكري لصالح "أربعة تلاميذ من كل من المدرسة الحربية والمدرسة البحرية بدار الخلافة الإسلامية والسلطة العثمانية، منها اثنان على الأقل من الضباط أو من تلاميذ المدارس المتحصلين على الشهادات النهائية، ويكونون من المسلمين، يرسلون لتعليم صنع المدافع والأسلحة الحربية وفن البحرية من أحسن وأتقن وأمتن وأحدث طراز يصنع في الممالك الأجنبية سواء في أوروبا أو أمريكا أو بلاد اليابان أو أي جهة من الجهات التي تفوق غيرها في إنفاق ذلك في أي عصر وأي زمن"^(٨٤). هذا بالإضافة إلى "ما يلزم للأربعة المذكورين من المصاريف المدرسية والمأكل والمشرب، وغير ذلك مما يحتاجه الواحد منهم من كتب وأدوات تعليم وأجر السفر في الذهاب والإياب والسكنى والكسوة التي تلزم، وغير ذلك مما هو لازم إعطاؤه على سبيل المصاريف الشخصية". ولم تقف الوقفية عند هذا الحد بل قدمت حوافز للطلاب للمضي قدماً في الهدف الذي كانت الأميرة ترمي إليه، والتيقن من إمامهم بالعلوم التي أرسلوا لتعلمها، وذلك من خلال عقد امتحان لهم

(٨٣) السباعي، مصطفى، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ١٢٦.

(٨٤) ريهام أحمد خفاجي، أوقاف النساء: نماذج لمشاركة المرأة في النهضة الحضارية، دراسة للحالة المصرية في

النصف الأول من القرن العشرين، المرجع السابق، ص ص ٢٨-٢٩.

بعد العودة إلى الوطن بديوان الحربية بدار الخلافة الإسلامية والسلطنة العثمانية "بمعرفة من لهم معرفة تامة بالعلوم والفنون التي تلقاها ذلك التلميذ ... ومتى ظهرت نتيجة الامتحان عن إحراز ذلك التلميذ للعلوم والفنون والصناعات التي تدل عليها الشهادة التي بيده يصرف للتلميذ الذي يظهر أنه أرقى من غيره في الامتحان وأحرز النمر العالية زيادة عن غيره مائة جنيه مصري عن كل سنة أقامها في المدارس الأجنبية التي تعلم بها تلك العلوم والفنون والصناعات ، ويصرف لكل تلميذ والتلامذة التي تليه في درجة الامتحان خمسون جنيهًا عن كل سنة من سني الدراسة التي أقامها بالمدارس الأجنبية مدة التعليم المذكور ، بحيث يكون صرف تلك المبالغ دفعة واحدة للتلامذة المذكورين" (٨٥).

وقد طرحت هذه الوقفية رؤية إستراتيجية متقدمة وناضجة للنهضة والتنمية تركز على عبور فجوة التخلف في المعرفة ، تقوم هذه الرؤية على فكرة الاستثمار بعيد الأمد في المعرفة والعلوم الهادفة إلى تنمية قدرات وعناصر القوة وتوليدها ذاتياً ، وليس إلى امتلاكها أو شرائها ، بحيث تفنى ، أو تبلى بعد فترة محدودة من الزمن. حيث ركزت الفكرة على تنمية المورد البشري المسلم من خلال إمداده بالمعارف ، والعلوم الحديثة ، بحيث يصير الفرد بؤرة تنمية منتجة تؤتي ثمارها باستمرار (٨٦).

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، حتى تكون الصناعة قائمة على العلم ، فقد اهتمت الأميرة ، وكما سبق توضيحه ، بالوقف على تعليم فنون الصناعة الحربية ، إلا أنها في نفس الوقت لم تغفل الوقف على الصناعة ذاتها تحقيقاً لهدف الحماية من الأعداء ، فجاء في نص الوقفية " ... فإذا اكتفت حكومة دار الخلافة بمن تعلم تلك

(٨٥) هند مصطفى علي ، الأميرة فاطمة بنت إسماعيل: الوقف كمشروع إصلاحى ، مرجع سابق ، ص ٩٩ .

(٨٦) المرجع السابق ، ص ٩٨ .

العلوم والفنون والصنائع على وجه ما ذكر يصرف الأربعون سهماً المقررة المذكورة لنظارتى الحربية والبحرية بالسوية، فما يخص نظارة الحربية من ذلك يصرف في ثمن أدوات لصناعة سفن حربية لدار الخلافة الإسلامية والسلطة العثمانية من أحسن وأتقن وأمتن وأحدث طرز وقتها مما يصنع في الممالك الأجنبية، وغير ذلك مما يلزم للبحرية أياً كان نوع ذلك اللازم وفي دفع مهايا وأجر الصناع، لذلك وغير ذلك حسبما يراه من يكون ناظراً للبحرية، وما يخص نظارة الحربية من ذلك يصرف في صناعة مدافع وبنادق وأسلحة وعربات نقل كل ذلك من أحسن وأتقن وأمتن وأحدث طرز وقتها مما يصنع في الممالك الأجنبية"^(٨٧).

(٢، ٤، ٦) مطابخ السكر

كان مطبخ السكر يتكون من مجموعة من العناصر المعمارية وهي: دار القصب، بيت النوب، المدار أو الحجر، دولاب التخت، البهو، دار البقر، المسبك، بيت الصب، بيت المدفن^(٨٨). وقد قامت على مطابخ السكر الكثير من الصناعات خاصة صناعة الحلوى، وهي التي وصلت أنواعها في العصر المملوكي، مثلاً، إلى ثلاثة وخمسين نوعاً^(٨٩).

وقد أوقف السلطان قايتباي بالقاهرة سنة ٨٧٩هـ / ١٤٤٥م مطبخاً للسكر، وقد جاء في نص الوثيقة "المطبخ المعد لطبخ السكر وجميع المكان الخرج المجاور لذلك الكاين ذلك جميعه بالقاهرة المحروسة داخل درب يعرف بدرب شمس الدولة بجوار

(٨٧) المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٨٨) رفعت موسى محمد، الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية، مرجع سابق، ص ٩٧.

(٨٩) فهمي عبد العليم، العمارة الإسلامية في عصر المالليك الجراكسة "عصر السلطان المؤيد شيخ"، مرجع

سابق، ص ٢٤.

بناء يعرف بابن البرقي المشتمل على بوابة ومخازن وقدر نحاس وحل من النحاس" (٩٠).

وأوقف السلطان المؤيد شيخ، كما جاء في وثيقة أوقافه، مطبخاً للسكر بالأشمونيين بمدينة المنيا بمصر، وسط أرض زراعية كبيرة خصصت لزراعة قصب السكر، وكان المطبخ يحتوي على معصرة لعصر القصب وأماكن لحفظه واستخلاص السكر والعسل منه (٩١).

كما أوقف جمال الدين الذهبي مطبخاً للسكر بالقاهرة أيضاً، وقد جاء ذكر ذلك المطبخ في وثيقتين من وثائق أوقافه، ففي الوثيقة الأولى يحدد فيها موقعه فتذكر الوثيقة "... الحد ... الغربي ينتهي إلى الزقاق الغير نافذ الفاصل بين الأبنية المذكورة (يقصد الوكالة والسبيل والكتّاب) وبين مطبخ السكر ...". كما ورد ذكره في الوثيقة الثانية "... وقفه المفسر بالمستند المنوه بذكره وهو المطبخ المعد لطبخ السكر". وأيضاً ورد ذكره صراحة في وثيقة أخرى "مطبخ السكر المعروف بالمرحوم الخواجا جمال الدين الذهبي" (٩٢).

(٦،٥) المنشآت العسكرية

ساهم الوقف في تحمّل المسلم لمسئوليته في الدفاع عن وطنه والمساهمة في ذلك، فمنذ بداية الدولة الإسلامية ظهر وقف السلاح والخيل وغيرها من المنقولات التي تساعد في الحرب، فقد ثبت أن خالد بن الوليد رضي الله عنه وقف سلاحه للغزو في سبيل الله،

(٩٠) رفعت موسى محمد، الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٩١) فهمي عبد العليم، العمارة الإسلامية في عصر المماليك الجراكسة "عصر السلطان المؤيد شيخ"، مرجع سابق، ص ٢٤.

(٩٢) رفعت موسى محمد، الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية، مرجع سابق، ص ٩٧.

وامتدحه الرسول ﷺ على ذلك حين قال: "... وأما خالد: فإنكم تظلمون خالداً قد احتبس أدرعه وأعتاده في سبيل الله" (٩٣).

إن إسهامات الوقف في مجال الفتوحات الإسلامية كانت من السمات الأساسية والعناصر المحركة لامتداد المجتمع الإسلامي عبر أقاليم مختلفة. وفي هذا المجال أقرّ الفقهاء وقف الأسلحة والحيوانات المخصصة للحروب كالبغال والخيول، كما ساهم الوقف في عمارة الرباطات في الثغور للمجاهدين، وتأمين احتياجاتهم عن طريق وقف كل ما يلزم عليها من الأدوات المطلوبة كالسيوف والدروع وسائر أدوات الجهاد^(٩٤)، وقد استدلل الفقهاء على ذلك من حديث وقف خالد بن الوليد ﷺ الذي تقدم بيانه.

كما "كانت هناك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله. ويتبع ذلك وقف الخيول والسيوف والنبال وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله، ويتبع ذلك أوقاف خاصة يعطى ريعها لمن يريد الجهاد، وللجيش المحارب حين تعجز الدولة عن الإنفاق على كل أفرادها، وبذلك كان سبيل الجهاد ميسراً لكل مناضل" (٩٥).

هذا بجانب إنشاء القلاع والحصون والأسوار التي تحمي المدن، وبناء الاستحكامات عليها، وتزويدها بالسلح، والوقف على هذه الأماكن بعقارات لها ريع حتى يتم إصلاحها وترميمها والحفاظ عليها، وإنشاء وقفيات لصالح المرابطين بهذه القلاع، ولصالح الأسرى حتى يتم افتكاكهم بالفداء أو بالمبادلة، ورعاية أسرهم^(٩٦). فقد أوقف صلاح الدين الأيوبي جميع الموارد المالية المتحصلة من مدينة بلبس بمصر

(٩٣) صحيح البخاري ٢١٣/٤.

(٩٤) ياسر عبد الكريم الحوراني، تجربة الوقف في إطار عالمي، مرجع سابق، ص ١٧٩.

(٩٥) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ١٦٩.

(٩٦) جمعة محمود الزريقي، "مستقبل المؤسسات الوقفية: في نطاق الثابت والمتغير لنظام الوقف الإسلامي"، مجلة

أوقاف، العدد ٧، السنة الرابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٤م، ص ٧٩.

لفك أسرى بعض سكان هذه المدينة الذين أسرههم الصليبيون في حملتهم على مصر سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م، وظل هذا الوقف يؤدي الغرض منه لمدة أربعين عاماً، حتى تم فك أسر جميع أسرى بلبيس. كما أوقف القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني دار التمر على فكاك الأسرى، وقد وصفها المقرئ نقيلاً عن ابن المتوج فقال إنها تحتوي على "مخازن وأخصاص وشون، ومنازل علوية، وحوانيت، بمجازها وظاهرها، وهي اثني عشر حانوتاً، وخمسة مقاعد، وثمانية وخمسون مخزناً، وخمسة عشر خصاً، وست قاعات، وساحة، وستون شون، وخمسة وسبعون منزلاً، وخمسة مقاعد علوية"^(٩٧).

وفي تونس، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، حبس الناس على الأسوار والأبراج والثكنات، وكثرت هذه الأوقاف بشكل خاص على تحصينات تونس وبنزرت والكاف والقيروان وسوسة والمنستير وشفافس^(٩٨). فقد كانت الثغور المغربية في حاجة إلى تحصينات مستمرة بسبب تعرضها لهجمات الأسبان البرتغال والفرنسيين آنذاك، مما يجعل صد الكفار واتقاء شرهم ببناء السور يحتل أولوية، باعتباره سبيلاً إلى حفظ الدين، ناهيك عن حفظ الأنفس، والنسل، والأموال. وقد سئل في ذلك الفقيه القاضي أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحائك التطواني، عن تصحيح ما أفتى به غيره من جواز إصلاح أسوار البلد مما جمع من أحباس مكة، فأجاب: "إنه صحيح آت على ما به الفتوى، عملاً بما رواه ابن حبيب عن أصبغ عن

(٩٧) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٦٢ - ٦٨.

(٩٨) أحمد قاسم، الوقف في تونس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مرجع سابق، ص ٤٧.

ابن القاسم. وبه قال ابن الماجشون وأصبح. وإن ما أريد به وجه الله تعالى فلا بأس أن يصرف بعضه في بعض" (٩٩).

كما بنى الأمير يشبك بن مهدي الدوادار الكبير في طرف منطقة الإسكندرية بمصر برجاً أو قلعة صغيرة، في موقع مناسب يساعد بجانب قلعة قايتباي على ضرب أي محاولة لسفن العدو الحربية لدخول ميناء الإسكندرية الشرقي أو مهاجمة المدينة، وأوقف الأمير يشبك على هذا البرج، بجانب فقراء بجوار الجامع الأزهر، عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م أراضى بالوجه البحري بمصر بناحية صندلة بالغربية، ومنية خلف بالمنوفية، وأراضى بالوجه القبلي بناحية ماكوسة الغربية والشرقية، ومنية بني خصيب بالأشمونين، وجعل من مصاريق وقفه ما يصرف على "أرباب الوظائف، والمقاتلة أجناد العدة التي ترصد للجهاد في سبيل الله تعالى، كل ذلك بالبرج المذكور أعلاه". كما أوقف الشيخ أبو عبد الله محمد الديروطي الشافعي برجاً بجمع البحرين بالبر الغربي بدمياط، كما أوقف عليه بعض الأعيان للصرف من ريعها على عمارة البرج وعلى المجاهدين والمرابطين به، حيث جاء في نص وثيقة الوقف "وأن يكون بالبرج المذكور عشرة أنفس مرابطين به ... ومؤذن وخدام وبواب وخازن للسلاح ومن يحفظه ويصقله وغير ذلك من أرباب الوظائف، وأن يكون كل منهم يحسن الرمي بالنشاب والبندق والرصاص والمدافع ..." (١٠٠).

(٩٩) عبد الرحيم العلمي، الاجتهادات الفقهية في نوازل الوقف عند المالكية، مرجع سابق، ص ٥٠-٥١.

(١٠٠) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٢٢٦-٢٣٠.

الوقف ومنشآت المرافق العامة

تعد المرافق العامة من العناصر المهمة في المدينة ؛ فإلى جانب المكونات العمرانية التي تتمثل في المباني والمنشآت ذات الوظائف المحددة، توجد المرافق العامة التي تمثل الخدمات الخاصة بالمدينة، والتي تساهم في نجاح بقية عناصر المدينة من مبان دينية، وسكنية، وتعليمية، وثقافية، وطبية، واجتماعية، واقتصادية، وصناعية، وغيرها.

هذا وقد لعب الوقف في ازدهار عمران المرافق العامة نفس الدور الذي لعبه في عمران المنشآت الوظيفية في المدينة الإسلامية، وقد سبق توضيح أبعاده في الفصول السابقة من هذا الكتاب، من حيث كثرة العمران، وتنوعه، وشموله، ودوامه من خلال ما كان يصرف على المباني والمنشآت من ريع الأوقاف التي كان ينص عليها الواقفون في وثائق أوقافهم.

وتأتي المنشآت المائية في مقدمة المرافق العامة التي ارتبط وجودها في المدينة الإسلامية بالوقف، كما كانت هناك الطرق والترع والسكك الحديدية، بجانب الحمامات والمطاهر، والمدافن الخاصة.

(٧، ١) المرافق المائية

كان أول وقف مائي في المدينة المنورة هو بئر رومة، وقد وردت في قصة وقفه روايات عدة ؛ ففي إحداها ما ذكر أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قام بشراء بئر رومة، وكانت

البئر ملكاً ليهودي يبيع ماءها للمسلمين، فرغب رسول الله ﷺ المسلمين في شرائها وقال لهم: من حفر رومة فله الجنة^(١). وفي رواية للبغوي^(٢): كانت لرجل من بني غفار عين يقال لها "رومة" وكان يبيع منه القربة بمد، فقال له النبي ﷺ: "تبيعنيها بعين في الجنة" فقال: يا رسول الله ليس لي ولا لعيالي غيرها. فبلغ ذلك عثمان رضي الله عنه فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: أتجعل لي ما جعلت له، قال نعم. قال: قد جعلتها للمسلمين^(٣). كما روي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه اشتراها منه على دفعتين الأولى بخمسة وثلاثين ألف درهم واتفق مع صاحب البئر على أن يكون له يوم ولصاحب البئر يوم، فإذا كان يوم عثمان استسقى المسلمون يومين، ثم اشترى الدفعة الثانية بثمانية آلاف دراهم وجعلها كلها وقفاً على المسلمين^(٤). كما روي في رواية أخرى أن النبي ﷺ لما قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال: من يشتري بئر رومة فيجعل فيها دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة؟ فاشتراها عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان دلوه فيها كدلاء المسلمين^(٥).

ومنذ ذلك الحين أصبح تسهيل الماء العذب وتسهيل الحصول عليه من أهم الوجوه التي اهتم بها الواقفون، وانتشرت السقايات والأسبلة التي كان الغرض من إقامتها وتشبيدها توفير مياه الشرب للمحتاجين في أماكن محددة داخل المدن، وقد اهتم السلاطين والموسرون بهذا الجانب، سواء للناس أو الحيوانات^(٦).

(١) من حديث رواه البخاري برقم ٢٧٧٨.

(٢) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٣) البخاري ٤٠٦/٥ حديث رقم ٢٧٧٨، والدارقطني ١٩٩/٤ حديث رقم ١١، والبيهقي ١٦٧/٦.

(٤) السيد أحمد ياسين أحمد الخياري، تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، مرجع سابق، ص ١٨٣-١٨٤.

(٥) زكي الدين شعبان، و أحمد الغندور، أحكام الوصية والميراث والوقف في الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤٦٩.

(٦) عبد الله بن سليمان بن عبد العزيز الباحوث، الوقف والتنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص ١٤٨.

والواقع أن المسلمين خلال العصور الوسطى كانوا يعدون السبيل أعظم ما يثاب عليه المرء من أعمال البر. وإذا كان أحد المؤرخين الفرنسيين قد أحسن القول حين ذكر أن أمجاد أي شعب لا تقاس إلا بما يبذله في سبيل الحفاظ على الماء وحسن توزيعه، فقد سبقه وبزه في حكمته الحديث الشريف المنقوش على أحد أسبلة القاهرة، والذي رد الرسول ﷺ فيه حين سئل عن خير عمل من أعمال البر فأجاب: "سقاية الناس"^(٧).

(١، ١، ٧) الآبار

كان حفر الآبار وإنشاء القنوات وشق الترغ من الأمور التي أولاها الواقفون العناية في أوقافهم على امتداد التاريخ الإسلامي الطويل وعبر البلاد الإسلامية الواسعة، وبشكل خاص في مكة، والمدينة، والطرق المؤدية إليهما، لتسهيل خدمة الحجيج، وكذا المدن الزراعية مثل القاهرة، ودمشق، وبغداد، والبصرة. فقد كان بالمدينة المنورة عدة آبار يستقى منها، ومن بينها بئر بضاعة وبئر حاء، وقد تصدق ببئر حاء أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه، ومنها بئر السقيا، وبئر الأعواف، وبئر أنس، وبئر جاسوم، وبئر الأغرس، وغيرها^(٨). كما اشتهر عمرو بن العاص أثناء ولايته على مصر، بحرصه الشديد على إصلاح القنوات المائية في مصر، وكانوا لا يدعون ذلك صيفاً ولا شتاءً، وحفر أبو موسى الأشعري رضي الله عنه آباراً على طريق الحج للقادمين من البصرة، وهي المعروفة حالياً باسم (حفر الباطن). كما أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر عامله على الكوفة أن يحفر لأهاليها نهراً يسقون منه فقام رضي الله عنه بحفره، وحفر

(٧) عماد جعفر ساجواني، تأثير المنهج الإسلامي على الطابع والشخصية في تخطيط المدينة، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٨) محمد حمزة إسماعيل الحداد، الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية أثرية)،

أنهاراً أخرى في نواحي أخرى. كما كثر حفر الآبار والقنوات في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية سواء بأمر منه أو من أمرائه. ولم يقتصر الأمر على حفر الآبار وشق الترغ والقنوات، بل امتد إلى إقامة السدود عند الحاجة أيضاً، كما فعل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه مع وادي مهزور في المدينة، حيث إنه أقام سداً لمنع وصول السيل إلى الحرم النبوي الشريف^(٩).

ومن الأمثلة على توفير المياه على الطرق من البلاد المختلفة إلى مكة المكرمة خاصة لتوفير احتياجات الحجيج من المياه الموقوفة، ما كان على الطريق من القاهرة إلى مكة المكرمة، حيث كان أول ما يقابله ركب الحج من الآبار في عقبة "آيلة" بعد مسيرة ستة أيام من القاهرة حيث يستريح الركب بها يومين أو ثلاثة، والموقع الثاني لخط الرحال، وأخذ قسط من الراحة في "عيون القصب" بعد مسيرة خمسة أيام حيث يتوفر بها ماء جار عذب، وبعد مسيرة خمسة أيام أخرى يتوقف الركب في الوجه للتزود منها بمائها العذب الطيب، كما يتوقف ركب الحاج للتزود بالماء في الحوراء بعد مسيرة ثلاثة أيام، وفيها يتلقى أهل ينبع ركب الحاج بالتمر، وتستمر القافلة في السير والتزود بالمياه في المغيرة على مسافة يومين، ثم ينبع على مسافة يومين، ومنها إلى الدهناء مسيرة نصف يوم، وبها ماء طيب ثم تصل القافلة إلى بدر بعد مسيرة يومين، وبها ماء عذب، ومنها إلى رابغ مسيرة ثلاثة أيام ليبدأ الحجاج في الإحرام^(١٠).

(٩) عبد الله بن سليمان بن عبد العزيز الباحث، الوقف والتنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص ١٤٧-

١٤٨.

(١٠) محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، ج ٤، المغرب: وزارة الأوقاف

والشؤون الإسلامية، ١٩٩٦م، ص ١٨١.

(٧، ١، ٢) العيون

اهتم الواقفون أيضاً بإجراء العيون ، عن طريق تجميع مجاري السيول والأمطار في قنوات يتم حفرها لتجمع الماء العذب ثم يساق إلى المناطق المختلفة من المدن والقرى ، سواء للشرب أو للزراعة ومختلف أغراض الصناعة. وقد كان من أشهر هذه العيون التي أجريت من مال الأوقاف المختلفة عبر مراحل وأزمنة في أرض الحجاز ؛ عين زبيدة بمكة المكرمة ، وعين عرفات ، والعين العزيزية بمكة.

عين زبيدة بمكة المكرمة: لما بلغ السيدة زبيدة (زوج هارون الرشيد) معاناة سكان مكة المكرمة وحجاج بيت الله الحرام من قلة المياه ، بعد خراب العيون وانقطاع الماء عن مكة في أواخر دولة بني أمية^(١١) ، أمرت ببناء بركة بمكة وجلبت لها الماء من داخل حرم مكة ، إلا أن الماء كان قليلاً ولم يفي بحاجات السكان ، وحينئذ أمرت المهندسين بإجراء مياه عيون الحِل إلى مكة على الرغم من صعوبة الطريق نتيجة لمرتفعات الجبال ، وقد قدمت الكثير من الأموال ، وأخذت المياه طريقين هما ؛ عين حنين ، وعين عرفة. فقد اشترت السيدة زبيدة بساتين منطقة حنين وأنشأ لها المهندسون سداً لحجز مياه الأمطار ، كما جلبوا لها مياه عيون تلك البساتين وجرت في قناة إلى مكة رغم صعوبة الطريق ، وقد بدأت هذه الأعمال سنة ١٩٤ هـ / ٨٠٩ م ، وأكد ذلك الفاكهي بقراءة النص المكتوب على بركة زبيدة بالمعلاة ونصه "بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله الله وحده لا شريك له ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله بركة من الله مما أمرت به أم جعفر بنت أبي الفضل جعفر ابن أمير المؤمنين المنصور - رضي الله

(١١) عبد القدوس الأنصاري، تاريخ العين العزيزية ولحات عن مصادر المياه في المملكة العربية السعودية، جدة:

إدارة العين العزيزية، ١٩٦٩ م، ص ٣٨.

عن أمير المؤمنين - بإجراء هذه العيون سقاية لحجاج بيت الله وأهل حرمه ، طلب ثواب الله وقربة إليه على ידי يأسر خادمها ومولاها سنة ١٩٤ هـ^(١٢).

وقد تحدث الفاسي (٧٧٥-٨٣٢ هـ) عن عين زبيدة في كتابه "الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة" حين قال: "وأما العيون التي أجريت بمكة وبظاهرها فكثيرة، وليس منها الآن جار غير العين المعروفة بعين بازان، وهي في غالب الظن عين زبيدة، ولها في عينها نفقة عظيمة، يقال إنها ألف ألف وسبعمائة ألف دينار"^(١٣). كما وصفها اليافعي في القرن الثامن للهجرة فقال: "إن آثارها باقية ومشملة على عمارة عظيمة عجيبة مما يتنزه برؤيتها على يمين الذهاب إلى منى من مكة ذات بانيان محكم في الجبال تقصر العبارة عن وصف حسنه وينزل الماء منه إلى موضع تحت الأرض عميق ذي درج كثيرة جداً لا يوصل إلى قراره إلا بهبوط كاليريسمونه لظلمته يفرع بعض الناس إذا نزل فيه وحده نهراً فضلاً عن الليل"^(١٤).

عين عرفات: كان من مآثر السلطان سليمان خان في خدمة الحرم المكي، إجراء العيون، ومن أبرزها كانت عين عرفات إلى مكة المكرمة، وسبب ذلك أن العين التي كانت جارية بمكة هي عين حنين إذا كثرت المطر كثرت وزادت، وإذا قل المطر ضعفت؛ بل وربما انقطعت المياه فيها، وكثر اضطراب الحجاج والمناطق المجاورة، وعرض ذلك على السلطان سليمان خان، الذي أمر بإصلاح عين حنين وعين عرفات، وعين لها ناظراً اسمه مصلح الدين مصطفى من المجاورين بمكة، فبذل جهده في عمارتها وإصلاح قنواتها إلى أن جرت عين مكة، وملئت برك عرفة^(١٥).

(١٢) عادل بن محمد نور غباشي، أوقاف عين زبيدة في عهد الملك عبد العزيز، مرجع سابق، ص ١٣٤-١٣٧.

(١٣) تقي الدين أبو الطيب أحمد بن علي الحسيني الفاسي، تحقيق: مصطفى محمد حسين، الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، مرجع سابق، ص ١٣٠.

(١٤) ابتسام سالم، عين زبيدة، من الموقع التالي: <http://www.alfalaq.com/sam/sam14.htm>.

(١٥) عبد الكريم بن محب الدين القطي، إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، مرجع سابق، ص ١١٠-١٠٩.

العين العزيزية بمجدة: في القرن العاشر الهجري اهتم السلطان قانصوه الغوري بأزمة المياه في جدة فقرر جلب عين لها جارية وأنفق على ذلك مالا كثيرا، وكانت تسمى بالعين الوزيرية وقد استمر جريان هذه العين حتى القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، فانقطعت العين، وتم إصلاحها وأعيدت، ثم انقطعت مرة أخرى في القرن الثالث عشر الهجري. وفي أواخر هذا القرن وبالتحديد في سنة ١٢٧٠هـ نهض أحد تجار جدة وهو فرج يسر، حيث قام بجمع إعانات من تجار جدة وأغنيائها لإصلاح هذه العين وإجرائها من جديد واستمر جريانها قبل أن يعثرها الضعف سنة ١٣٠٢هـ. وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني اهتمت الحكومة بإيصال العين الوزيرية التي كان والي جدة قد أجراها، وسميت بالعين الحميدية، وقد نظمت هذه العين تنظيمًا شبه حديث، حيث بنيت لها خزانات وبرك، ووزعت مياهها في قنوات من أنابيب على أحياء مدينة جدة توزيعاً حسناً، وقد كان لهذه العين إدارة خاصة تدير شئونها وتنفق عليها وتتعاهد على خرابها بالإصلاح، ولكنها كانت دائمة انقطاع الماء، ورغم الاستعانة بآلات تقطير المياه من قبل الحكومة العثمانية التي بدأت بآلة كانت تسمى الكنداسة، وهي تعمل بالبخار وكان ذلك في سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، إلا أنها تعطلت هي وواحدة أخرى من اثنتين كانتا قد جلبتا سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م. إلا أن عدم كفاية الماء المقطر جعل الناس يفكرون في إعادة جريان العين الوزيرية، وجمعوا لذلك تبرعات خاصة، فقام الملك عبد العزيز آل سعود بإعادة تبرعات الناس وأمر بإجراء العين على نفقته وقفاً لله تعالى سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٧-١٩٤٨م^(١٦).

(١٦) عبد القدوس الأنصاري، تاريخ العين العزيزية ولحات عن مصادر المياه في المملكة العربية السعودية، مرجع

(٧، ١، ٣) السقايات

ورد في بعض المصادر التاريخية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد وضع في طريق السبيل بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويحمل من ماء إلى ماء، ويضيف ابن سعد في طبقاته فيذكر: "قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده أن عمر بن الخطاب استأذنه أهل الطريق بينون ما بين مكة والمدينة فأذن لهم وقال: ابن السبيل أحق بالماء والظل"، كما أن هناك إضافات في المصادر التاريخية اللاحقة توضح تفاصيل أكثر أهمية عن ذات الموضوع منها ما رواه الواقدي عن كثير بن عبد الله المزني عن جده أنه كان ممن قدم مع عمر إلى مكة المكرمة للعمرة سنة ١٧هـ/٦٣٨م "فمر - أي عمر رضي الله عنه - بالطريق فكلّمه أهل الطريق أن يبتنوا منازل ما بين مكة والمدينة ولم يكن قبل ذلك بناء، فأذن لهم وشرط عليهم أن ابن السبيل أحق بالظل والماء". ومن هنا يتضح أنه في عهد الخلفاء الراشدين وبصفة خاصة في عهد كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، لم يقتصر الاهتمام بتوفير المياه على شراء الآبار ووقفها والتصدق بها فحسب، بل إن ذلك شمل إقامة أبنية مخصصة لذلك الغرض وهي التي عرفت بالسقايات، ويستدل على ذلك من خلال ما رواه الإمام الشافعي (المتوفى سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م) بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه "أنه كان يشرب من سقايات كان يضعها الناس بين مكة والمدينة" (١٧).

ومن أهم السقايات في مكة المكرمة في العصر العباسي سقاية العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكانت تقع في المسافة بين بئر زمزم - من جهة الشرق - والكعبة، وقد عمّرت في خلافة المهدي العباسي (١٥٨ - ١٦٩هـ/٧٧٥ - ٧٨٦م)، كما حدث لها

(١٧) محمد حمزة إسماعيل الحداد، الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية

أثرية)، مرجع سابق، ص ١٥ - ١٦.

العديد من الإصلاحات والتجديدات والصيانة والتغييرات فيما بعد. وقد وصف الفاسي عمارة هذه السقاية في زمنها بقوله: "صفة هذه السقاية الآن بيت مربع في أعلاه قبة كبيرة سائرة لجميعة، والقبة من آجر معقود بالنورة (أي الملاط أو الجص)، وفي أسفل جدرانها خلا الجنوبي شبايك من حديد تشرف على المسجد الحرام، في كل جهة شباك من حديد، وفي جانبها الشمالي من خارجها حوضان من رخام مفردان، وباب السقاية بينهما، وفي هذا البيت بركة كبيرة تملأ من بئر زمزم، يسكب الماء من البئر في خشبة طويلة على صفة الميزاب متصلة بالجدار الشرقي من حجرة زمزم ويجري الماء منها إلى الجدار المشار إليه، ثم إلى قناة تحت الأرض حتى يخرج إلى البركة من فوارة في وسطها، وأحدث وقت عمّرت فيه هذه القبة سنة سبع وثمانمائة (١٤٠٤م)، وسبب عمارتها في هذه السنة أن القبة التي كانت في سقف هذه السقاية أكلت الأرضة (دودة الخشب) بعض الخشب الذي كان فيها فسقطت.." (١٨).

كما شاهد ابن أحمد القيسي أحد السقايات في المدينة المنورة ووصفها بقوله: "وبين المدينة المكرمة على يمين الطريق العين المنسوبة للنبي ﷺ، وعليها بنيان مستدير ومنبع العين في وسطه كأنه الحوض المستطيل وتحتة سقايتان مستطيلتان وقد ضرب بين كل سقاية وبين الحوض مجاز ويهبط إليها على أدراج وهي خمسة وعشرون درجاً..."، كما يضيف القاسي فيذكر أن بالمدينة أيضاً "... ثلاث سقايات داخل باب الحديد ينزل إليها على أدراج وماؤها معين وهي على مقربة من المسجد الشريف" (١٩).

واستمر الاهتمام بتشبيد المنشآت المائية في عصور الدولة الإسلامية فيما بعد، فقد شيد الوزير جعفر بن الفرات عام ٣٥٥هـ / ٩٦٥م، السبع سقايات، لتزويد سكان

(١٨) المرجع السابق، ص ١٨ - ٣٩.

(١٩) المرجع السابق، ص ٢٩.

الفسطاط بالماء اللازم لهم، وخاصة منطقة الحمروات، وذلك عندما انحسر ماء النيل عن تلك المنطقة. وقد جعل لها بئراً يؤخذ منها الماء إلى السقايات السبع، أنشأها وحبسها لجميع المسلمين الذين كانوا يحضرون الحمراء، وكتب عليها: "بسم الله الرحمن الرحيم، لله الأمر من قبل ومن بعد، وله الشكر وله الحمد، ومنه المن، على عبده جعفر بن الفضل بن الفرات وما وقفه له من البناء لهذه البئر وجريانها إلى السبع سقايات التي أنشأها وحبسها لجميع المسلمين وحبسها وسبله وقفاً مؤبداً لا يحل تغييره ولا العدول بشيء من مائه ولا ينقل ولا يبطل ولا يساق إلا إلى حيث مجراه إلى السقايات المسبلة، فمن بدله من بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه.. إن الله سميع عليم وذلك في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة - وصلى الله على نبيه وآله وسلم" (٢٠).

(٤, ١, ٧) الأسبلة

كانت أسبلة الماء، وحتى القرون الخمسة الأولى بعد الهجرة، تعرف بالسقايات، ثم اشتهرت باسم الأسبلة منذ أواخر القرن ٥هـ / ١١م، ولا سيما في الشام ومصر والجزيرة العربية، أما أقطار الغرب الإسلامي فقد ساد وانتشر فيها مصطلح السقاية، وصار مسمى لذلك النوع من الأبنية والمنشآت الخيرية (٢١).

وقد تطورت عمارة السقايات وصارت تسمى بالأسبلة، وهي وإن كانت تؤدي نفس الغرض من حيث سقاية الناس والدواب، إلا أن مبنى السبيل احتوى على ملحقات أخرى مثل الكتّاب الذي كان يقام بصفة أساسية أعلى مبنى السبيل لتعليم الأطفال من الأيتام خاصة علوم القرآن الكريم.

(٢٠) خالد عزب، فقه العمارة الإسلامية، القاهرة: دار النشر للجامعات - مصر، ١٩٩٧م، ص ٩٠-٩١.

(٢١) محمد حمزة إسماعيل الحداد، الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية

أثرية)، مرجع سابق، ص ٩.

وقد حظيت مباني الأسبلة بعناية فائقة من حيث اختيار مواقعها، وعمارتها، ومن حيث حليتها وكسوتها، بجانب الأوقاف الكثيرة المغلة التي أوقفت عليها كي يصرف من ريعها على أوجه الصرف المختلفة لاستمرار منفعتها ودوامها^(٢٢).

وقد انتشرت الأسبلة في مدن العالم الإسلامي جميعاً، وكانت عناية أهل البر بماء الشرب في مدينة سمرقند، على سبيل المثال، أعظم مما يتصور، فمن ذلك ما قاله ابن حوقل: "وقلما رأيت خاناً، أو طرف سكة، أو محلة، أو مجمع ناس إلى حائط بسمرقند يخلو من ماء محمد مسبل ... وذكر لي من يرجع إلى خبره أن سمرقند في المدينة، وحيطانها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادة على ألفي مكان يسقى فيه ماء المجدد مسبلاً عليه الوقوف من بين سقاية مبنية، وجباب نحاس منصوبة، وقلال خزف في الحيطان مبنية ..."^(٢٣).

وقد ظهر السبيل، كمنشأة معمارية متكاملة، على الأرجح في العصر المملوكي، واستمر حتى القرن التاسع الميلادي، ومهما اختلفت طرز الأسبلة وأشكالها، فإن تكوينها المعماري كان واحداً، وهو تكوين يخدم الوظيفة. ويتكون السبيل من ثلاثة طوابق: الطابق الأول في تخوم الأرض وهو الصهريج الذي يملأ بالماء. والطابق الثاني أرضه أعلى من مستوى الشارع بقليل، وهو حجرة السبيل أو حانوت السبيل، ولهذه الحجرة شبابيك للتسبيل وبداخلها أحواض تحت الشبابيك تملأ بالماء العذب من الصهريج. أما الطابق الثالث والأخير فهو في الغالب قاعة لتعليم الأيتام، أي كتاب، وأحياناً كان يخصص للمزملاتي^(٢٤). أمّا علاقة مبنى السبيل بالمباني المحيطة،

(٢٢) المرجع السابق، ص ٩.

(٢٣) محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، ج ٤، مرجع سابق، ص ص

٢٠٤-٢٠٥.

(٢٤) المزملاتي: هو الشخص الذي كان يعين للسبيل، ويتولى تسبيل الماء على المارة، بجانب تنظيف السبيل وأدواته ويعمل ما يلزم السبيل في جميع شئونه. فقد جاء في وثيقة يشبك بن عبد الله أن المزملاتي "يتولى تسبيل الماء المذكور للمارين عليه كل يوم من الظهر إلى العصر ما عدا شهر رمضان فإنه يسبل كل ليلة من=

فقلما كان يبنى السبيل مفرداً كسبيل السلطان قايتباي بالصليبية، وسبيل خسرو بالنحاسين، وسبيل عبد الرحمن كتخدا بالنحاسين، كما كان يلحق بالمسجد والمدرسة كالأسبلة الملحقة بمدرسة أيتمش البجاسي بباب الوزير، وخانقاة الناصر فرج بن برقوق ومدرسة قاني باي الرماح بميدان القلعة وغيرها. كما كانت الأسبلة تلحق بالمساكن كأمثلة الأسبلة في مباني مدينة رشيد السكنية بمصر كما في منزل رمضان ومحارم، والبقراولي، والميزوني، ومكي، وعصفور، والتوقايلي^(٢٥).

وكانت الأسبلة في بادئ الأمر ملحقة بمبان أخرى مثل المساجد أو المدارس أو خانقاوات الصوفية، ومن أمثلة الأسبلة التي كانت ملحقة بالمساجد السبيلين اللذين أنشأهما وأوقفهما السلطان قايتباي فضلاً عن المزملة التي أنشأها بدهليز الجامع لتيسير حصول أرباب الوظائف وغيرهم من المترددين على ما يحتاجون إليه من الماء العذب، فجاء في وثيقة وقفه "ووقف السبيلين وهما السبيل المرخم الكبير الذي هو بواجهة الجامع الشريف المذكور أعلاه على الطريق الجادة مما يلي باب الجامع الكبير، والسبيل المبلط الصغير الذي من جهة الباب الصغير من بابي الجامع المذكور لتسبيل الماء العذب من ماء النيل المبارك بهما للناس على الدوام"^(٢٦).

=المغرب إلى العشاء" (عن: محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، ص ١٥١-١٥٣). كما وضع الواقفون شروطاً جسمية وصحية وخلقية يلزم توفرها في المزملاقي، فمن الشروط الصحية ما جاء في وثيقة السلطان الغوري "رجل ثقة أمين جميل الهيئة نظيف الثياب، سليم البدن، والجسد من العاهات، ذي قوة وشاطرة ونهضة ومروءة"، أما الصفات الخلقية "أن يسهل الشرب على الناس، ويعاملهم بالحسن، والرفق ليكون أبلغ في إدخال الراحة على الواردين صدقة دائمة وحسنة مستمرة" (محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ١٥١).

(٢٥) خالد عزب، فقه العمارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٩١-٩٢.

(٢٦) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ١٥٠.

ثم أصبحت الأسبلة مع مرور الزمن مبان مستقلة منفصلة تبنى لذاتها. وقد حدث هذا التطور بشكل خاص في عصر سلاطين المماليك حينما أصبح للسبيل طراز معماري خاص بصنابيريه (حنفيات) المثبتة من وراء مشبكات من البرونز، ويلحق بها في كثير من الأحيان بناء يستخدم كتاباً لتحفيظ القرآن الكريم^(٢٧). بينما يرى رأي آخر أن الصنابير ظهرت في العصر العثماني، وكانت تؤدي غرضين معاً؛ الشرب، والوضوء^(٢٨).

وكان الواقف يرصد ميزانية لشراء الماء العذب وأدوات السبيل التي يحتاج إليها المزملاطي في عمله، وكان تخزين الماء سنوياً بالسبيل، ولذلك كان السبيل يحتاج إلى بناء صهريج ضخم أسفل السبيل في تخوم الأرض، يملأ بالماء كل سنة، ويسبل منه طوال العام^(٢٩). وتتشابه صهاريج الأسبلة إلى حد كبير، حيث تتكون من مساحة مربعة أو مستطيلة تنقسم إلى أروقة متقاطعة تسقف بالأقبية أحياناً أو بالقباب الضحلة (المقالي) المقامة على مناطق انتقال من المثلثات الكروية، بواقع مثلث بكل ركن من الأركان الأربعة. ومن الأمثلة صهريج سبيل السلطان الأشرف قايتباي بمسجد نمره عام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م، وقد وصفه النجم عمر بن فهد بقوله: "وحفرت بالمسجد صهريج عظيم يتوسط المسجد المذكور طوله عشرون ذراعاً من شقيه إلى غربيه، وسعته خمسة أذرع بالعمل، بداخله بوائك يعلوها ثلاث مقالي وقنطرتان وله منزلان وفم بوسطه

(٢٧) عماد جعفر ساجواني، تأثير المنهج الإسلامي على الطابع والشخصية في تخطيط المدينة، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٢٨) محمد حمزة إسماعيل الحداد، الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية أثرية)، مرجع سابق، ص ص ٢٠-٤١.

(٢٩) محمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفية بالعناصر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، مرجع سابق، ص ١٥٢.

يستقي منه الماء ، وارتفاع الصهريج المذكور ستة أذرع بالعمل ، وعملت قناة كبيرة آتية من خارج المسجد متصلة بالصهريج المذكور ، للقناة المذكورة مصفاة من خارج المسجد يجتمع فيها الماء ، ويجري صافياً منها في القناة المذكورة إلى الصهريج المذكور مما يتحصل من ماء السيول" (٣٠).

وحتى يؤدي السبيل والمزملاتي خدماته على أكمل وجه لم يهمل الواقفون أمر الأدوات المستخدمة في السبيل "مثل سلب الليف ، أو الكتان والأدلية الجلد ، وآنية الشرب ، والمكانس الخوص ، والطسوت ، والأسطال النحاس والأباريق ، والقلل الفخار ، والسفنج ، والقوط للمسح". كما بلغ اهتمام الواقفين بالآلات أن خصصوا أماكن لحفظها من ذلك ما نصت عليه إحدى الوثائق "أما الخوستانان (الخزنتان الخشبيتان) والخلاوي التي بالسبيل المذكور قريباً بأعاليه فإنه أعد ذلك لإحراز أواني السبيل المذكور أعلاه على العادة في ذلك ، وأما الرواقان اللذين (كذا) علو السبيل المذكور أعلاه فإنه وقفهما وحقوقهما لينتفع بذلك من يكون مزملاتياً بالسبيل المذكور" (٣١).

وقد اختلفت هيئة السبيل حسب موقعه في الطرق فهناك من كان له شباك واحد للتسبيل وهناك من كان له اثنان أو ثلاثة ووصل إلى أربعة في بعض الأسبلة. فقد تميز سبيل السلطان الأشرف قايتباي بمسجد الخيف بمنى الذي بني عام ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م ، بأنه كان يشتمل على أربعة شبايك للتسبيل ، وقد قال عنه الحارثي : " وهذا مثال نادر

(٣٠) محمد حمزة لإسماعيل الحداد، الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية أثرية)، مرجع سابق، ٢٠٠٤م، ص ٤٥.

(٣١) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ١٥٣.

لم يتكرر في الحجاز أو في مصر في العصر المملوكي^(٣٢). وقد احتل السبيل موقعاً مميزاً من المبنى، ولم يكن موقعه مرتبطاً بالتوجيه المناخي، بل كان مرتبطاً بتوفير خدمة أفضل وخصوصاً حال وقوعه على ناصية شارعين متقاطعين. وقد نظمت بالسبيل نوافذ بسنابل من البرونز بمسطحات تخالف التي ببقية المبنى، وقد ارتبطت تعدد النوافذ بتعدد الواجهات المطلة على الطريق^(٣٣).

وقد اهتم المعمار المسلم بتشكيل السبيل سواء من الداخل أو الخارج، وقد توجه الاهتمام الأكبر إلى الداخل بالنسبة للحوائط والأسقف والأرضيات مع التنوع في استخدام الألوان والزخارف والحليات ضمن إطار من الوحدة أدت إلى تكوين صورة متكاملة متزنة. فقد زينت الأسقف الخشبية في السبيل بالألوان والزخارف والتذهيب، كما غطيت الحوائط بوزرة من الرخام الملون وغطيت الأرضيات بالرخام الملون في تشكيل هندسي بدیع. كما تم تزيين الحوائط بالآيات القرآنية، ففي سبيل فرج بن بروق بالقاهرة وجد قول الحق تبارك وتعالى: "وسقاهم ربهم" (سورة الإنسان، آية ٢١)^(٣٤). كما شاهد الرحالة التركي أوليا جلبي في الربع الأخير من القرن ١١هـ/١٧م سبيل الأغا خارج باب مصر وقد نقش على نافذته الآية الكريمة: "وجعلنا من الماء كل شئ حي" (سورة الأنبياء، آية ٣٠)^(٣٥).

(٣٢) محمد حمزة إسماعيل الحداد، الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية أثرية)، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٣٣) مصطفى صالح لمعي، "عمارة السبيل: الشكل والمضمون"، أبحاث الحلقة الدراسية الرابعة، "المنهج الإسلامي في التصميم المعماري والحضري"، جدة: منظمة المدن والعواصم العربية، ١٩٩١م، ص ١٣٨.

(٣٤) المرجع السابق، ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٣٥) محمد حمزة إسماعيل الحداد، الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية أثرية)، مرجع سابق، ص ٣١ - ٣٢.

وعن اهتمام الواقفين بتشييد مباني الأسبلة على هذه الهيئة المعمارية، يقول مصطفى لمعي: "قد يتساءل البعض عن ضرورة إقامة مباني الأسبلة على هذه الصورة المعمارية الرائعة التي احتوت على معان وقيم معمارية على درجة عالية من التنوع والإيقاع والتنغيم والتوازن المعماري وخاصة في عمارة العصر المملوكي الجركسي والعصر العثماني أم أنه كان يكفي عمل حوض للشراب مادام الهدف هو الأصل السقاية لابن السبيل وكل كائن حي؟" ويرى أن تفسير ذلك يرجع إلى: "أن المسلم قد تفهم أن الماء هو عطاء من الله وأنه عبد من عباد الله منفذ لتعاليمه الواردة في الكتاب الكريم ولأحاديث نبيه ورسوله ﷺ ... ولذلك وجد وضعها في غلاف معماري يليق بهذه النعمة الإلهية"^(٣٦).

الأسبلة في أرض الحجاز: بجانب ما سبق وأن ذكرنا، أنه جاء في بعض المصادر التاريخية، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد وضع في طريق السبيل بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويحمل من ماء إلى ماء. فقد قال الفاسي في كتابه "الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة" عن السقايات والسبل في مكة: "وأما السقايات — وهي السبل — فهي كثيرة؛ منها بمكة خمسة. ومنها بين مكة ومنى سبعة. وبمنى عدة سبل"^(٣٧).

كما كان هناك سبيل السلطان المملوكي المؤيد شيخ بالحرم المكي الشريف الذي شيده عام ٨١٨هـ/١٤١٥م، وهو على غرار الأسبلة المملوكية المصرية. وقد وصف الفاسي هذا السبيل بقوله: "... هذا السبيل بيت مربع فيه ثلاثة شبابيك كبار من حديد فوق كل شباك لوح من خشب بصنعة حسنة: منها واحد إلى جهة الكعبة، واثنان إلى

(٣٦) مصطفى صالح لمعي، عمارة السبيل: الشكل والمضمون، مرجع سابق، ص ١٣٦.

(٣٧) تقي الدين أبو الطيب أحمد بن علي الحسيني الفاسي، الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة تحقيق:

مصطفى محمد حسين، مرجع سابق، ص ١٢٧-١٢٨.

جهة الصفا، وتحت كل شباك حوض في داخل البيت، وفيه بركة حاملة للماء، وله سقف مدهون يراه من دخل السبيل، وبابه إلى جهة الصفا، وله رفرف خشب من خارجه مدهون، وفوق كل ذلك شراريب - أي شرافات - من حجارة منحوتة، وباطن السبيل منور، وظاهره مرخم بحجارة ملونة، وجاءت عمارته حسنة ...^(٣٨). فقد تميز هذا السبيل بواجهاته التي تتوجها شرافات حجرية منحوتة يوجد أسفلها رفرف خشبي ذو نقوش زخرفية ملونة، كذلك كان بسقف حجرة السبيل سقف خشبي ذو نقوش زخرفية ملونة. كما تميز سبيل السلطان الأشرف قايتباي بمسجد الخيف بمنى الذي بني سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م، بأرضية رخامية ذات لون أصفر^(٣٩).

ويعد سبيل منى الذي بني سنة ١٣٤٠هـ/ ١٩٢١ - ١٩٢٢م، من الأمثلة المعمارية المتميزة والمتفردة، فقد تميز بهيئة معمارية مستقلة وغير مسبقة، بجانب كتلة المدخل البارزة، وبنائه بالحجر المشهر، كما احتوى على مفردات وعناصر معمارية غاية في الجمال؛ كالأحواض، والدخلات المعقودة، والعقود، والدعامات المسدسة وما يعلوها من الأعمدة المدججة في الأركان، والشرفات التي تتوج واجهة السبيل^(٤٠).

الأسبلة في مدينة القاهرة: تركزت الأسبلة في القاهرة في المناطق الآهلة بالسكان والأسواق والأحياء التجارية والصناعية، التي منها على سبيل المثال: شارع المعز لدين الله الفاطمي، والتبانة، والصلبية، والخليج المصري، ومنطقة السيدة زينب. ومن أشهر هذه الأسبلة، في العصر العثماني، سبيل عبد الرحمن كتخدا، (الشكل رقم ٧، ١)، وأنشأ فوقه مكتباً لتعليم أطفال المسلمين القرآن الكريم، وقد أنشأ عام ١١٤٦هـ،

(٣٨) محمد حمزة إسماعيل الحداد، الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية

أثرية)، مرجع سابق، ص ٢٠ - ٤١.

(٣٩) المرجع السابق، ص ٤٢ - ٤٣.

(٤٠) المرجع السابق، ص ٤٦.

وكما جاء في نص وثيقة وقفه "أنه جعل عدد الأطفال عشرة، من أيتام المسلمين القصر"^(٤١). ولهذا السبيل أهمية فنية خاصة، فهو يكون مجموعة مستقلة يتمثل فيها الكثير من روائع الفن الإسلامي في العصر العثماني. وكان جملة ما يصرف على السبيل (بالنصف فضة) وفقاً لما جاء في نص وثيقة الوقف مبلغ ٥٠٠٠ على ملء الصهرج، ومبلغ ١٠٨٠ مرتب المزملا تي، ومبلغ ٨٢٥ على أدوات السبيل^(٤٢).



الشكل رقم (١، ٧). سبيل عبد الرحمن كنتخدا بالقاهرة^(٤٣).

(٤١) علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ج ٦، مرج سابق، ص ١٧٧.

(٤٢) محمود حامد الحسيني، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة ١٥١٧ - ١٧٩٨م، مكتبة مدبولي، القاهرة،

١٩٨٨م، ص ١١ - ٢٢٠ - ٢٢١ - ٣٢٥.

(٤٣) محمود حامد الحسيني، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة ١٥١٧ - ١٧٩٨م، مرج سابق، ص ٤٩٥.

ومن الأسبلة التي كانت في مدينة القاهرة، أيضاً، سبيل الست شوكار، أنشأته الست شوكار زوجة إبراهيم كتخدا القازدغلي، وفي حجة وقفه المؤرخة سنة ١١٨٥ هـ "أن الست شوكار المذكورة وقفت جميع المكان بخط الأزيكية بدرب شيخ الإسلام... وجميع الجنية فيما بين بولاق وقصر العيني... وشرطت لنفسها النظارة ومن بعدها للأولاد والعتقاء... وأن يصرف في ثمن ماء عذب يصب في السبيل إنشاء الواقعة في كل سنة أربعة آلاف وتسعمائة وخمسون نصفاً فضة"^(٤٤).

(٧, ١, ٥) أحواض شرب الدواب

لم يكن اهتمام الواقفين منصباً على تقديم المياه العذبة إلى الناس فقط، بل وجد هناك نوع آخر من المنشآت المائية شمل الحيوانات أيضاً، قصد به الخيرون توفير ماء لشرب الدواب؛ مما يدل على اتساع أفق النظرة الاجتماعية للحضارة الإسلامية، واتساع مفهوم وغايات الوقف.

وقد تعددت أحواض المياه التي أقيمت في المدن الإسلامية، وخاصة قرب أطرافها وأبوابها لسقي الدواب، وحسبت عليها هي الأخرى الأوقاف لتمكينها من تحقيق أهدافها^(٤٥). وكانت هذه الأحواض في بنائها إما أن تلحق بمباني الأسبلة أو تقام بشكل مستقل.

ومن النماذج الشهيرة على وقف أحواض الدواب، ما تذكره وثيقة وقف السلطان قايتباي "ووقف حوض السبيل المذكور أعلاه، بالقرب من الجامع المذكور فيه، وفسقية الحوض المذكور المجاورة له لاستقرار الماء الذي يجري إليها من بير الساقية المذكورة أعلاه المعلقة بذلك، لينتفع به في سقي الدواب المارين على ذلك، والمتربين

(٤٤) علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ج ٦، مرجع سابق، ص ١٧٢-١٧٣.

(٤٥) محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، ج ٤، مرجع سابق، ص ٢١٨.

إليه، وفي غير ذلك من الانتفاعات الشرعية على العادة، في ذلك، وجعله سبيلاً لله" (٤٦).

(٧، ٢) الطرق العامة

للطرق والشوارع دور هام، فهي شرايين الاتصال بين عناصر المدينة، وبين المدن المختلفة، فمن خلالها ينتقل الناس بين المكونات العمرانية للمدينة، وعن طريقها يتم التبادل التجاري والاتصال الاجتماعي والثقافي بين الشعوب، وبشكل عام فإنه كلما كانت الطرق ممهدة وميسرة للحركة كلما ساعدت في الحراك الاجتماعي والتجاري، والعكس صحيح.

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم والأوقاف تلعب دوراً في بناء الطرق وتعبيدها، وإقامة الأميال وتحديدها، وتوفير الخدمات اللازمة للمسافرين بشكل عام والحجاج بشكل خاص. يقول أحد الباحثين: "ولقد كان للخدمات العامة نصيب واسع في نشاطات الوقف وتخصيصاته من قبل المحسنين، فأنشأت ونمت من أموال الوقف شبكة للطرق واسعة ربطت مشرق العالم الإسلامي بمغربه ... كما أنه عادت ونظفت الطرق داخل المدن من أموال الوقف ... كذلك نشأت العديد من الأوقاف كانت مهمتها الأساسية إصلاح الطرق والقناطر والجسور" (٤٧). كما جاء في رحلة ابن بطوطة ما نصه: "الأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها، ...، ومنها أوقاف على تعديل

(٤٦) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ١٥٤.

(٤٧) عبد الله بن سليمان بن عبد العزيز الباحوث، الوقف والتنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص ١٤٦ -

الطرق ورصفها لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبه يمر عليها المترجلون ويمر الركبان بين ذلك" (٤٨).

كما اهتم الواقفون بتنظيف الشوارع التي تطل عليها مبانيهم الموقوفة، وهو اتجاه ظهر في المباني الموقوفة الدينية أو الخيرية مثل المساجد الجامعة والمدارس والخانات والأسبلة والبيمارستانات وغيرها. حيث حرص واقفو هذه المباني ولاسيما الدينية منها على تعيين كناسين يقومون بكس الشوارع التي تطل عليها المباني ورشها بالماء. ومن الأمثلة على ذلك، ما فعله السلطان برقوق بمدرسته بشارع المعز لدين الله بالقاهرة. كما تضمنت وثيقة وقف منشأة جمال الدين الأستاذار بالجمالية بالقاهرة ما يشير إلى أنه "رتب شخصاً من السقائين بالقرب الكتافية على الآبار جيداً قوياً على العمل كافياً فيه ليكنس التراب حول الخانقة المذكورة وأزقتها الدائرة عليها من الجهات الأربع، ويرش ذلك بالماء مرتين في الصيف، وإن احتيج إلى ذلك في الشتاء فعله مرة أو مرتين، ويشيل ما يتحصل من الكناسة إلى الأماكن البعيدة، والتنظيف على العادة"، وفي هذا النص دلالة على الاهتمام بكس الشوارع ورشها بالماء والتركيز على ذلك حسب كل وقت، ففي الصيف تزداد الحاجة إلى كس الشوارع ورشها بالماء، وهو أمر تنبه إليه الواقف، وكان معمولاً به على جاري العادة كما يشير النص (٤٩).

(٧، ٣) الترع الزراعية

أنشئت من أموال الأوقاف الجسور في المناطق التي هي بحاجة إلى ذلك، وكذا تم شق الترع الزراعية في المناطق الزراعية (٥٠). فقد اهتم سلاطين المماليك بمصر ببناء وإصلاح المرافق المتصلة بالزراعة من جسور وترع ومقاييس وقناطر على النيل، كما

(٤٨) المرجع السابق، ص ١٤٩.

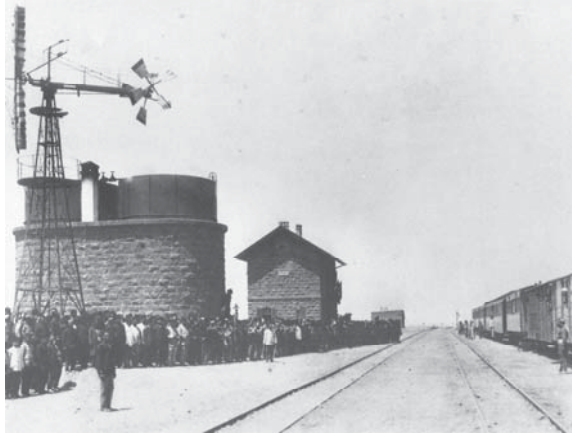
(٤٩) محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢١٠-٢١١.

(٥٠) عبد الله بن سليمان بن عبد العزيز البحوث، الوقف والتنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص ١٤٩.

حدث عندما جدد السلطان المؤيد شيخ قناطر شبين وصرف عليها أربعة عشر ألف دينار، وقد أرسل من أجل ذلك عدداً من المختصين من كشافي الجسور وأرباب الحرف للإشراف على أعمال الحفر وتجريف التراب لضمان استمرار جريان الماء^(٥١).

(٧، ٤) السكة الحديدية الحجازية

حدث في عهد السلطان عبد الحميد الثاني أن فكرت الدولة العثمانية في خدمة الحرمين الشريفين، عن طريق عمل مشروع ضخم بواسطة أموال الأوقاف يساعد المسلمين على أداء فريضة الحج، ويسر لهم مشقات السفر، وكان المشروع هو تمديد خط حديدي من دمشق إلى مكة المكرمة^(٥٢)، (الشكل رقم ٧، ٢).



الشكل رقم (٧، ٢). افتتاح محطة تبوك، إحدى الخطات الرئيسة لخط سكة حديد الحجاز (تصوير: هالاجيان ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٨م)^(٥٣).

(٥١) فهمي عبد العليم، العمارة الإسلامية في عصر الماليك الجراكسة "عصر السلطان المؤيد شيخ"، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٥٢) عبد الهادي التازي، توظيف الوقف لخدمة السياسة الخارجية في المغرب، مرجع سابق، ص ٨٢.

(٥٣) وليام فيسي، وغرانت جيليان، المملكة العربية السعودية في عيون أوائل المصورين، مرجع سابق، ص ٤٠.

حيث كان الحجاج يجتمعون في دمشق انتظاراً لسير موكب الحجيج، الذي كان يستغرق وقتاً قدره أربعين يوماً من دمشق إلى المدينة المنورة، بجانب عشرة أيام أخرى من المدينة إلى مكة المكرمة، ناهيك عما كان يتعرض له الحجاج من مخاطر في الطريق، فكان التفكير في هذا المشروع، واتخاذ القرار بالبدء في أعماله سنة ١٩٠٠م، من الشام إلى الحجاز، وقد خدم حجاج بيت الله الحرام بشكل كبير ويسر لهم السفر، وعاد على الدولة العثمانية والولايات التابعة لها بالفوائد المادية والمعنوية. كما كانت النية تتجه إلى مد فروع من هذا القطار إلى جدة وبعض الولايات العثمانية الأخرى، ولكن خلع السلطان عبد الحميد الثاني صاحب الفكرة ومؤسس هذا العمل الكبير، حال دون إتمام هذا المشروع العظيم^(٥٤)، وكان هذا الخط يعرف بقطار الحجاز، وما زالت هناك بعض بقايا محطات هذا القطار باقية إلى الآن، كما في المدينة المنورة.

يقول أحد الباحثين: "بل إن الأراضي المجاورة للسكة الحديد على بعد مائة متر من كل جانب على طول الخط من إستانبول إلى بغداد والمدينة المنورة، قد تم وقفها لخدمة هذا المرفق الحيوي المهم، ولا زالت المستندات التي تثبت ذلك الوقف موجودة في المدينة المنورة، كذلك نشأت العديد من الأوقاف"^(٥٥)، بخصوص ذلك.

(٧،٥) سفن الأوقاف

أوقف السلاطين والأمراء العديد من الأوقاف لكي يخصص عائدها لإمداد الحرمين - مكة والمدينة - بحاجتهما من الغلال والمؤن سنوياً، من هنا ظهرت الحاجة

(٥٤) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٥، مرجع سابق، ص ١٦٨ - ١٧٠ - ١٧٩.

(٥٥) عبد الله بن سليمان بن عبد العزيز الباحث، الوقف والتنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص ١٤٦ -

إلى إنشاء الأوقاف للعديد من السفن لنقل الغلال من الموانئ المصرية إلى موانئ الحجاز، وقد تطور هذا الدور للوقف في العصر العثماني بشكل خاص؛ إذ وقفت الأموال من أجل عمارة السفن كوسيلة مهمة للنقل. فقد جاء في وثيقة وقف زوجة السلطان سليمان القانوني التي ترجع إلى سنة ٩٦٠هـ/١٥٥٣م، بناء "سفيتين عظيمتين" مع "جميع آلاتهما وأدواتهما المعينة المعلومة وتما لوازمهما ولواحقهما" على أن يتم إنزال هاتين السفينتين في ميناء السويس لكي تقوموا بنقل غلال القرى والكفور المصرية الداخلة في نطاق الوقف إلى ميناءي الحجاز الشهيدين آنذاك؛ جدة، وينبع. ولم يتوقف الوقف عند نقل الغلال بل وضع التعليمات اللازمة للحفاظ على سلامة السفينتين ومئاتهما واستمرار دورهما، إذ تنص وثيقة الوقف على ضرورة إجراء الترميمات اللازمة للسفينتين في حالة حدوث أي عطب بهما؛ ولم يهمل الوقف شأن التجديدات الشاملة التي تجري للسفن على فترات زمنية متباعدة؛ إذ نصت الوثيقة على ضرورة "تجديدهما للعتاقة بمرور الزمان". وفي عام ١٥٨٨م أنشأ السلطان مراد وقفاً جديداً لصالح الحرمين وعرف فيما بعد باسم "الدشيشة المرادية"، حيث أمر السلطان مراد المتولي على وقفه في القاهرة بإعداد "سفينة صينة لتحمل غلال العمارة العامرة، وجارية في بحر الجود والكرم، وتبار البر والهمم... وشرط أن يضبطها المتولي في مرساها ويصونها ويحرسها بالتسليم إلى أهلها في مجراها، ويحمل عليها الحبوب والحوائج المقررة الموصوفة من ميناء السويس إلى مرسى ينبع في أوقات سفر البحر المعلومة"، كما تأمر حجة الوقف المتولي على الأوقاف بالقاهرة بضرورة الإشراف على الآلات الخاصة بالسفينة والمراسي والشرائع وغيرها من عدد السفينة. وفي بعض الأحيان كان الوقف يأخذ على عاتقه عملية بناء سفينة جديدة لحسابه، مع ما يتطلبه ذلك من إجراءات عديدة أهمها استيراد الأخشاب والمعدات اللازمة لبناء السفن، ومن

الأمثلة على ذلك ما حدث عام ١٧٢٨م، حين اشترى الأمير علي بك دفتر دار مصر لحساب وقف الخاصكية، من أحد التجار الأتراك حداث وأخشاباً لازمة لصناعة السفن مستوردة من تركيا، حتى يتمكن وقف الخاصكية من بناء سفينة جديدة وإنزالها في ميناء السويس^(٥٦).

وقد نشأ عن هذا النوع من الأوقاف علاقات تجارية بين مختلف الدول الإسلامية من ناحية وبلاد الحجاز من ناحية أخرى، وانعكس ذلك على الروابط السياسية والاجتماعية بينها، وتقليل اعتماد بلاد الحجاز على البضائع الخارجية. ومن ثم لم يكن غريباً أن تساهم الأوقاف في مسائل تتعلق بالسياسات الخارجية، حيث مثلت أحد الأدوات التي استعملتها الدولة الإسلامية لإدارة سياستها الخارجية^(٥٧).

(٧،٦) الحمامات العامة والمظاهر

تعد الحمامات العامة من أهم المنشآت التي جرت العادة بإنشائها في المدن الإسلامية، وكانت من أهم نوعيات المباني جذاباً في الاستثمار العقاري، وذلك لزيادة قبول المجتمع الإسلامي على استخدامها بسبب تعاليم الدين الإسلامي الداعية إلى النظافة والطهارة، وبسبب آخر وهو عدم توفر حمامات بكل الدور وبخاصة دور الطبقات الدنيا في المجتمع^(٥٨). وكانت الحمامات إما تقام للرجال وأخرى للنساء، أو تخصص أيام خاصة بالنساء^(٥٩).

(٥٦) محمد عفيفي، الأوقاف والملاحة البحرية في البحر الأحمر في العصر العثماني، دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٩٥م، ص ٨٧-٩٢.

(٥٧) طارق عبد الله، عولمة الصدقة الجارية: نحو أجنحة كونية للقطاع الوقفي، مرجع سابق، ص ٣٣-٣٤.

(٥٨) محمد عبد الستار عثمان، العمارة الفاطمية، الكتاب الأول، مرجع سابق، ص ١٩٨.

(٥٩) صالح لمي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق، ص ٧٦.

والحمامات ، كمنشآت ساهم الوقف في وجودها ، لم تكن هي موقوفة لذاتها بل كانت توقف للصرف على مبانٍ أخرى. فمن الأوقاف التي خصصت للمدرسة النورية الكبرى بدمشق ، على سبيل المثال ، كما جاء مثبتاً على باب المدرسة "جميع الحمام المستجد بسوق القمح والحمامين المستجدين بالوراقة خارج باب السلامة..."^(٦٠). كما كان حمام الذهب من جملة أوقاف الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ، التي أوقفها على مدرسة منازل العز للفقهاء الشافعية بالقاهرة^(٦١).

وقد كثرت الحمامات في المدينة الإسلامية بشكل عام ؛ ففي مدينة القاهرة ، على سبيل المثال ، كان هناك ثمانون حماماً في القرن الثالث عشر الميلادي ، وفي نهاية القرن الثامن عشر مائة حمام^(٦٢). كما يقول بعض المؤرخين "أنه على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر كان في مدينة قرطبة نحو ثلاثمائة حمام خاص بالنساء ، بينما يرى المقري أنه على عهده كان بها سبعمائة من الحمامات ، مازالت هياكل أغلبها شاهدة على ما شيده المسلمون من حمامات بمختلف مدن وقرى الأندلس ، سواء أكانت خصوصية أو عمومية"^(٦٣).

وقد كان لهذه الحمامات دورها الاجتماعي في الحياة الاجتماعية في العصور الإسلامية المزدهرة ، إذ كان يخصص للنساء يوم أو أكثر من أيام الأسبوع يلتقين فيها للاستجمام والترويح^(٦٤). أما عن الناحية المعمارية في حمامات القاهرة ، فقد كانت

(٦٠) سعيد إسماعيل علي ، معاهد التعليم الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

(٦١) محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م دراسة

تاريخية وثائقية ، مرجع سابق ، ص ٦٨ .

(٦٢) صالح لمعي مصطفى ، التراث المعماري الإسلامي في مصر ، مرجع سابق ، ص ٧٦ .

(٦٣) أحمد ثاني الدوسري ، الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر ، مرجع سابق ، ص ١١١ .

(٦٤) فريد شافعي ، العمارة العربية في مصر الإسلامية ، الجزء الأول عصر الولاة ، مرجع سابق ، ص ٢٥٨ .

واجهات الحمامات بدون فتحات، ويغطي الحمام بقبة كروية بها فتحات صغيرة مغطاة بالزجاج الملون غير الشفاف، كما كانت الحوائط من الحجر الجيري وله بالداخل سفل من الرخام، كذلك غطيت الأرضية بالرخام الملون، كما كانت حوائط الحمامات غنية بالزخارف كما في بقايا حمام السلطان المؤيد شيخ. وتتشابه طريقة التسخين في هذه الحمامات بالطريقة التي استعملها الرومان؛ فقد استخدم البخار الناتج من عملية الغليان في التدفئة، إلا أن حمامات القاهرة لم توجد بها تدفئة بالأرضيات بسبب اعتدال درجة الحرارة في الشتاء^(٦٥).

وفي سلطنة عمان كانت هناك أوقاف يستخدم ريعها في تعمير الحمامات العامة التي كانت تقام للنساء على الترع، حماية للصحة العامة^(٦٦).

ومن المطاهر التي كانت موقوفة في مكة المكرمة: مطهرة الملك الناصر محمد بن قلاوون، عمّرت في سنة ٧٢٨هـ؛ ومطهرة الأمير صرغتمش الناصري، بين العظيفية والبيمارستان بالجانب الشمالي من المسجد الحرام، وتاريخ عمارتها سنة ٧٥٩هـ؛ ومطهرة طنيفا الطويل بقرب باب العمرة؛ ومطهرة الملك الأشرف شعبان صاحب مصر، بالمسعى قبالة باب عليّ، عمّرت في سنة ٧٧٦هـ؛ ومطهرة خلفها للنسوة، عمّرتها أم سليمان سنة ٧٩٦هـ؛ ومطهرة تنسب للواسطي عند باب الحزورة، وما عرفت واقفتها، ولا متى وقفت. وأعظمهم نفعا مطهرة المالك الناصر^(٦٧).

(٦٥) صالح لمعي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٦٦) فؤاد عبد الله العمر، إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٦٧) تقي الدين أبو الطيب أحمد بن علي الحسيني الفاسي، تحقيق: مصطفى محمد حسين، الزهور المقتطفة من

تاريخ مكة المشرفة، مرجع سابق، ص ١٣١.

(٧,٧) المقابر

أوقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه مقبرة في مدينة القاهرة^(٦٨). كما لم يغفل بعض واقفو المدارس على تزويدها بقطعة أرض تخصص كمدفن لمن يموت من الطلبة خاصة وأن بعضهم كانوا غرباء، حيث أوقفت قطعة من الأرض في مدينة سبته في المغرب يدفن فيها من هلك من طلاب العلم^(٦٩).

هذا بجانب المقابر الخاصة التي أوقفها أصحابها على أنفسهم، ودفنوا فيها، وكانت من الأعمال المعمارية الواضحة في بعض المدن الإسلامية، مثل مدينة القاهرة.

(٦٨) محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٨٣.

(٦٩) فؤاد العمر، "دور مؤسسات الوقف المعاصرة في رعاية قضايا المرأة (إشكاليات وتجارب)"، مجلة أوقاف،

العدد ١٠، السنة السادسة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٦م، ص ١٤٠.

تفعيل دور الوقف

في عمران المدينة الإسلامية المعاصرة

نتيجة لمجموعة من الأسباب، كان من أهمها التحايل والاستيلاء على الأوقاف القديمة من جانب الأفراد أو الحكومات أو الاحتلال، بجانب تعطيل الأوقاف الجديدة وتكبييلها بالقوانين؛ انحسر الدور الفاعل للوقف بشكل كبير، فبعد أن كان بمثابة النظام الاقتصادي الذي أفرز إيجابيات اجتماعية وثقافية وإنسانية، بل وحتى سياسية غير محدودة الأفق عبر أرجاء الدولة الإسلامية، بات هذا الدور قاصراً على محاولات قليلة من جانب بعض الأفراد والمؤسسات الخاصة والعامة.

أضف إلى ذلك أن انقطاع الوقف طيلة هذه الفترة الزمنية التي تربو على ٧٠ عاماً، قد أوجد أجيالاً، لا نبالغ إن قلنا لا يعرف قطاع كبير منها شيئاً عن الوقف. بجانب النظرة المادية للناس التي أفرزتها الظروف الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية المعاصرة، والتي دفعت المرء إلى التفكير بشكل فردي في خدمة مصالحه ومصالح أولاده الخاصة، بعيداً عن التفكير بروح الجماعة التضامني الذي كان من أهم إيجابيات الوقف الإسلامي عبر العصور. هذا مع الأخذ في الاعتبار وفي هذا الإطار، فقدان الثقة بين الناس والمؤسسات الرسمية القائمة على إدارة الوقف في المجتمعات الحديثة والمعاصرة.

ولاشك أن هناك بعض المحاولات المعاصرة لاسترجاع الدور القديم للوقف، سواء من الأفراد أو المؤسسات الخاصة والعامة، ولكنها، وعلى قلتها، تبقى حالات فردية وخاصة مقارنة بما كان عليه الوقف في العصور السابقة.

يأتي هذا الفصل في نهاية الكتاب الذي بين أيدينا، وهو بمثابة الخلاصة للدراسة التي تمت في الفصول السابقة، ومن ثمّ يوضح هذا الفصل كيفية تحقيق أهم أهداف الكتاب، وهي الدعوة إلى إحياء الوقف من جديد في البلاد الإسلامية، من خلال تناوله لعدة عناصر أساسية وهي: بيان مشكلات الأوقاف القديمة والحديثة، وطرح الصيغ المعاصرة التي تصلح للوقف بجانب الصيغ القديمة، وتوضيح كيفية إحياء الوقف في الحياة المعاصرة ومتطلبات ذلك.

(٨, ١) مشكلات الأوقاف القديمة

تعرضت الأوقاف القديمة للكثير من المشكلات التي أثرت وبشكل مباشر في دور الوقف، فقد تعرض الوقف للتحويل والاستيلاء سواء من قبل الأفراد أو الدولة أو القوى المحتلة في بعض البلاد الإسلامية، هذا بجانب ما كان يعانيه الوقف الأهلي خاصة من انحراف عن مقاصده وغايته التي شرع من أجلها.

(٨, ١, ١) الاستيلاء على الأوقاف

رغم ارتباط الوقف منذ ظهوره بالتشريع الإسلامي، إلا أنه لم يمنع، ومع الأسف، وقوع الأوقاف القديمة في دائرة الطمع والتحويل والاستيلاء؛ سواء من جانب من هم من أفراد المجتمع ذاته ومؤسساته الرسمية، أو من قبل المعتدين المحتلين الذي ساد احتلالهم فترات كبيرة لبعض البلاد الإسلامية، ومن ثمّ لم تسلم الأوقاف من أطماعهم؛ فكان تعطيل الأوقاف وحلها والاستيلاء عليها بشكل كبير في بعض البلاد الإسلامية.

فقد تعرضت الأوقاف في العصر المملوكي، على سبيل المثال، للحل والإقطاع، حيث استغل بعض سلاطين المماليك والأمراء ضعف نفوس جماعة من العلماء والقضاة، وحصلوا منهم على فتاوى وأحكام بحل أوقاف السلاطين السابقين، وفي معظم الأحيان لم يكن الحكام في حاجة لتلك الفتاوى والأحكام، حيث نفذوا رغبتهم في حل الأوقاف دون الرجوع إلى الفقهاء والقضاة. أما في الحالات التي كان يصعب فيها حل الأوقاف، فقد تم اغتصابها والاستيلاء على ريعها، وقد نهجوا كل السبل من أجل ذلك، وكان استبدال الأوقاف في مقدمة تلك الحيل^(١).

وهكذا سارت الأمور فيما يخص الأوقاف من سيء إلى أسوأ، مما دعا المقرئزي (المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٥م) لأن يقول عن ذلك: "واستمر الأمر على هذا إلى وقتنا هذا ثم زاد بعض سفهاء قضاة زماننا في المعنى، وحكم ببيع المساجد الجامعة إذا خرب ما حولها، وأخذ ذرية واقفها ثمن أنقاضها، وحكم آخر منهم ببيع الوقف ودفع الثمن لمستحقه من غير شراء بدل". وقد وصل الأمر من السوء في اغتصاب الأوقاف إلى تغيير كتاب الوقف، ولعل هذا ما قال عنه المقرئزي عن وثيقة وقف جمال الدين الأستاذار "حتى كتبوا كتاباً اخترعوه من عند أنفسهم". وكان من الأساليب الخادعة للاستيلاء على الوقف ما حدث في عهد السلطان برقوق، حيث كان أمراؤه يستأجرون الأوقاف بأقل من أجر مثلها، ثم يؤجرونها للناس بأكثر مما استأجروها، فيربح هو وهم الفرق بين الأجرتين، وربما كان هذا الفرق كبيراً، وزاد الأمر سوءاً بعد وفاة برقوق، فيقول المقرئزي: "واستولى أهل الدولة على جميع الأراضي الموقوفة بمصر والشامات وصار أجودهم من يدفع فيها لم يستحق ريعها عشر ما يحصل له"^(٢).

(١) محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م دراسة تاريخية

وثائقية، مرجع سابق، ص ٣٢٢-٣٤١.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤٥-٣٤٦-٣٥١-٣٥٦.

أضف إلى ذلك الحيل التي كانوا يستولون بها على الأوقاف، فمما قاله ابن القيم عند كلامه عن الحيل الجديدة في مسائل الوقف: "ومن الحيل الباطلة تحيلهم على إيجار الوقف مائة سنة مثلاً، وقد شرط الواقف أن لا يؤجر أكثر من سنتين، فيؤجر المدة الطويلة في عقود متفرقة في مجلس واحد، وهذه الحيلة باطلة قطعاً، فإنه إنما قصد بذلك دفع المفسد المترتبة على طول الإجارة فإنها مفسد كثيرة جداً، وكم قد مُلك من الموقوف بهذه الطرق، وخرج عن الوقفية بطول المدة، واستيلاء المستأجر فيها على الوقف هو وذريته وورثته سنين بعد سنين"^(٣).

أما في عصر الدولة الحديثة في مصر فإنه، ومنذ بدايات تجديد قوة الدولة على يد محمد علي، فقد بدأت محاولات بسط السيطرة الحكومية على الأوقاف، وتوالت تلك المحاولات وتراكمت آثارها على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين، وأدت في جملتها إلى تقويض استقلالية نظام الأوقاف والمؤسسات الأهلية التي ارتبطت به، وتحويله من نظام أهلي أصيل نابع من الإدارة الاجتماعية إلى نظام حكومي تابع لسياسات السلطة وخادم لتوجيهها^(٤).

(٢، ١، ٨) الانحراف بالوقف عن قصده وغايته

كما سبق وأن أوضحنا أنه بجانب الوقف الخيري كان هناك الوقف الذري (الأهلي) والوقف المشترك، وقد بينا أن الوقف الذري يكون للواقف وأولاده من بعده ثم يؤول إلى جهة خيرية عند انقطاع الورثة، كما أن الوقف المشترك يعني أن يتقاسم ربع الوقف ذرية الواقف وجهة أو جهات الخير الموقوف عليها. إلا أنه قد أصاب الوقف الذري والمشارك ما جعله ينحرف عن مقصده وغايته.

(٣) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٥، المرجع السابق، ص ٩٣.

(٤) إبراهيم البيومي غانم، الأوقاف والسياسة في مصر، مرجع سابق، ص ٣٨٣.

ولم تكن هذه الإشكالية حديثة عهد، وإنما ظهرت ملازمة للوقف الأهلي منذ أواخر عهد الصحابة رضي الله عنهم، حيث ظهرت شوائب لا تتفق والحكمة من الوقف، وهي التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، فقد اتجه بعض الواقفين إلى استخدام شريعة الوقف ليحرموا من يشاؤون من ورثتهم؛ مما قد يكون ميراثاً لهم طبقاً لفرائض الله، وبشكل خاص بعض البنات، حتى إن السيدة عائشة رضي الله عنها قد استنكرت ذلك، كما أن عمر بن العزيز همّ أن يبطل الأوقاف التي كانت تتخذ ذريعة لحرمان النساء من الميراث، إلا أنه توفي قبل قيامه بذلك^(٥).

(٨، ٢) إشكالية الوقف في العصر الحالي

ما من شك في أن حالة الوقف في الدول الإسلامية الآن تختلف كثيراً عما كانت عليه في الماضي، فهناك الأوقاف القديمة المعطلة، وهناك اضمحلال واضح في الأوقاف الجديدة، بل لا نبالغ إن قلنا إن هناك تغييب يكاد يكون متعمداً لسنة الوقف في الكثير من المجتمعات. كما إن إلغاء نظام الصيانة الدوري الذي تنص عليه الوقفيات أدى كذلك إلى انهيار المباني الموقوفة.

إن ما يؤكد اضمحلال الوقف بصفة عامة في العصر الحالي، أن هناك فروقاً متسعة بين ما يمارسه الوقف حالياً، وبين ما كان يمارسه في الماضي في المجتمعات المسلمة، والمؤشرات على ذلك عديدة؛ من أهمها مقارنة حجم الأموال الموقوفة ونسبتها إلى الثروة القومية، ومقدار ما تدره من عوائد^(٦). ولعلنا نوجز أهم أسباب اضمحلال دور الوقف في العصر الحالي فيما يلي:

(٥) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣ هـ/١٢٥٠-١٥١٧ م دراسة تاريخية

وثائقية، مرجع سابق، ص ٢٣-٢٤.

(٦) شوقي أحمد دنيا، "الوقف النقدي مدخل لتفعيل دور الوقف في حياتنا المعاصرة"، مجلة أوقاف، العدد ٣،

السنة الثانية، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٢ م، ص ٥٩.

١- ضعف الوازع الديني عند الكثيرين من الأغنياء، وهو الذي كان يدفعهم إلى التبرع بجزء من أموالهم للوقف على الفقراء والمحتاجين، فضلاً عن تراجع الولاء لمبدأ المصلحة العامة والشأن العام، والانسحاب من تركيز الاهتمام بالدائرة العامة إلى التقوقع حول النفس، والانتصار للذاتية المفرطة^(٧). كما أن لتولي الدولة شؤون التخطيط العمراني وتوفير الخدمات والمرافق أثره في تقلص دور الأفراد ومن ثم الوقف.

٢- غياب المعرفة الفقهية السليمة من الشوائب حول الوقف، فلقد شاع لدى الكثير من الناس العديد من التصورات والمواقف المتعلقة بفقه الوقف، وهي في حقيقتها غير صحيحة فقهياً، منها: أنه قد شاع أن الوقف يكون بالضرورة على سبيل الزوم ولا مجال للجواز فيه، ومن ثم لا إمكانية لفكرة الرجوع فيه ولا التعليق ولا الاشتراط المتعلق بذلك، مع أن الفقه يحتوي على القول بكل ذلك. كذلك شاع أن الوقف عمل مفرد يقوم به شخص واحد على موقوف عليه واحد، والصحيح فقهياً أن الوقف كما أنه عمل مفرد، فهو أيضاً عمل مشترك، على مستوى الواقفين والموقوف عليهم. أيضاً شاع أنه لا إبدال ولا استبدال في الوقف من حيث الأموال الموقوفة ولا من حيث الجهات الموقوفة عليها، مع أن الفقه على لسان الكثير من علمائه يميز ذلك في ظل ضوابط وملابسات معينة، تحافظ على الوقف من جهة ومقصودة من جهة ثانية، وتتوسع بعض المذاهب في جواز ذلك إلى حد كبير. كما شاع بأنه لا مجال لانتفاع الواقف بوقفه دينوياً بأي صورة، مع أن الفقه يميز ذلك^(٨).

(٧) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

(٨) شوقي أحمد دنيا، الوقف النقدي مدخل لتفعيل دور الوقف في حياتنا المعاصرة، مرجع سابق، ص ٦٠.

٣- فقدان الثقة في إدارة الوقف والقيام الصحيح على شؤونه بما يحافظ على الحقوق الوقفية للواقفين^(٩)؛ بسبب سوء الإدارة وعدم الأمانة من جانب كثير من النظار، وهو ما أدى إلى إهمال الأعيان الموقوفة، وعدم المحافظة عليها^(١٠).

٤- عدم وجود صيغ وأساليب عصرية متنوعة لقيام عملية الوقف، من حيث الإدارة والاستثمار والصيانة وغير ذلك^(١١).

٥- وجود تشريعات غير واضحة في كثير من الدول الإسلامية، تحول بين العديد من الأفراد والقيام بالوقف^(١٢). فأغلب الدول الإسلامية يقوم نظام الحكم فيها على الدساتير والقوانين الوضعية، والتي تأثرت بالأسلوب الغربي في التدخل السيادي للدولة، وتوجيهها للأنشطة الاجتماعية والاقتصادية، بجانب إخضاع العديد من القطاعات الخاصة والأنشطة الفردية إلى إشراف الدولة وجعلها مصالح عامة.

٦- عدم الاهتمام الإعلامي بالوقف، من جانب المؤسسات الإعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية^(١٣).

٧- سياسة القوى الأوروبية إبان إدارتها لأغلب البلدان الإسلامية في سياق التمدد الاستعماري على العالم بداية من القرن التاسع عشر. حيث اعتمدت هذه السياسة على تقطيع أوصال العالم الإسلامي وإضعاف كل خصائص التلاحم بين مناطقه، ومن أجل ذلك عملت على كسر نظام الأوقاف؛ لأنه أسس لنماذج عملية تربط بين الشعوب الإسلامية، إضافة إلى أن الوقف كان أحد العقوبات القانونية التي

(٩) شوقي أحمد دنيا، الوقف النقدي مدخل لتفعيل دور الوقف في حياتنا المعاصرة، مرجع سابق، ص ٦٢.

(١٠) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ٢٠٩.

(١١) شوقي أحمد دنيا، الوقف النقدي مدخل لتفعيل دور الوقف في حياتنا المعاصرة، مرجع سابق، ص ٦٣.

(١٢) المرجع السابق، ص ٦١.

(١٣) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ٢١٠.

أعادت سياسة الاستعمار في الاستيلاء على الأراضي، فسعت الإدارة الاستعمارية إلى التضييق على الأوقاف وفرض الضرائب وتحجيم أدوارها الاجتماعية^(١٤).

(٨,٣) أثار اندثار الوقف على عمران المدينة الإسلامية

كما أوضحنا في الفصول السابقة كيف كان الوقف من المحفزات الرئيسة والداعمة بقوة لحركة العمران في المدينة الإسلامية، في كافة النواحي من مبانٍ ومنشآت ومرافق عامة وغيرها، ومن ثمّ ظهر جلياً العلاقة الطردية بين الاثنين: الوقف، والعمران.

ومن الواضح أنه بسبب غياب دور الوقف في الكثير من البلاد الإسلامية؛ أثر ذلك سلبياً على جودة العمران في المدينة الإسلامية، وبشكل خاص على مؤسسات الرعاية الاجتماعية، كما أثر على استمرار المباني والمنشآت الموقوفة في أداء دورها ورسالتها في خدمة كافة أفراد المجتمع، فتهدم معظمها بعدما عطلت أوقافها.

وفي هذا الصدد، يقول المقرئ عن الأثر السلبي للاستيلاء على أوقاف مدينة القاهرة: "فامتدت الأيدي ببيع الأوقاف حتى تلف ذلك سائر ما كان في قرافتي مصر من التراب وجميع ما كان من الدور الجلييلة والمساكن الأنيقة بمصر والفسطاط"^(١٥).

وفي مدينة دمشق كان في واديها في القرن التاسع الهجري زهاء ألف وخمسمائة مسجد وجامع، ولم يبق إلا مائتان وخمسون، وكان فيها أوائل القرن العاشر ثلاثمائة وعشرون مدرسة ورباط وخانقاة وتكية ومستشفى، وليس فيها من كل ذلك الإرث القديم إلا خمس مدارس وربط. وما يقال عن دمشق يقال عن القدس وحلب وغيرها

(١٤) طارق عبد الله، عولمة الصدقة الجارية: نحو أجندة كونية للقطاع الوقفي، مرجع سابق، ص ٤١.

(١٥) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م دراسة

تاريخية وثائقية، مرجع سابق، ص ٣٤٥.

من بلاد الشام في ذلك الوقت، فلم يكتب للموقوف منها البقاء إلا القليل، وأما الباقي فقد أصبح أثراً بعد عين^(١٦).

وبعد أن كان مجمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز مؤسسة اجتماعية وطنية كبيرة يؤدي دوره في النفع العام، تعرض هذا المجمع إلى التهم الكاذبة والدسائس السياسية العجيبة، وفي النهاية تحرك أحد خانات المغول ويدعى أبو سعيد، حيث قضى وبشكل وحشي على صاحب المركز وقتله هو وأولاده وعائلته وصادر أملاكه، وأضرم النار فيه، حتى بعدما عمّر الربع من جانب غياث الدين محمد، تم قتله أيضاً، ولم تقم للربع قائمة بعدها^(١٧).

ففي مصر، على سبيل المثال، قام محمد علي - ومع نشأة الدولة الحديثة - بمصادرة الأوقاف وضمها إلى أملاك الدولة، ومن هذه الأوقاف كانت أوقاف الأزهر، ففقد الأزهر أكبر مورد مالي يعتمد عليه، وأصبح منذ ذلك الوقت عالة على الحكومات المتعاقبة^(١٨). وتغير نمط العلاقة بين المجتمع والدولة وتمدد سلطان هذه الدولة إلى مختلف جنبات الحياة الاجتماعية - وهى الميدان الأساسي لعمل نظام الوقف - فضلاً عن تدخلها بتغيير النظام الفقهي للوقف وإعادة صياغته عبر سلسلة من القوانين والتشريعات التي أصدرتها، وقد أفضت تلك التشريعات في نهاية المطاف إلى تخفيف المنابع الاجتماعية لتجديد نظام الوقف، كما أدت إلى إدماجه بالكامل في الجهاز البيروقراطي الحكومي^(١٩).

(١٦) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٥، مرجع سابق، ص ٩٨.

(١٧) حسين اميدايي، مجمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسية رائدة في الوقف، مرجع سابق، ص ٦٦.

(١٨) محمد عبد العزيز بن عبد الله، الوقف في الفكر الإسلامي، ج ١، ص ٢٢٥.

(١٩) إبراهيم البيومي غانم، الأوقاف والسياسة في مصر، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٨، ٤) الحاجة إلى إحياء الوقف

هناك مجموعة من الأسباب التي تجعل الحاجة ملحة إلى إحياء الوقف من جديد في البلاد الإسلامية، أهمها ما يلي^(٢٠):

١- زيادة حدة الفقر يوماً بعد يوم، حيث يعد حوالي ٦٠٪ من سكان العالم الإسلامي فقراء، وفقاً للتقرير السنوي الذي أعده البنك الإسلامي للتنمية عام ٢٠٠٠/٩٩م.

٢- تقلص الدور الاجتماعي والاقتصادي للدولة، في ظل التوجهات المعاصرة نحو الاعتماد الأساسي على القطاع الخاص في إدارة وتسيير الاقتصاد القومي.

٣- قضية التخلف في مجال التعليم والبحث العلمي، واحتياج هذا المجال إلى دعم مالي كبير، لا يفي به ما تخصصه الدول الإسلامية لهذا القطاع المهم في المجتمع.

٤- نقص العديد من الخدمات مثل الخدمات التعليمية والصحية والثقافية، وسوء حالة جانب كبير من المتوفر منها؛ بسبب ما تحتاجه هذه الخدمات من مخصصات مالية كبيرة، لم تعد العديد من الدول الإسلامية قادرة على الوفاء به، وبشكل خاص تلك التي تعاني من الفقر أو معدلات ضعيفة في الدخل القومي والفرد.

٥- كذلك فإن إعادة إحياء فكرة الوقف الذري أو الأهلي من شأنه أن يعمل على عودة الناس إلى الوقف، فإن كان هذا النوع من الوقف يضمن للأولاد مستقبلهم، فإنه بذلك يتوافق مع فكر الآباء، ويجعلهم يحققون أغراضهم من خلال الوقف.

(٢٠) شوقي أحمد دنيا، الوقف النقدي مدخل لتفعيل دور الوقف في حياتنا المعاصرة، مرجع سابق، ص ص

٦- ليس من المعقول أن الغرب الذين استفادوا من نظام الوقف إبان وجودهم في ديار المسلمين^(٢١) منذ القرن العاشر الميلادي وبالتحديد أثناء فترة الحروب الصليبية^(٢٢)، يطور نظام الوقف حالياً وينشأ على غرار المؤسسات الخيرية الكثيرة، ويعتمده كأحد الأنظمة الاقتصادية ذات الأبعاد الاجتماعية المؤثرة في التنمية، بينما مازال الوقف مغيباً في الكثير من بلاد المسلمين.

(٨،٥) الصيغ المعاصرة للوقف

مع بقاء الصيغ والنماذج التاريخية الفاعلة للوقف صالحة للعصر الحالي، وهي قيام الوقف بوقف مبنى مدرسة أو مستشفى أو مكتبة أو مصنع أو مؤسسة اجتماعية وغيرها، إلا أن التطورات المعاصرة فيما يخص ارتفاع تكلفة المباني والمنشآت التي يمكن وقفها، يجعل من الضرورة البحث عن صيغ معاصرة لكيفية الوقف، تحقق الهدف من الوقف وتتوافق مع ظروف الواقفين وإمكانياتهم المالية وتتماشى مع كيفية الاستفادة الموقوف عليهم من ثمة الأوقاف، وبشكل خاص مع إقرار الفقه للوقف الواحد من قبل مجموعة من الأفراد.

(٢١) هناك الكثير من الأدلة على استفادة الغرب من نظام الوقف الإسلامي، فلم يتمكن القضاء البريطاني من معالجة مشاكل فكرة التراست (Trust) إلا بعد رجوع أفواج الصليبيين الذين تعرفوا على الصيغ الوقفية من خلال احتكاكهم بالمسلمين ومؤسساتهم خلال قرنين من الزمن، وتقر الباحثة مونكا قوديوزي بأن "قانون الوقف الإسلامي كان له أكبر الأثر على تطور مؤسسة التراست في إنجلترا ومن ثم فإن الشكل الإداري والقانوني لهذه المؤسسة التي انتشرت في أوروبا بعد القرن السادس عشر يرتبط بشكل مباشر بالصيغة الوقفية كما ظهرت في بلاد المسلمين". كما انتشرت الصيغ الوقفية في أمريكا بشكل واسع لتصبح أحد السمات المميزة للمجتمع الأمريكي وجزءاً مهماً من آليات تنظيم علاقاته (طارق عبد الله، عولمة الصدقة الجارية: نحو أجندة كونية للقطاع الوقفي، مرجع سابق، ص ٣٦ - ٣٧)

(٢٢) طارق عبد الله، عولمة الصدقة الجارية: نحو أجندة كونية للقطاع الوقفي، مرجع سابق، ص ٣٥.

إن الأمة الإسلامية اليوم بحاجة إلى تجديد وظيفة الوقف الإسلامي ليشمل صيغاً معاصرة تعالج قضايا الأمة وتهتم بشؤونها، وتحل مجموعة من مشاكلها لتواكب هذه المؤسسة تطلعات الأمة في بنائها الحضاري المنشود، ومن خلال النظر في حكمة مشروعية الوقف وأهدافه نجد فيه مجالاً واسعاً رحباً يمكن توظيفه للقيام بخدمات جليلة تحتاجها الأمة اليوم، ولا تتعارض مع الحكمة التي من أجلها شرع هذا النظام التكافلي والتعاوني الذي يدخل تحت قاعدة "حبس الأصل وتسييل الثمرة"، وفق صياغات جديدة وتصور معاصر لصيغ الوقف وأشكاله^(٢٣).

إن البحث عن الصيغ المعاصرة يجعل من البحث عن وقف النقود أهمية كبيرة، وقبل معرفة الصيغ المعاصرة في هذا المجال، جدير بنا أن نتعرف على تاريخ وقف النقود. فقد ذكر البخاري أثر الزهري فيمن جعل ألف دينار في سبيل الله، ودفعها إلى غلام له تاجر يتجر فيها. ولعل كلام مالك عن وقف الدنانير والدرهم - وهو الذي يأخذ بعمل أهل المدينة ويهتم به - يؤكد حصول وقف النقود في المدينة في وقت مبكر^(٢٤).

إلا أنه في وقف النقود خلاف بين العلماء، منعه الجمهور، وأجاز به بعض الحنفية والمالكية والشافعية^(٢٥).

وفي القرن الخامس عشر وخلال العصر العثماني حدث تطور مثير في موضوع قضية وقف النقود وانتقلت إلى الواقع التطبيقي، عندما أقر شيخ الإسلام المعروف "أبو السعود أفندي" وقف النقود لأجل الأغراض التي يريدها الواقف لوقفه^(٢٦).

(٢٣) عبد الستار إبراهيم الهيبي، "الجامعة الوقفية الإسلامية"، مجلة أوقاف، العدد ٢، السنة الثانية، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، ٢٠٠٢م، ص ٩٠.

(٢٤) منذر قحف، الوقف الإسلامي: تطوره، إدارته، تنميته، ص ٨٧.

(٢٥) رفيق يونس المصري، الأوقاف فقهاً واقتصاداً، مرجع سابق، ص ٤٥.

لقد أفرزت التجارب المعاصرة في بعض البلاد صيغاً جديدة للوقف، وقد تم اختبار هذه الصيغ وأثبتت نجاحاً كبيراً في تحقيق أهداف الوقف، وكان من هذه الصيغ؛ الصناديق الوقفية، والسندات الورقية.

(١، ٥، ٨) الصناديق الوقفية

تعد الصناديق الوقفية من الصور المعاصرة للوقف النقدي الجماعي، وتعد دولة الكويت هي الرائدة في هذا المجال، حيث سبقت غيرها في هذه الصيغة الوقفية الحديثة التي تجمع بين أصالة الوقف الإسلامي، وحدثة التنظيمات العلمية والفنية المعاصرة. ويعرف الصندوق الوقفي بأنه "عبارة عن تجميع أموال نقدية من عدد من الأشخاص، أو المؤسسات عن طريق التبرع، لاستثمار هذه الأموال، ثم إنفاق ريعها أو غلتها على مصلحة عامة تحقق النفع للأفراد، والمجتمع، بهدف إحياء سنة الوقف. ويجب تكوين إدارة لهذا الصندوق تعمل على رعايته والحفاظ عليه، والإشراف على استثمار الأصول، وتوزيع الأرباح بحسب الخطة المرسومة"^(٢٧).

وقد أنشأت الأمانة العامة للأوقاف بالكويت مجموعة من الصناديق الوقفية، في مجالات اجتماعية عديدة، وهي^(٢٨):

- الصندوق الوقفي لرعاية المعوقين (١٩٩٤م) (٥ ملايين دينار كويتي).
- الصندوق الوقفي للتنمية الصحية (١٩٩٥م) (٥ ملايين دينار كويتي).
- الصندوق الوقفي للقرآن وعلومه (١٩٩٥م) (مليون دينار كويتي).
- الصندوق الوقفي لرعاية المساجد (١٩٩٥م) (١٠ ملايين دينار كويتي).

(٢٦) محمد الأرنؤوط، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤١.

(٢٧) حسن محمد الرفاعي، "الوقف على المؤسسات التعليمية (كلية التكنولوجيا نموذجاً)"، مجلة أوقاف،

العدد ١٢، السنة السابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٧م، ص ٧٨-٧٩.

(٢٨) رفيق يونس المصري، الأوقاف فقهاً واقتصاداً، ط ١، دار المكتبي، دمشق، ١٩٩٩م، ص ١٣٣.

- الصندوق الوقفي للثقافة والفكر (١٩٩٥م) (مليون دينار كويتي).
 - الصندوق الوقفي للتنمية العلمية (١٩٩٥م) (٥ ملايين دينار كويتي).
 - الصندوق الوقفي للمحافظة على البيئة (١٩٩٥م) (مليون دينار كويتي).
 - الصندوق الوقفي لرعاية الأسرة (١٩٩٥م) (مليون دينار كويتي).
 - الصندوق الوقفي للأمانة العامة للأوقاف (١٩٩٥م) (غير معروف).
 - الصندوق الوقفي للتنمية المجتمعية (١٩٩٦م) (غير معروف).
 - صندوق الكويت الوقفي للتعاون الإسلامي (١٩٩٦م) (غير معروف).
- وقد أثبتت هذه التجربة نجاحاً لفكرة الصيغ المعاصرة للوقف، من خلال ما تقدمه هذه الصناديق من أنشطة وقفية متنوعة وعديدة لا مجال للحديث عنها تفصيلاً في هذا المكان.

وبشكل عام فإنه يمكن الاستفادة من هذه التجربة في إنشاء العديد من الصناديق الوقفية الأخرى، ذات الأغراض المتنوعة، والأهداف المختلفة، وخاصة ما يمكن أن يخدم عمران المدينة الإسلامية المعاصرة، على المستوى الثقافي والاجتماعي والإنساني والاقتصادي، بل وحتى العسكري.

(٨, ٥, ٢) السندات الورقية

وهي عبارة عن أموال يتم استثمارها في شكل سندات ورقية في البنوك الإسلامية، والمؤسسات التجارية، بحيث يحبس رأس المال ويتم تسهيل ثمرته.

(٨, ٦) كيفية إحياء الوقف في العصر الحالي

تتطلب عملية إحياء الوقف في العصر الحالي التغلب على مجموعة من التحديات، والتي تساهم بشكل فاعل في إحياء سنّة الوقف؛ منها ما يتعلق بالدور الإعلامي، أو إحياء الثقة في المؤسسات القائمة على إدارة الأوقاف، وتطوير إدارات الأوقاف.

(٨, ٦, ١) التوعية الإعلامية بالوقف

لا خلاف على الدور المهم للإعلام في كل جوانب الحياة، التي منها عملية إحياء سنة الوقف من جديد في المجتمعات المسلمة، فقد أثبت الإعلام المقروء والمسموع والمرئي عبر وسائل الإعلام المختلفة التي من أهمها حادثة الإنترنت، جدواه في الطروحات التي تقدم عبر قنواته، من خلال التأثير في المتلقي بشكل فاعل.

وينبغي التأكيد على أن توظيف وسائل الإعلام في تحفيز الناس على المشاركة في الأعمال الخيرية لا يختلف بشكل عام عن استخدامها لإيصال رسائل أخرى إليهم؛ حيث إن الأمر في سائر الأحوال يقوم على محاولة الوصول إلى المتلقين من خلال استخدام الأسس الاتصالية التي تشكلت عبر السنين الطويلة والتجارب المتكررة، مع مراعاة المتغيرات المؤثرة في سلوك الإنسان الاتصالي التي كشفت عنها الكثير من الأبحاث والدراسات العلمية المتخصصة. وبطبيعة الحال فإن الرسالة تتم - وفي كل الأحوال أيضاً - عبر قنوات الاتصال المتعددة من المطبوعات والأشرطة والأفلام وتنظيم المعارض، والاتصالات الشخصية سواء بشكل فردي أو جماعي (الندوات والمؤتمرات). غير أن نجاح هذه الوسائل في الأعمال الخيرية يبقى مرهوناً بصورة رئيسة بقدرة مستخدميها على إبراز الحقائق والبراهين بالطرق المرسومة والمقنعة^(٢٩)، والنقية والواضحة الأهداف.

ولعل من أهم الوسائل الإعلامية القادرة على تقوية إحساس الناس بأهمية الوقف، كواحد من سبل الخير العظيمة، مسألة تفعيل الدور الإعلامي للقائمين عليه في الجهات ذات العلاقة للتخطيط؛ لإيصال رسالته السامية إليهم، وقد يكون من المفيد في هذا الأمر الاستفادة من برامج العلاقات العامة

(٢٩) محمد بن عبد العزيز الحيزان، دور الإعلام في توعية الجمهور بالوقف، مرجع سابق، ص ٥٨.

في تلك الجهات لتوظيف قنواتها الاتصالية على نحو يزيد من درجة الوعي ويعززها. غير أن القائمين على هذه البرامج مطالبون بالاستفادة من أسلوب الحملات الإعلامية التي أثبتت جدواها وقدرتها في التعريف والتوعية والتذكير، بل والإقناع بأهمية مضمون الرسائل التي تحملها في الكثير من النشاطات التوعوية، فهذه الحملات تمثل أفضل الأساليب الاتصالية في إحداث تفعيل قوي لأفراد المجتمع كي يسهموا في مجالات الوقف، بحكم أن الوقف من الموضوعات التي يندر تناولها في وسائل الإعلام على اختلاف أشكالها^(٣٠). كما يقع على العلماء وأئمة المساجد دور كبير في تذكير الناس بمقاصد الوقف وأهدافه والثواب العظيم الذي يمكن أن يجنيه الواقف من وقفه، وكذلك تذكير الناس بفوائده الاجتماعية العظيمة التي تؤدي إلى استقرار المجتمعات وترسيخ الأمن فيها^(٣١).

يقول الحيزان: "أن الوقف يمثل رسالة ربانية جليلة يمكن أن يكتب لها الانتشار والقبول بصورة كبيرة، متى توفر لها حامل الرسالة المناسب القادر على الاستفادة من خصائصها بالشكل الفعال والمقنع للمتلقي، وهذه الخصائص لن تعتمد على محاولة بيع فكرة ما للآخرين كما هو الحال مع العديد من الرسائل الأخرى، وإنما سوف تتركز بشكل رئيس على دعوة الإنسان المسلم إلى التواصل مع خالقه، وزيادة رصيده حسناته في الدار الآخرة، من خلال التعريف بالوقف وشرح فوائده التي من أجلها شرع، وهو ما سوف يسهل مهمة القائمين عليها في تكوين صورة ذهنية حسنة عن هذه السنة العظيمة"^(٣٢).

(٣٠) المرجع السابق، ص ٥٩ - ٦٠ - ٦١.

(٣١) عبد الله محمد أحمد حريزي، دور الوقف في دعم الجوانب التربوية والدينية والعلمية والثقافية، مرجع سابق، ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٣٢) محمد بن عبد العزيز الحيزان، دور الإعلام في توعية الجمهور بالوقف، مرجع سابق، ص ٤٨.

(٨,٦,٢) إحياء الثقة

إن مؤسسة الأوقاف هي الإطار العام لتوليد الطاقة الإسلامية من جديد، حيث تتجدد في جسم المجتمع الإسلامي أوقاف جديدة كما تتجدد الخلايا الحية في الكائن الحي، مع إعطائها بعدها الديني والثقافي والاجتماعي الذي يحتوي العصر الحديث بسائر أبعاده ومعطياته^(٣٣).

ويتطلب الأمر من الجهة التي تقوم على إدارة الوقف العمل الجاد الذي يعمل على إعادة جسر الثقة بين الناس وبين إدارة الأوقاف، فهذا من أهم العوامل التي تشجع الناس على إجراء الوقف، بعد أن أثبتت النظم الحالية للأوقاف عدم ثقة الناس في الجهات القائمة على الأوقاف ومن ثم عزوف الناس عن الوقف.

(٨,٦,٣) تطوير إدارات الأوقاف

من اللازم عمل برامج لتوعية العاملين في وزارات الأوقاف، وتدريبهم على نظم الإدارة الحديثة للوقف، حتى يتسنى لهم النهوض بالوقف من منطلق تطبيقي، وفق المبادئ والاجتهادات الإسلامية، مع التخلص من البيروقراطية الحكومية. بجانب إحداث تغيير جذري في هيكل الإدارات المشرفة على الأوقاف، والاهتمام بالحوافز والمكافآت التي تصرف للعاملين المتميزين. بالإضافة إلى إعادة النظر كل مدة زمنية وأخرى في النظم واللوائح والقرارات التي تنظم العمل في إدارات الأوقاف وهيئاتها، حتى تكون هذه النظم واللوائح والقرارات متكيفة مع الظروف المتغيرة، والمتطلبات الجديدة، وتطور المجتمعات التي تتطور سريعاً، وبما يتفق ويتواءم مع ضوابط الشرع وأحكامه. ومن الأمور المهمة في هذا الصدد، تدعيم إدارات الأوقاف بالمتخصصين في

(٣٣) محمد عبد العزيز بن عبد الله، الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، ج ٤، مرجع سابق، ص ٣٧.

الاقتصاد، والاستثمار والتنمية، والمهندسين، وأساتذة التخطيط والمالية، والإعلاميين^(٣٤).

يشير بعض الباحثين إلى أن سوء إدارة الأوقاف قد أدى إلى تعطيل الوقف بل وإلغائه^(٣٥). ولكي يعود الدور الريادي القيادي للأوقاف كما كان، فلا بد من الأخذ والعمل بالأسس والأساليب والأدوات الإدارية الحديثة التي تساعد الأوقاف على العودة للمزيد من العطاء المثمر^(٣٦)، في مجال المباني ذات الوظائف الخدمية العامة ومن ثم في خدمة كافة جوانب الحياة، وتحقيق بيئة عمرانية سليمة من كافة الجوانب.

(٣٤) محمد بن أحمد الصالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص ٢١٣-

٢١٤.

(٣٥) عبد القادر داود عبد الله العاني، "العوامل التي أدت إلى تدهور الوقف عبر التاريخ الإسلامي"، مؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ، ص ٢٢٩.

(٣٦) عبد الرحمن الضحيان، إدارة الأوقاف الإسلامية والتجربة السعودية، مرجع سابق، ١٤٢٢هـ، ص ٩٢.

المراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: كتب الفقه والتاريخ والمعاجم

ابن إبراهيم، العلامة الفقيه إبراهيم بن محمد، تحقيق ودراسة الألباني، وهبي سليمان غاوجي، ملتقى الأبحر، ج ١، ج ٢، ط ١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩هـ.

ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.
ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر، تحقيق: أمين، محمد محمد، تذكرة التنبيه في أيام المنصور وبنيه، ج ١. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.

ابن حبيب، رحلة ابن جبيرة والمسماة تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، طبعة حديثة، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٤م.
ابن منظور، لسان العرب، م ٩، بيروت: دار بيروت، ١٩٦٨م.
الدمشقي، عبد القادر بن محمد النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ١. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية، (طبعة حديثة)، ١٩٩٠م.

- الدمشقي، عبد القادر بن محمد النعيمي، *الدارس في تاريخ المدارس*، ج ٢، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، (طبعة حديثة) ١٩٩٠م.
- سابق، السيد، *فقه السنة*، ط ١٠. ج ٣. القاهرة: الفتح للإعلام العربى، ١٩٩٣م.
- الطننجي، محمد بن تاويت، حررها وقدم لها نوري الجراح، *رحلة ابن خلدون* (١٣٥٢ - ١٤٠١)، ط ١، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣.
- الفاصي، تقى الدين أبو الطيب أحمد بن علي الحسيني، تحقيق مصطفى محمد حسين، *الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة*. ط ١. مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٩٩٧م.
- فيسي، وليام، وغرانت جيليان، *المملكة العربية السعودية في عيون أوائل المصورين*، الرياض: مؤسسة التراث، ١٩٩٩م.
- القطبي، عبد الكريم بن محب الدين، *إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام*. ط ١. الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ.
- القلقشندي، أحمد بن علي، *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*. ج ٣. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.
- مبارك، علي باشا، *الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة*، ج ٦، ط ٢، طبعة جديدة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.
- المقريري، *الخطط المقريرية*، م ٢ (١)، لبنان: دار إحياء العلوم، ١٩٥٩م.
- ثالثاً: الكتب الحديثة
- أبوزهرة، الإمام، *محاضرات في الوقف*، ط ٢، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٢م.
- أحمد، محمود، *دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة*، القاهرة: المطبعة الأميرية ببولاق، ١٩٣٨م.

الأرناؤوط، محمد، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، ط ١، دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٠م.

إسماعيل، كامل، دراسات أثرية، جامع أحمد بن طولون، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، (د.ت).

أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٠م.

الأنصاري، رؤوف، عمارة المساجد، دراسة في تاريخ عمارة المساجد خلال العهود الإسلامية، ط ١، دار النبوغ للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٦م.

الأنصاري، عبد القدوس، تاريخ العين العزيزية ولمحات عن مصادر المياه في المملكة العربية السعودية، جدة: إدارة العين العزيزية ١٩٦٩م.

بنعبد الله، محمد بن عبد العزيز، الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، ج ٤، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٦م.

بنعبد الله، محمد عبد العزيز، الوقف في الفكر الإسلامي، ج ١، المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٦م.

التازي، عبد الهادي، جامع القرويين، م ١، ط ١، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٢م.

الجميل، شوقي عطالله، الأزهر ودوره السياسي والحضاري في أفريقيا، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.

الحداد، محمد حمزة إسماعيل، الأسس في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (دراسة تاريخية أثرية)، ط ١، القاهرة: مكتبة زهراء الشروق، ٢٠٠٤م.

- حسين، محمد كامل، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، (د.ت).
- الحسيني، محمود حامد، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة ١٥١٧ - ١٧٩٨ م، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٨ م.
- حيدر، كامل، العمارة العربية الإسلامية، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي، ط ١، بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٥ م.
- خفاجي، محمد عبد المنعم، الأزهر في ألف عام، ج ٣، ط ٢، بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٨ م.
- الخيارى، السيد أحمد ياسين أحمد، تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، ط ٤، جدة: دار العلم للطباعة والنشر، ١٩٩٣ م.
- دهيش، عبد اللطيف بن عبد الله، عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي في العهد السعودي، دراسة تاريخية حضارية، الرياض: دار الملك عبد العزيز، ١٩٩٩ م.
- الدوسري، أحمد ثاني، الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر، أبو ظبي: منشورات الجمع الثقافي، ٢٠٠٤ م.
- الريحاوي، عبد القادر، العمارة العربية الإسلامية، خصائصها وآثارها في سورية، ط ٢، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩ م.
- الريحاوي، عبد القادر، العمارة في الحضارة الإسلامية، جدة: مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، ١٩٩٠ م.
- الريحاوي، عبد القادر، قمم عالية (في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني)، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٠ م.

- الزرقا، مصطفى أحمد، أحكام الوقف، ط ٢، دار عمار، عمان، ١٩٩٨ م.
- الساعاتي، يحيى محمود بن جنيد، الوقف والمجتمع نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي، سلسلة كتاب الرياض، مؤسسة الإمامة الصحفية، العدد ٣٩، مارس ١٩٩٧ م.
- ساعاتي، يحيى محمود، الوقف وبنية المكتبات العربية استبطان للموروث الثقافي، ط ١، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٨٨ م.
- السباعي، مصطفى، من روائع حضارتنا، ط ٢، بيروت: دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٦٨ م.
- شافعي، فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية، الجزء الأول عصر الولاة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠ م.
- شبير، محمد عثمان، بيت المقدس وما حوله، خصائصه العامة وأحكامه الفقهية، ط ١، الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٧ م.
- شعبان، زكي الدين، والغندور، أحمد، أحكام الوصية والميراث والوقف في الشريعة الإسلامية، ط ٢، الكويت: مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ١٩٨٩ م.
- الصالح، محمد بن أحمد بن صالح، الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، ط ١، الناشر المؤلف، ٢٠٠١ م.
- الصلاحات، سامي محمد، دور الوقف في مجال التعليم والثقافة في المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة، دولة ماليزيا المسلمة نموذجاً، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، ٢٠٠٣ م.
- الطنطاوي، علي، الجامع الأموي في دمشق، وصف وتأريخ، ط ١، جدة: دار المنارة للنشر والتوزيع، ١٩٩٠ م.

الطيباوي، عبد اللطيف، ترجمة عزت جرادات، الأوقاف الإسلامية بجوار المسجد الأقصى بالقدس، أصلها وتاريخها واغتصاب إسرائيل لها، الأردن: منشورات وزارة الأوقاف والشئون والمقدسات الإسلامية، ١٩٨١م.

عاشور، محمد العزيز، جامع الزيتونة، المعلم ورجاله، تونس: دار سراس للنشر، ١٩٩١م.

عبد العليم، فهمي، العمارة الإسلامية في عصر المماليك الجراكسة "عصر السلطان المؤيد شيخ"، القاهرة: المجلس الأعلى للآثار، ٢٠٠٣م.

عثمان، محمد عبد الستار، العمارة الفاطمية، الكتاب الأول، ط١، دار القاهرة، ٢٠٠٦م.

عثمان، محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٢٨، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٨م.

عثمان، محمد عبد الستار، نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ٢٠٠٠م.

عزب، خالد، فقه العمارة الإسلامية، القاهرة: دار النشر للجامعات - مصر، ١٩٩٧م.

عفيفي، محمد، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م.

عفيفي، محمد، الأوقاف والملاحة البحرية في البحر الأحمر في العصر العثماني، دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٩٥م.

علي، سعيد إسماعيل، الأزهر على مسرح السياسة المصرية، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٤م.

- علي، سعيد إسماعيل، معاهد التعليم الإسلامي، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٨م.
- العمر، فؤاد عبد الله، إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، ٢٠٠٠م.
- عنان، محمد عبد الله، تاريخ الجامع الأزهر، ط ٢، القاهرة: مؤسسة الخانجي، ١٩٥٨م.
- عيسى، أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط ٢، بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨١م.
- غانم، إبراهيم البيومي، الأوقاف والسياسة في مصر، ط ١، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨م.
- فرهود، محمد السعدي، تاريخه وتطوره، ط ٢، القاهرة: الأزهر الشريف، ١٩٨٣م.
- قحف، منذر، الوقف الإسلامي: تطوره، إدارته، تنميته، دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٠م.
- كردعلي، محمد، خطط الشام، ج ٥، ط ٢، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧١م.
- كردعلي، محمد، خطط الشام، ج ٦، ط ٢، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٢م.
- الكردي، أحمد الحججي، بحوث وفتاوى فقهية معاصرة، ط ١، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٩٩٩م.
- محمد، رفعت موسى، الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية، ط ١، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣م.
- محمد، محمود الحاج قاسم، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٤م.

مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، أسس التصميم المعماري والتخطيط الحضري في العصور الإسلامية المختلفة، دراسة تحليلية على العاصمة القاهرة، ١٩٩٠. المصري، رفيق يونس، الأوقاف فقهاً واقتصاداً، ط ١، دمشق: دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.

المصري، رفيق يونس، الأوقاف فقهاً واقتصاداً، ط ١، دمشق: دار المكتبي، ١٩٩٩م. مصطفى، صالح لمعي، التراث المعماري الإسلامي في مصر، بيروت: جامعة بيروت العربية، ١٩٧٥م.

نور الدين، زرهوني، الطب والخدمات الطبية في الأندلس، خلال القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي، إسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠٠٦م.

وزارة الثقافة، القاهرة: خان الزراكشة، ٢٠٠٦م. ياغي، غزوان مصطفى، منازل القاهرة ومقاعدها في العصرين المملوكي والعثماني، دراسة أثرية حضارية، ط ١، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠٤م.

رابعاً: الدراسات والأبحاث

إبراهيم، عبد الكريم، الأوقاف الإسلامية في فلسطين (المحددات العامة والأصول التاريخية)، مجلة أوقاف، العدد ٦، السنة الثالثة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، يونيو ٢٠٠٤م.

الأرناؤوط، محمد، الوقف في الدولة العثمانية قراءة معاصرة، مجلة أوقاف، العدد ٣، السنة الثانية، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٢م.

الأرناؤوط، محمد، دور الوقف في نشوء المدن الجديدة في البوسنة (سرايفو نموذجاً)،
مجلة أوقاف، العدد ٨، السنة الخامسة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف،
مايو ٢٠٠٥م.

الأرناؤوط، محمد، وقفية مدرسة الغازي خسرو بك في سرايفو، مجلة أوقاف،
العدد ١٣، السنة السابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر
٢٠٠٧م.

اميداني، حسين، مجمع الربيع الرشدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسية رائدة في
الوقف، مجلة أوقاف، العدد ١، السنة الأولى، الكويت: الأمانة العامة
للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠١م.

أمين، محمد محمد، ازدهار الأوقاف في عصر سلاطين المماليك، دراسة تاريخية وثائقية
- نموذج مصر، مكة المكرمة: مؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية
السعودية، شعبان، ١٤٢٢هـ.

الباحوث، عبد الله بن سليمان بن عبد العزيز. "الوقف والتنمية الاقتصادية". مكة
المكرمة: مؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، شعبان،
١٤٢٢هـ.

التازي، عبد الهادي، توظيف الوقف لخدمة السياسة الخارجية في المغرب، بحث
منشور في كتاب الوقف في العالم الإسلامي، دمشق: المعهد الفرنسي
للدراسات العربية، ١٩٩٥م.

الحافظ، محمد مطيع، البيمارستان النوري بحلب ووقفه، مجلة أوقاف، العدد ٦،
السنة الثالثة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، يونيو ٢٠٠٤م.

الحجوي، محمد، الجوامع والمدارس والزوايا والخزانات التي ازدهرت بمال الوقف في المغرب، مجلة أوقاف، العدد ٧، السنة الرابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٤م.

الحجوي، محمد، الوقف الخيري في المغرب قديماً وحديثاً وأثره الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، مجلة أوقاف، العدد ٤، السنة الثالثة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٣م.

حريري، عبد الله محمد أحمد، دور الوقف في دعم الجوانب التربوية والدينية والعلمية والثقافية، مؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة: شعبان، ١٤٢٢هـ.

الحصين، محمد بن عبد الرحمن، دور الوقف في تأسيس المدارس والأربطة والمحافظة عليها في المدينة المنورة، مجلة جامعة الملك سعود، الرياض: العمارة والتخطيط، م ٩، ١٩٩٧م.

الخوراني، ياسر عبد الكريم، تجربة الوقف في إطار عالمي، مجلة أوقاف، العدد ٦، السنة الثالثة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، يونيو ٢٠٠٤م.

الحيزان، محمد بن عبد العزيز، دور الإعلام في توعية الجمهور بالوقف، مجلة أوقاف، العدد ٤، السنة الثالثة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٣م.

الخطيب، ياسين بن ناصر، أثر الوقف في نشر التعليم والثقافة، مكة المكرمة: مؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، شعبان، ١٤٢٢هـ.

خفاجي، ريهام أحمد، أوقاف النساء: نماذج لمشاركة المرأة في النهضة الحضارية، دراسة للحالة المصرية في النصف الأول من القرن العشرين، مجلة أوقاف، العدد ٤، السنة الثالثة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٣م.

دنيا، شوقي أحمد، الوقف النقدي مدخل لتفعيل دور الوقف في حياتنا المعاصرة،
مجلة أوقاف، العدد ٣، السنة الثانية، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف،
نوفمبر ٢٠٠٢م.

الرشيد، ناصر بن سعد، تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها، ندوة
مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية في مكة المكرمة في ١٨ - ١٩ شوال
١٤٢٠هـ.

الرفاعي، حسن محمد، الوقف على المؤسسات التعليمية (كلية التكنولوجيا نموذجاً)،
مجلة أوقاف، العدد ١٢، السنة السابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف،
مايو ٢٠٠٧م.

الزريقي، جمعة محمود، الوقف الأهلي بين الإلغاء والإبقاء، مجلة أوقاف، العدد ٣،
السنة الثانية، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٢م.
الزريقي، جمعة محمود، مستقبل المؤسسات الوقفية: في نطاق الثابت والمتغير لنظام
الوقف الإسلامي، مجلة أوقاف، العدد ٧، السنة الرابعة، الكويت: الأمانة
العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٤م.

ساجواني، عماد جعفر، تأثير المنهج الإسلامي على الطابع والشخصية في تخطيط
المدينة، أبحاث الحلقة الدراسية الرابعة، "المنهج الإسلامي في التصميم
المعماري والحضري"، جدة: منظمة المدن والعواصم العربية، ١٩٩١م.
الضحيان، عبد الرحمن، الأوقاف ودورها في تشييد بنية الحضارة الإسلامية، ندوة
المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية.

العاني، عبد القادر داود عبد الله، العوامل التي أدت إلى تدهور الوقف عبر التاريخ الإسلامي، مؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ.

عبد الرحمن، أحمد عوف محمد، الأوقاف والرعاية الصحية، مجلة أوقاف، العدد ٦، السنة الثالثة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، يونيو ٢٠٠٤م.

عبد الرحمن، أحمد عوف محمد، دراسة وثائقية لأول وثيقة وقفية في الإسلام "وقفية عمر بن الخطاب رضي الله عنه"، مجلة أوقاف، العدد ٣، السنة الثانية، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٢م.

عبد الرحمن، أحمد عوف محمد، موسوعة الوقف المسيرة للأطفال، مجلة أوقاف، العدد ١٠، السنة السادسة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٦م.

عبد الله، طارق، عولة الصدقة الجارية: نحو أجندة كونية للقطاع الوقفي، مجلة أوقاف، العدد ١٤، السنة الثامنة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٨م.

العكش، محمد بن أحمد، تجربة الأوقاف في المملكة العربية السعودية، مجلة أوقاف، العدد ٤، السنة الثالثة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٣م.

العلمي، عبد الرحيم، الاجتهادات الفقهية في نوازل الوقف عند المالكية، مجلة أوقاف، العدد ١٢، السنة السابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٧م.

علي، هند مصطفى، الأميرة فاطمة بنت إسماعيل: الوقف كمشروع إصلاح، مجلة أوقاف، العدد ١٣، السنة السابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٧م.

العمر، فؤاد، دور مؤسسات الوقف المعاصرة في رعاية قضايا المرأة (إشكاليات وتجارب)، مجلة أوقاف، العدد ١٠، السنة السادسة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٦م.

غباشي، عادل بن محمد نور، أوقاف عين زبيدة في عهد الملك عبد العزيز، مكة المكرمة: مؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، شعبان، ١٤٢٢هـ.

قاسم، أحمد، الوقف في تونس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بحث منشور في كتاب الوقف في العالم الإسلامي، دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٩٥م.

قرقوتي، حنان إبراهيم، تطور تنظيم الوقف في لبنان (نموذج رعاية اليتامى في مدينة بيروت)، مجلة أوقاف، العدد ١٢، السنة السابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٧م.

القره داغي، على محيي الدين، تنمية موارد الوقف والحفاظ عليها (دراسة فقهية مقارنة)، مجلة أوقاف، العدد ٧، السنة الرابعة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، نوفمبر ٢٠٠٤م.

لمعي، مصطفى صالح، عمارة السبيل: الشكل والمضمون، أبحاث الحلقة الدراسية الرابعة، "المنهج الإسلامي في التصميم المعماري والحضري"، جدة: منظمة المدن والعواصم العربية، ١٩٩١م.

مفيد، خديجة، المرأة والوقف — التجربة المغربية، مجلة أوقاف، العدد ١٠، السنة السادسة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٦م.

الهييتي، عبد الستار إبراهيم، الجامعة الوقفية الإسلامية، مجلة أوقاف، العدد ٢، السنة الثانية، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، ٢٠٠٢م.

الهييتي، عبد الستار إبراهيم، الوقف ودوره في التنمية، البحث الفائز بجائزة مكتبة الشيخ على بن عبد الله آل ثاني الوقفية العالمية لعام ١٩٩٧م، قطر: مركز البحوث والدراسات.

خامساً: المقالات والدوريات

أبو المكارم، محمد أمين، الوقف والموقوف عليه من زاوية فقهية واجتماعية واقعية، مجلة الواحة، العدد ٩.

أنور الياسين، كنوز القاهرة .. مدينة الألف سنة والألف مثذنة، مجلة العربي، العدد ٤٧٦، وزارة الإعلام، الكويت، يوليو ١٩٩٨م.

السباعي، ليلى، فاطمة .. أميرة في خدمة الشعب، مجلة الأهرام الاقتصادي، العدد ١٥٦٠، القاهرة، ١٩٩٨م.

عصفور، جابر. "معنى الجامعة". مجلة العربي. العدد ٤٥١، الكويت: وزارة الإعلام، يونيو ١٩٩٦م.

سادساً: الكتب والمراجع الأجنبية

- Fletcher's, S. B., A History of Architecture, Nineteenth Edition, Butterworths, London, 1987.
- Hillenbrand, R., Islamic Architecture, Form, function and meaning, Edinburgh University Press, Edinburgh, 2000.
- Hillenbrand, R., Islamic Art and Architecture, Thames and Hudson Ltd, London, 1999.
- Hoag, J. D., Islamic Architecture, Harry N. Abrams, Inc., Publishers, New York, 1977.
- Michell, G., Architecture of the Islamic World, its History and Social Meaning, Thames and Hudson Ltd, London, 1996.

سابعاً: الدراسات والأبحاث الأجنبية

- Khafagy, R. A., Beyond Politics: Roles of Islamic Endowments in Resisting Colonialism in Egypt (1882- 1952), Awqaf, No. 13, Year 7, Kuwait Awqaf Public Foundation, Kuwait, November 2007.
- Marsoof, S., Awqaf Experience in Sri Lanka, Awqaf, No. 6, Year 3, Kuwait Awqaf Public Foundation, Kuwait, June 2004.

ثامناً: مواقع على شبكة الإنترنت

سالم، ابتسام، عين زبيدة، من الموقع التالي :

.<<http://www.alfalaq.com/sam/sam14.htm>>

غانم، إبراهيم البيومي، دور الأوقاف في خدمة الآثار والفنون الجميلة، الإسلام

وقضايا العصر، <www.islamonline.net>.

<<http://ar.wikipedia.org/wiki/>>

<<http://www.cim.gov.eg>>

<<http://www.islamonline.net/arabic/arts/2001/01/article1.shtml>>

<<http://www.sis.gov.eg/Ar/Arts&Culture/Archaeology/islamic/>>

كشاف الموضوعات

الأزهر، ٢٤، ٣٥، ٥٥-٥٩،

١٠١-١٠٧، ١٦٩،

١٧٦، ١٩٨، ٢٣٥

استثمار الوقف، ١٩

الإسكندرية، ٤٧، ٧٦، ٩٩، ١٦٨،

١٩٨

الأسوار، ١٦٩، ١٩٧

الإصطخري، ١٨٩

الإمام السيوطي، ٣٠

الأمير بيلبك الخازندار، ٥٨

الأناضول، ١٦٨

أوقاف المغاربة، ١٠٤

ب

بئر رومة، ٤، ٣١، ١٩٩، ٢٠٠

أ

ابن أحمد القيسي، ٢٠٧

ابن الجوزي، ١١٣، ١٢٠، ١٢١

ابن جبير، ٢٨، ٧١، ٧٨، ٨١،

١١٧، ١٣٨، ١٤٢،

١٤٤، ١٥١، ١٧٢

ابن حجر العسقلاني، ٢

ابن فضل الله العمري، ٢٦

ابن كثير، ٩١، ١١٣، ١٢٤، ١٤٢،

١٤٤

أبو الحسن المسعودي، ٧٣

إدارة الوقف، ١٢، ١٨، ١٩،

٢٢٧، ٢٣٣، ٢٤٣

أرض مخيرق، ٣

- بئر، آبار، ٤، ٢٤، ٣١، ١٨٠،
 ١٨٢، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١،
 ٢٠٢، ٢٠٦-٢٠٨، ٢١٢،
 تعطيل الأوقاف، ٢٢٧، ٢٢٨،
 التعليم المهني، ١٠٠،
 تنمية الوقف، ٢٠

ج

٢١٩

- بيمارستان أحمد بن طولون، ١٣٩
 بيمارستان العزّافين، ١٥٧
 البيمارستان العضدي، ١٤٠
 البيمارستان المؤيدي، ١٥٥، ١٥٦
 بيمارستان المدينة المنورة، ١٤٦
 بيمارستان الموصل، ١٤٤
 البيمارستان النوري الكبير بدمشق،
 ١٤١
 البيمارستان النوري بحلب، ١٧، ١٤٣
 بيمارستان عكا، ١٤٥
 بيمارستان غزة، ١٤٥
 بيمارستان قلاوون، ٣٢، ١٤٧،
 ١٥٤، ١٩٠
 بيمارستان مراكش، ١٥٦
 بيمارستان مكة المكرمة، ١٥٤
 البيمارستانات المتنقلة، ١٥٩، ١٦٠
 جابر بن حيان، ١١١
 جامع أحمد بن طولون، ٥٣، ٥٤
 الجامع الأعظم بالجزائر، ٤١
 الجامع الأموي، ٤٩، ٥٠
 جامع الزيتونة، ٥٠، ٥١
 جامع القرويين، ٥١، ٥٢، ١٠١،
 ١٠٧
 جامع سنقر، ٣٠
 جامع عمرو بن العاص، ٤٧
 جامعة القاهرة، ١٠٨
 جندياسبور، ١٣٥

ح

- الحاكم بأمر الله، ٥٧، ١٠٦
 حانوت، حوانيت، ٤١، ٥٧، ٨٣،
 ١٠٢، ١٠٨، ١٤٧، ١٦٨،
 ١٨٨ - ١٩٠، ١٩٧، ٢٠٩

ت

- الترع الزراعية، ٢١٩

- الحرمين الشريفين، ٤٢، ٤٣، ٤٥، خانقاة، خانقوات، ٣٨، ٦٠-٦٣، ٢٢٠، ١١٦، ١١٩، ١٤٥، ١٥٥، الحصون، ١٩٦، الخضارة الإسلامية، ١، ٥، ٦٩، ٧٠، ٨١، ١٠١، ١٢٩، الحمامات العامة، ٢٢٣، ٢٢٥، حي المغاربة، ٤٧

د

- دار الحكمة بالقاهرة، ١٠٦، خان المرجان، ١٦٩، دار العدة في فجيج، ١٢٤، ١٢٥، خان يونس، ٢٣، دمشق، ٢٧-٣٠، ٤٦، ٤٩، ٦٧، خان، خانات، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٨٥، ٧٨، ٨١-٨٤، ٩٧، ١٠١، ٨٩، ١٤٥، ١٦٤، ١٦٦-١٧٠، ١٧٠، ١٨٧، ١٩٠، ٢٠٤، ٢٣٥، ٢٠٩

ر

- رباط الآثار النبوية الشريفة، خانقاة الأمير علاء الدين أيديكين، البندقداري، ٦١، خانقاة المؤيد بالجيزة، ٦٣، خانقاة فرج بن برقوق بالقاهرة، ٦١، ٦٢، رباط اللفسطاط، ١٢٩، رباط الحجازية، ١٨٠، رباط سوسة، ١٧٩

- رباط، أربطة، ٢٩، ٤٥، ٩٥،
١٢٩، ١٣٢، ١٤٤، ١٧٧-
١٨٢، ١٩٦، ٢٣٤
ربع، ربوع، ١٠٠، ١٢٢، ١٢٣،
١٤٤-١٤٦، ١٥٩، ١٧٠-
١٧٢، ١٨٨، ٢٣٥
رشيد الدين فضل الله الهمداني، ٢٠،
١٧١، ١٧٠
رواق المغاربة، ١٠٤

ز

- زاوية، زوايا، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٢٩،
٣٨، ٤٨، ٦٣-٦٥، ٧٩،
١١٤، ١٥٤، ١٧٩

س

- سبيل، أسبلة، ٤٢، ٦٤، ٧١، ٨٨،
٩٣، ٩٤، ١٢٨، ١٣٧،
١٤٥، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٨،
١٨٩، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠٠،
٢٠١، ٢٠٨-٢١٧، ٢١٩

سفن الأوقاف، ٢١٢

- السقايات، ٢٤، ٢٠٠، ٢٠٦-٢٠٨،
٢١٤
سقاية العباس بن عبد المطلب، ٢٠٦
السكة الحديدية الحجازية، ٢٢٠
سمرقند، ٨٧، ٨٨، ٢٤٠
السندات الورقية، ٢٣٩، ٢٤٠
سوق، أسواق، ٢٤، ٨٢، ٨٤،
٧٩، ٩٧، ١٢٤، ١٣٩،
١٤١، ١٤٧، ١٦٥، ١٨٩،
١٩١

سيرلانكا، ٤١

ش

- شاهد العمارة، ٣٣
شروط الواقف، ١٥، ١٧، ٣٠،
٧٢، ١١٦، ١٤٨، ١٧٣

ص

- الصناديق الوقفية، ٢٣٩، ٢٤٠
الطرق العامة، ٢١٨
الطواحين، ٢١، ٢٤

ع

عبد الملك بن مروان، ٤٦

٧١-٧٣، ٧٦، ٧٨، ٨٣،
٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩٤، ٩٩،
١٠٦، ١٠٨، ١٢٢، ١٢٤،
١٢٨-١٣٠، ١٤٧، ١٥٥،
١٥٦، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٩،
١٧٢-١٨٤، ١٧٦، ١٨٠،
١٨٤، ١٨٥، ١٨٨، ١٨٩،
١٩١، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠١،
٢٠٢، ٢١٣، ٢١٥-٢١٧،
٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٤-٢٢٦،

٢٣٤

قبة الصخرة، ٤٦

قرطاجنة، ٥٠

القلاع، ١٩٦

القلقشندي، ٢٨، ٤١، ٨٥

القناطر، ٢٠١، ٢١٨

قيسارية، قيساريات، ٦١، ١٣٩،

١٤٧، ١٦٥، ١٨٧، ١٩٠،

١٩١



كّتاب، كتّايب، ٧١، ٧٢، ٧٥،

٨٨، ١٨٩، ١٩٥، ٢٠٨،

٢٠٩، ٢١١

عمارة الأوقاف، ٣١، ٣٣

العمارة العسكرية، ١٣٢

العين العزيزية بجدة، ٢٠٣، ٢٠٥

العين الوزيرية، ٢٠٥

عين زبيدة، ٣٢، ٢٠٣، ٢٠٤

عين عرفات، ٢٠٣، ٢٠٤

العيون، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٦، ١٤٩،

١٥١، ٢٠٣، ٢٠٤



فاس، ٥١، ٨٠، ١٠٨، ١٢٤،

١٣٤

الفاسي، ١٥٤، ٢٠٧، ٢١٤

الفسطاط، ٢٦، ٤٧، ١٢٩، ١٣٩،

١٤٧، ١٦٥، ١٦٨، ٢٠٨،

٢٣٤

فقه الوقف، ١٢، ١٣، ٢٣٢

الفن المعماري، ٤٦، ٩١

الفنون الجميلة، ٩٩، ١٠٠، ١١٣،

١٢٩، ١٣١



القاهرة، ٦، ١٩-٢١، ٢٤-٢٧،

٢٩، ٣٠، ٣٣، ٣٤، ٤٧،

٤٨، ٥٤-٥٧، ٦١-٦٤،



- المدرسة الصالحية، ١٨، ٨٥، ١٠١
- المدرسة الصلاحية، ٣٠
- المدرسة الفاضلية، ٨٣، ١٢٠
- المدرسة الكاملية، ٨٤
- المدرسة المحمودية، ٩٥، ١٢٤
- المدرسة المستنصرية ببغداد، ٨٩-
- ٩١، ١٠١، ١١٣، ١٢٤
- المدرسة الناصرية، ٣٠، ١٠١، ١٠٢
- المدرسة النظامية، ٧٨، ١٠١، ١٠٢
- المدرسة النورية الكبرى بدمشق، ٨٢
- مدرسة بشير أغا، ٩٤
- مدرسة قايتباي، ٨٨، ٨٩
- مدرسة ميرزا ألغ بك، ٨٧، ٨٨
- المدينة الإسلامية، ٢١-٢٤، ٣٧،
- ٣٨، ٦٧، ٧١، ١٢٧، ١٣٣،
- ١٣٤، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٦،
- ١٨٥، ١٨٧، ١٩١، ١٩٩،
- ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٣٤، ٢٤٠
- المدينة المنورة، ٣١، ٣٧، ٣٩، ٤٢،
- ٤٣، ٩٥، ١٠١، ١٢٦،
- ١٤٦، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٦،
- ١٨١، ١٨٩، ١٩٩، ٢٠١،
- ٢٠٧، ٢٢١
- مؤسسات الحليب والسكر، ١٨٤
- مؤسسات الرعاية الاجتماعية
- للحيوان، ١٦٣، ١٧٤،
- ١٧٧، ١٧٩، ١٨٦، ٢٣٤
- مؤسسات الزبادي، ١٨٥
- مباني السجون، ١٨٥
- المباني السكنية، ١٦٣، ١٨٧
- مباني الطب الوقائي، ١٦١
- مباني المعاقين، ١٨٤
- المتاحف، ١١٣، ١٢٧
- متحف الفن الإسلامي، ١٢٩، ١٣٠
- مجمع الربع الرشيدى، ١٢٢، ١٤٥،
- ٢٣٥، ١٧٠
- المدارس الطبية، ٩٧، ٩٨، ١١٢،
- ١٢٦
- المدرسة الأفضلية، ٨٣، ٨٤
- المدرسة الأكرزية، ٨٣
- المدرسة الحجازية، ١٦٤
- المدرسة الحميدية، ٩٥
- مدرسة السلطان حسن، ٨٥، ٨٦

المنشآت التجارية، ١٦٣، ١٨٧

المنشآت الصناعية، ١٩١

المنشآت العسكرية، ١٩٥

المنشآت المدنية، ١٨

المنشآت الوظيفية، ١٦٣، ١٩٩

ن

ناظر الوقف، ١٥-١٧، ٣١، ٣٣

١٣٨

نور الدين محمود زنكي، ٨١، ١٠١

و

الوقف الأهلي، ٦-٨، ٤١، ٢٢٨

الوقف الخيري، ٦-٨، ٤٢، ١٠٨

٢٣٠

وقف العقار، ١٣

الوقف المشترك، ٦، ٨، ٢٣٠

وقف النقود، ١٣، ١٤، ١٩، ٢٣٨

وكالة، وكالات، ٢١، ١٢٨، ١٦٦،

١٧٤، ١٨٧-١٨٩، ١٩٥

المرافق الخدمية، ٣٠

المرافق المائية، ١٩٩

مساكن الطلبة، ٧٩، ١٧٢

المستشفيات البيطرية، ١٦١

المسجد الأقصى، ٤٥-٤٧

المسجد النبوي، ٣، ٣٩، ٤٢، ١٤٦

مطابخ السكر، ١٩٤

المقابر، ٢٢٦

المقريري، ١٨، ٣٠، ٥٦، ٥٧،

٦٣، ٦٤، ٧٠، ٧١، ٨٣،

٨٤، ٨٦، ١٢٢، ١٥٥،

١٦٩، ١٧٨، ١٨٠، ١٩١،

١٩٧، ٢٢٩، ٢٣٤

مكة المكرمة، ٣٢، ٧٨، ٨٧، ١٠١،

١٥٤، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٦،

١٨٠، ٢٠٢-٢٠٤، ٢٠٦،

٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٥

المكتبات الطبية، ١٢٦

مكتبة المدرسة المستنصرية، ١٢٤

مكتبة بيت الحكمة، ١٢٠

مكتبة دار الحكمة، ١٢٢

ملاجئ الأيتام، ١٨٣

منازل العز، ٢٢٤

المحتويات

المقدمة.....	هـ
الفصل الأول: خلفية عن الوقف والعمران	١
(١,١) الوقف في الإسلام	١
(١,١,١) ماهية الوقف	٢
(١,١,٢) نشأة الوقف في الإسلام	٣
(١,١,٣) مشروعية الوقف	٥
(١,١,٤) أنواع الوقف	٦
(١,١,٥) أهمية الوقف	٩
(١,١,٦) تطور فقه الوقف	١٢
(١,١,٧) شروط صحة الوقف	١٤
(١,١,٨) شروط الواقف	١٥
(١,١,٩) النظارة على الوقف	١٦
(١,١,١٠) استثمار الوقف	١٩

٢١	(١,٢) الوقف والعمران
٢٣	(١,٢,١) الوقف ونشأة وتطور المدن
٢٧	(١,٢,٢) كثرة الأوقاف وكثرة العمران
٣٠	(١,٢,٣) متانة المباني الموقوفة
٣٥	(١,٢,٤) الأوقاف والنواحي الجمالية
٣٦	(١,٢,٥) الأوقاف والنواحي الاجتماعية

٣٧	الفصل الثاني: الوقف والمنشآت الدينية
٣٩	(٢,١) المساجد
٤٢	(٢,١,١) الحرمين الشريفين
٤٥	(٢,١,٢) المسجد الأقصى
٤٧	(٢,١,٣) جامع عمرو بن العاص
٤٩	(٢,١,٤) الجامع الأموي
٥٠	(٢,١,٥) جامع الزيتونة
٥١	(٢,١,٦) جامع القرويين
٥٣	(٢,١,٧) جامع أحمد بن طولون
٥٥	(٢,١,٨) الجامع الأزهر
٦٠	(٢,٢) الخانقاوات
٦١	(٢,٢,١) خانقاة فرج بن برقوق
٦٣	(٢,٢,٢) خانقاة المؤيد
٦٣	(٢,٣) الزوايا

٦٧	الفصل الثالث: الوقف والمنشآت التعليمية
٦٩	(٣,١) المساجد كمدارس علمية
٧١	(٣,٢) الكتاتيب
٧٣	(٣,٣) المدارس
٧٨	(٣,٣,١) المدرسة النظامية
٧٩	(٣,٣,٢) مدرسة الصابرين
٨٠	(٣,٣,٣) المدرسة اليوسفية
٨١	(٣,٣,٤) المدرسة النورية الكبرى
٨٣	(٣,٣,٥) المدرسة الفاضلية
٨٣	(٣,٣,٦) المدرسة الأكزية
٨٣	(٣,٣,٧) المدرسة الأفضلية
٨٤	(٣,٣,٨) المدرسة العادلةية الكبرى
٨٤	(٣,٣,٩) المدرسة الكاملة
٨٥	(٣,٣,١٠) المدرسة الصالحية
٨٥	(٣,٣,١١) مدرسة السلطان حسن
٨٧	(٣,٣,١٢) مدرسة الملك المنصور غياث
٨٧	(٣,٣,١٣) مدرسة ميزا ألغ بك
٨٨	(٣,٣,١٤) مدرسة قايتباي
٨٩	(٣,٣,١٥) المدرسة المستنصرية
٩٣	(٣,٣,١٦) مدرسة الساقلي
٩٤	(٣,٣,١٧) مدرسة بشير أغا

٩٥ المدرسة الحميدية (٣,٣,١٨)
٩٥ المدرسة المحمودية (٣,٣,١٩)
٩٦ مدارس علي باشا (٣,٣,٢٠)
٩٦ مدرسة خسرو باشا (٣,٣,٢١)
٩٧ المدارس الطبية (٣,٤)
٩٩ مدارس الفنون الجميلة (٣,٥)
١٠٠ التعليم المهني (٣,٦)
١٠١ الجامعات (٣,٧)
١٠٢ الأزهر كجامعة علمية (٣,٧,١)
١٠٦ دار الحكمة بالقاهرة كجامعة علمية (٣,٧,٢)
١٠٧ جامع القرويين كجامعة علمية (٣,٧,٣)
١٠٨ الجامعة المصرية - جامعة القاهرة حالياً (٣,٧,٤)
١١١ المؤسسات البحثية (٣,٨)

١١٣ الفصل الرابع: الوقف والمنشآت الثقافية
١١٤ المكتبات (٤,١)
١٢٠ مكتبة بيت الحكمة (٤,١,١)
١٢١ مكتبة المستنصر ابن الناصر (٤,١,٢)
١٢١ دار العلم (٤,١,٣)
١٢٢ مكتبة دار الحكمة (٤,١,٤)
١٢٢ مكتبة الربع الرشيدى (٤,١,٥)

١٢٣ (٤,١,٦) خزانة القرويين
١٢٤ (٤,١,٧) مكتبة المدرسة المحمودية
١٢٤ (٤,١,٨) مكتبة المدرسة المستنصرية
١٢٤ (٤,١,٩) دار العدة
١٢٥ (٤,١,١٠) مكتبة أي عمر ميمون الصنهاجي
١٢٥ (٤,١,١١) مكتبة طرابلس
١٢٦ (٤,١,١٢) مكتبة شيخ الإسلام حكمة عارف
١٢٦ (٤,٢) المكتبات الطبية
١٢٧ (٤,٣) المتاحف
١٢٧ (٤,٣,١) متاحف الآثار المفتوحة بشوارع المدن الإسلامية
١٢٩ (٤,٣,٢) رباط الآثار النبوية الشريفة بالقسطة
١٢٩ (٤,٣,٣) متحف الفن الإسلامي بالقاهرة
١٣٣ الفصل الخامس: الوقف والمنشآت الطبية
١٣٤ (٥,١) البيمارستانات
١٣٩ (٥,١,١) بيمارستان أحمد بن طولون
١٤٠ (٥,١,٢) البيمارستان العضدي
١٤١ (٥,١,٣) البيمارستان النوري الكبير بدمشق
١٤٣ (٥,١,٤) البيمارستان النوري بحلب
١٤٤ (٥,١,٥) بيمارستان الموصل
١٤٥ (٥,١,٦) بيمارستان عكا

١٤٥ (٥,١,٧) بيمارستان غزة
١٤٥ (٥,١,٨) مجمع الربع الرشيدى في إيران
١٤٦ (٥,١,٩) بيمارستان المدينة المنورة
١٤٧ (٥,١,١٠) بيمارستان قلاوون بالقاهرة
١٥٤ (٥,١,١١) بيمارستان غرناطة
١٥٤ (٥,١,١٢) بيمارستان مكة المكرمة
١٥٥ (٥,١,١٣) البيمارستان المؤيدى
١٥٦ (٥,١,١٤) بيمارستان مراکش
١٥٧ (٥,١,١٥) بيمارستان العزافين
١٥٧ (٥,٢) البيمارستانات كمراكز تعليم طبية
١٥٩ (٥,٣) البيمارستانات المتقلة
١٦١ (٥,٤) مباني الطب الوقائي
١٦١ (٥,٥) المستشفيات البيطرية
١٦٣ الفصل السادس: الوقف والمنشآت الأخرى
١٦٣ (٦,١) المباني السكنية
١٦٤ (٦,١,١) المساكن والدور الخاصة
١٦٦ (٦,١,٢) الخانات ودور الضيافة والفنادق
١٧٠ (٦,١,٣) مساكن الفقراء
١٧١ (٦,١,٤) الربوع
١٧٢ (٦,١,٥) مساكن الطلبة

١٧٤	(٦,٢) مؤسسات الرعاية الاجتماعية
١٧٥	(٦,٢,١) التكايا
١٧٧	(٦,٢,٢) الأربطة
١٨٣	(٦,٢,٣) ملاجئ الأيتام
١٨٤	(٦,٢,٤) دور المسنين
١٨٤	(٦,٢,٥) مباني المعاقين
١٨٤	(٦,٢,٦) مؤسسات الحليب والسكر
١٨٥	(٦,٢,٧) مؤسسات الزبادي
١٨٥	(٦,٢,٨) خزانات الكسوة
١٨٥	(٦,٢,٩) مباني السجون
١٨٦	(٦,٢,١٠) مؤسسات الرعاية الاجتماعية للحيوان
١٨٧	(٦,٣) المنشآت التجارية
١٨٧	(٦,٣,١) الوكالات
١٨٩	(٦,٣,٢) الأسواق والحوانيت
١٩١	(٦,٣,٣) القيساريات
١٩١	(٦,٤) المنشآت الصناعية
١٩١	(٦,٤,١) صناعة المعدات الحربية
١٩٤	(٦,٤,٢) مطابخ السكر
١٩٥	(٦,٥) المنشآت العسكرية
١٩٩	الفصل السابع: الوقف ومنشآت المرافق العامة
١٩٩	(٧,١) المرافق المائية
٢٠١	(٧,١,١) الآبار

٢٠٣	(٧، ١، ٢) العيون
٢٠٦	(٧، ١، ٣) السقايات
٢٠٨	(٧، ١، ٤) الأسبلة
٢١٧	(٧، ١، ٥) أحواض شرب الدواب
٢١٨	(٧، ٢) الطرق العامة
٢١٩	(٧، ٣) الترع الزراعية
٢٢٠	(٧، ٤) السكة الحديدية الحجازية
٢٢١	(٧، ٥) سفن الأوقاف
٢٢٣	(٧، ٦) الحمامات العامة والمطاهر
٢٢٦	(٧، ٧) المقابر
٢٢٧	الفصل الثامن: تفعيل دور الوقف في عمران المدينة الإسلامية المعاصرة
٢٢٨	(٨، ١) مشكلات الأوقاف القديمة
٢٢٨	(٨، ١، ١) الاستيلاء على الأوقاف
٢٣٠	(٨، ١، ٢) الانحراف بالوقف عن قصده وغايته
٢٣١	(٨، ٢) إشكالية الوقف في العصر الحالي
٢٣٤	(٨، ٣) أثر اندثار الوقف على عمران المدينة الإسلامية
٢٣٦	(٨، ٤) الحاجة إلى إحياء الوقف
٢٣٧	(٨، ٥) الصيغ المعاصرة للوقف
٢٣٩	(٨، ٥، ١) الصناديق الوقفية
٢٤٠	(٨، ٥، ٢) السندات الورقية

٢٤٠ (٨,٦) كيفية إحياء الوقف في العصر الحالي
٢٤١ (٨,٦,١) التوعية الإعلامية بالوقف
٢٤٣ (٨,٦,٢) إحياء الثقة
٢٤٣ (٨,٦,٣) تطوير إدارات الأوقاف
٢٤٥ المراجع
٢٦١ كشف الموضوعات